كلمة العدد

بقلم : الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة

العالم العربي بين الحواجز النفسية والحواجز الجغرافية

ان الكارثة التي حلت بالخليج مؤخرا تجاوزت كل منطق وعصفت بالكثير من القيم التي عاشت عليها كل شعوب هذه المنطقة طوال تاريخها . وقد حار المحللون والمفكرون والكتاب ازاء ما حدث . لماذا حدث ؟ ولأي غاية حدث ؟ وما هي الموازين التي كانت تحكم تفكير السلطة العراقية ازاء واقع سياسي وعسكري كان واضحا وضوح الشمس في أبعاده ونتائجه . وبما أن العقل والحكمه يحتمان علينا أن ننسى الماضي ومآسيه وان كان هذا الماضي من القسوة بحيث يصعب نسيانه حيث لا تزال آثاره تذكرنا به كل حين . ومع ذلك فنحن نعترف أن الماضي لا يعود ولا يفيد فيه ترديد أحداثه ومآسيه واننا يجب ان نجعل من هذا الحدث عبرة وعظة لنا لكي لا نتعرض لمثله في المستقبل وأفضل وسيلة لتفادي تكرار ما حدث هي القضاء على مسبباته ورصد كل الثغرات التي يمكن ان يتسلل منها شيطان الفتنة الى الصف العربي والاسلامي ولنرجع الى هذه الأحداث من أولها لقد كان سببها الرئيسي هو الخلاف المزمن على تسوية الحدود وعدم التمسك بالاتفاقات السابقة حولها وأنا اذ أركز على هذا السبب لاأنكر أن هناك مسببات أخرى

ولكني أقول بأن ذلك هو السبب الذي اتخذ ذريعة لما حدث وأنه هو السبب الذي عمق الهوة والخلاف وعدم الثقة بين البلدين طوال سنين عديدة .

ونحن نتقدم هنا ببعض رؤوس الأقلام التي نرجو أن تكون محل اهتمام الساسة والمفكرين العرب والمسلمين وأن تكون أساس حملة شاملة تحتشد لها الأقلام في العالم العربي والاسلامي لخلق جو جديد من الثقة ولارساء قواعد جديدة لما يجب أن تكون عليه العلاقات بين الاخوة الذين يجمعهم دين واحد والذين يؤمنون بالله واحد ونبي واحد وكتاب واحد . والذين يعيشون على ساحة واحدة تواجه خطرا واحدا وتتطلع الى مستقبل واحد .

وأول هذه التصورات هو العمل للقضاء على كل العوامل المسببة للخلاف وتأتي الحدود الجغرافية في مقدمة هذه العوامل وفي هذا الصدد فإن جامعة الدول العربية ومنظمة المؤتمر الاسلامي والقادة في العالم العربي والاسلامي أمامهم مهمة كبيرة وخطيرة . هي العمل وفورا للقضاء لمرة واحدة وأخيرة على مشكلة الحدود فليس من المعقول في عالم يتحدث عن الوحدة المصيرية التي تجمع بين كل الشعوب العربية ، وليس من المعقول من عالم عربي يتحدث ليل نهار عن ضرورة إلغاء الجوازات والجمارك وفتح الساحة كلها أمام أبناء الشعب العربي الواحد وليس من المعقول من اخوة عاشوا عصورا طويلة من تاريخهم الممتد في دولة واحدة . ليس من المعقول أن يحملوا السلاح كل في وجه الآخر من أجل بضعة أمتار من أرض هي في واقع الأمر أرض الجميع . اخوة وأشقاء واذا كانت بعض الخطوط ترسم مجالات التحرك لدول فانما المتوقع ان يكون ذلك داعيا للتنافس في مجال البناء والاعمار والتطور لا سببا للفرقة والهدم والتدمير ، لقد قدمت الدول الافريقية مثالا جيدا في حل هذه المشكلة فاتفق الجميع على أن تكون الحدود القائمة أثناء اعلان استقلال هذه الدول ودخولها أعضاء في هيئة الأمم هي الحدود المعترف بها . وأراحوا بذلك واستراحوا . ونجد

اليوم أوروبا التي خاضت حربين عالميتين مدمرتين تضع حدا للأسباب الكامنة وراء هاتين الحربين من خلال تعاونها واتفاقها في مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا حيث أرست أسس ومبادىء السلام والوئام في وثيقة هلسنكي لعام ١٩٧٥ وميثاق باريس لعام ١٩٩٠ ، وذلك طبقا لمبادىء ومقاصد الأمم المتحدة ومن بين تلك المبادىء الالتزام بالسيادة والاستقلال والسلامة الاقليمية للدول وحرمة حدودها . ولسنا ندري لماذا لا يتم ذلك في العالم العربي .

ان وحدة الشعب العربي المأمولة لا تفرضها الدبابات ولا المدافع . فقد أثبتت التجارب ان الوحدة الحقيقية أكبر من الخطوط الجغرافية وأعظم . انها احساس يتعمق في وجدان الانسان العربي . تغذيه التعاملات القائمة على الاخوة الحقة . انها احساس يغرس في عقل الانسان العربي وقلبه ووجدانه . انها إلغاء للحواجز النفسية بالدرجة الأولى . فإذا ألغيت هذه الحواجز بترسيخ روح التعاون والتآزر والتكافل أصبحت الحدود الجغرافية مجرد معالم كالتي تحدد حدود كل مدينة داخل الوطن الواحد .

تأتي بعد ذلك النظريات . فقد تعبت الجماعات العربية عقودا كثيرة في استيراد نظريات وأيديولوجيات من بيئات أخرى ، هذه النظريات تقوم على منطلقات كثيرة مزقت الصف العربي طويلا ولست أدري متى يكتفي العالم العربي والاسلامي بما لديه وهو عظيم وهو كبير وهو كفيل بسد الفراغ النفسي وتحقيق الأحلام العريضة في النمو والرخاء . وهو النظرية الاسلامية . ان لدينا القرآن الكريم وهو باعتراف المفكرين الأجانب أنفسهم «نظرية كاملة وشاملة في الدين وفي الدنيا» ان العالم الاسلامي أصبح مطالبا الآن وأكثر من أي وقت مضى بنبذ كل النظريات والأيديولوجيات الغريبة وتبني النظرية الاسلامية في مسلماتها التي لا يختلف حولها أحد . والتي تعترف بها وتقرها كل الجماعات الاسلامية على اختلاف مذاهبها وتفسيراتها . وهي مسلمات واضحة وضوح الشمس .

فالأمة الاسلامية أمة واحدة والاخوة الاسلامية أساس راسخ من أسس العقيدة . وحبل الله متين وقوي يمكن أن يربط بين الجميع . والعباءة الاسلامية رحبة يمكن أن تحتضن الجميع تحت أجنحة الحب والتعاون . لقد أصبحنا في أمس الحاجة الى دستور اسلامي يتضمن مجموعة من المواد التي تترجم المسلمات التي جاء بها الاسلام . فالمؤمنون اخوة . والمسلمون كالجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر . فالحرب بين المسلم والمسلم خروج على الأسس التي جاء بها الاسلام والتعاون بين المسلم والمسلم من أسس الايمان والحرب الكلامية أو الاعلامية مرفوضة بكل مقاييسها . هذا الدستور يكون الالتزام به قسما يردده كل زعيم قبل أن يتولى مقاليد الأمور . ويعرض على كل البرلمانات والحكومات والأجهزة في العالم العربي والاسلامي لاقراره والالتزام به وصياغة دساتيرها على أساسه وأن تكون هذه المسلمات حدودا لا ينبغي لأحد كان وأيا كان أن يتجاوزها أو يخرج عليها وأن يكون المنطلق لكل سياسات الدول الاسلامية هو الشعار العظيم وهو قول الله تعالى :

«واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا» .

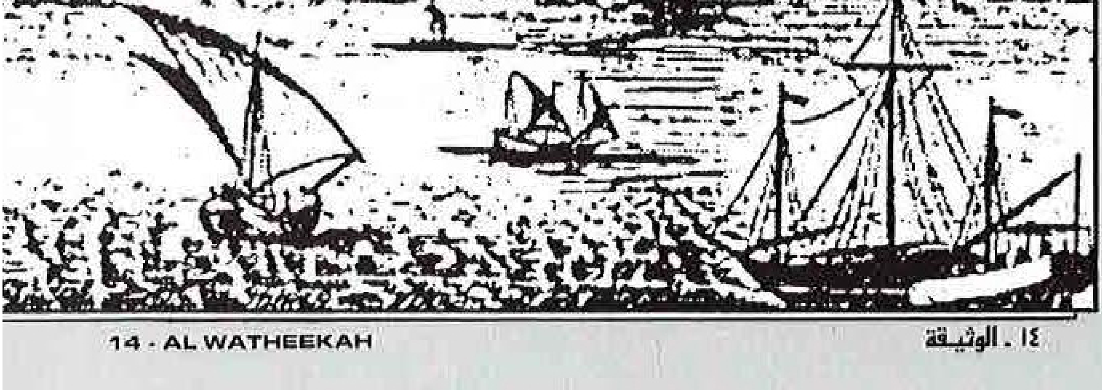
ان ما حدث في الخليج يجب الا يمضي دون وقفة مع النفس ومع الواقع بمعطياته ودواعيه . لقد كانت الكارثة قاسية ومريرة ومن العبث ان تمر دون ان نستفيد من دروسها ومن آثارها . ان المثل يقول (ان المصيبة التي لا تقتلني تزيدني صلابة) ، وهذا يمكن أن يحدث اذا وقفنا فقط أمام ما حدث واذا ما شمرنا عن سواعدنا للقضاء على كل دواعيه وأسبابه ووضعنا الضوابط لعدم تكراره والتففنا بوعي حول آثاره لتطويقها وحصارها وعزلها عن أن تمتد الى مستقبلنا كله فتضيع كل ما نؤمله لمستقبل هذه الأمة التي حكمت العالم كله في يوم ما بالحب والاخوة والتراحم والتلاحم .

عبدالله بن خالد آل خليفة

الوضع القانوني

لدعوى العراق بالسّيادة على الكويت

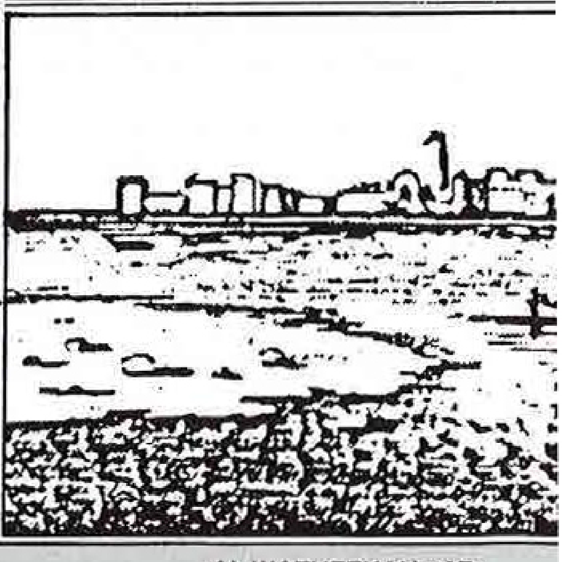
برزت مشكلة المطالبة العراقية بالسيادة علي الكويت اول ما برزت في ٢٥ يونيو ١٩٦١ وذلك بعد أيام قليلة من اعتراف الحكومة البريطانية بالكويت كدولة مستقلة ذات سيادة بموجب معاهدة في شكل مذكرات متبادلة وقعت في مدينة الكويت بتاريخ ١٩ يونيو ١٩٦١ بين امير دولة الكويت الراحل الشيخ عبدالله السالم الصباح والمقيم السياسي البريطاني في الخليج حينذاك السير وليام لوس حيث تم بموجب هذه المعاهدة انهاء اتفاقية عام ١٨٩٩ الموقعة بين حاكم الكويت الشيخ مبارك الصباح والحكومة البريطانية والتي أخضعت حاكم الكويت للحماية البريطانية . وبتوقيع المعاهدة الجديدة اعترفت الحكومة البريطانية بالكويت دولة مستقلة ذات سيادة . وبذلك أصبحت حكومة دولة الكويت المسئولة الوحيدة عن تصريف شئونها الداخلية والخارجية . وبناء عليه تقدمت حكومة الكويت بطلب الانضمام الى عضوية الجامعة العربية في ٢٢ يونيو ١٩٦١ كما تقدمت لاحقا بطلب الانضمام الى عضوية الأمم المتحدة من أجل اكتساب الاعتراف الدولي بها كدولة مستقلة ذات سيادة .



الا أنه بتاريخ ٢٥ يونيو ١٩٦١ ادعى الزعيم عبدالكريم قاسم رئيس مجلس قيادة الثورة فى الجمهورية العراقية فى ذلك الحين أن الكويت جزء لا يتجزأ من العراق ، وتكرر الادعاء فى اليوم التالى ، ٢٦ يونيو ، فى بيان رسمى أصدرته وزارة الخارجية العراقية فيه الحجج القانونية للادعاء العراقي وهى « أن الدول الأجنبية بما فيها الحكومة البريطانية كانت تعترف بسيادة الدولة العثمانية على الكويت ، وكان السلطان العثمانى يعين شيخ الكويت بمرسوم يضفى عليه لقب قائمقام ويجعل منه مندوبا لوالي البصرة فى الكويت . وهكذا ظل شيوخ الكويت يستمدون سلطاتهم الادارية من السلطات العثمانية فى البصرة ويدينون بالولاء للسلطان العثمانى حتى عام ١٩١٤ » واعتبر البيان العراقي « اتفاقية عام ١٨٩٩ السرية » المعقودة مع حاكم الكويت آنذاك الشيخ مبارك باطلة لأنها أبرمت تحديا لسلطة السلطان العثماني . أما بخصوص معاهدة ١٩٦١ الجديدة التى أنهت اتفاقية عام ١٨٩٩ فقد اعتبرها البيان العراقي أيضا باطلة لأنها تهدف « تحت الغطاء الجديد للاستقلال الرسمى . الى الابقاء على النفوذ الاستعمارى وللابقاء على الكويت منفصلة عن العراق » . وقد ردت حكومة الكويت ردا سريعا على الادعاء العراقي بأن أصدرت بيانا فى اليوم التالى رفضت فيه الادعاء واعتبرته غير معقول ، وأكد البيان الكويتي بأن الكويت لم تخضع يوما للسيادة التركية وأن « لقب قائمقام .. لم يستعمل اطلاقا فى الكويت ولم يؤثر فى مجرى حياة أو استقلال الكويت عن الامبراطورية العثمانية »



للدكتور حسين محمد البحارنه
وزير الدولة للشئون القانونية
بالبحرين .



وأكد البيان الكويتي بأن اتفاقية عام ١٨٩٩ قد انتهت في ١٩ يونيو ١٩٦١ وتبعا لذلك أصبحت الكويت دولة كاملة السيادة والاستقلال .

وقد قبلت الكويت رسميا في عضوية الجامعة العربية - رغم معارضة العراق - في ٢٠ يوليو ١٩٦١ وأصبحت عضوا كامل العضوية فيها . واستمر وضع الكويت بالنسبة لعضويتها في الأمم المتحدة معلقا حتى مطلع عام ١٩٦٣ بسبب الفيتو السوفيتي ، وكان وجه الاعتراض السوفيتي على عضويتها في هذه المنظمة الدولية ان الكويت لم تكن مؤهلة بعد كدولة مستقلة وان معاهدة عام ١٩٦١ مع بريطانيا تخضعها للنفوذ السياسي الأجنبي . ولكن بعد الاطاحة بحكومة عبدالكريم قاسم في ٨ فبراير ١٩٦٣ اتخذ العهد العراقي الجديد الخطوات الرامية الى التخلي تدريجا عن ادعاء قاسم بالمطالبة بالكويت ونتيجة لذلك ضعف الموقف الروسي في مجلس الأمن تجاه الاعتراض على طلب عضوية الكويت في الأمم المتحدة ، الامر الذى فتح المجال لمجلس الأمن في أن يتخذ قرارا لأول مرة بالموافقة في ٧ مايو ١٩٦٣ على طلب الكويت الانضمام للأمم المتحدة . فأصبحت رسميا العضو الحادى عشر بعد المائة في هيئة الأمم المتحدة . وأخيرا اعترف العراق رسميا باستقلال الكويت في ٤ أكتوبر ١٩٦٣ وأكد تمسكه بالوضع القائم لحدوده مع الكويت كما ورد وصفها في الرسائل المتبادلة بتاريخ ٢١ يوليو و ١٠ أغسطس ١٩٣٢ بين رئيس وزراء العراق نورى باشا السعيد وحاكم الكويت الشيخ أحمد الصباح :

ويتضح مما تقدم ان الادعاء العراقي بالسيادة على الكويت يستند الى نقطتين :

أ - علاقة الكويت التاريخية بالامبراطورية العثمانية .

ب - خلافة دولة العراق الجديدة للسيادة الاقليمية لتلك الامبراطورية على الكويت .

ولكن لاثبات هذا الادعاء فانه من الضرورى تقديم البرهان على استيفاء المبادىء التالية :

أولا - ان الكويت كانت من الناحية القانونية جزءا لايتجزأ من الامبراطورية العثمانية وانها كانت خاضعة لسيادتها وتدار كقضاء في ولاية البصرة .

ثانيا - ان العراق بعد استقلاله من الخلافة العثمانية ورث السيادة أو السلطة الاقليمية التركية على الكويت حسب مفهوم خلافة الدولة في القانون الدولى .

ثالثا - ان العراق قد استمر في دعواه بالسيادة على الكويت بصورة فعالة ودون انقطاع ، أى لم يصدر عنه أى تصرف يؤدى الى الاعتراف المباشر أو غير المباشر بالوضع القائم في الكويت عبر السنوات الماضية .

وسنناقش ونحلل هذه المبادىء حسب الترتيب التالى :

أولا : ما هى الحقائق التاريخية والوضع القانوني بشأن اللقب العثمانى التاريخى فى الكويت ؟

يجدر بالذكر أن الحكومة الكويتية قد قالت في ردها على خضوع الكويت المزعوم



الشيخ أحمد الجابر الصباح



الشيخ صباح السالم الصباح

لسلطة الامبراطورية العثمانية » أن الكويت كانت محكومة دون تدخل تركى مباشر من قبل أسرة الصباح نفسها منذ عام ١٧٥٦ وأن وضع الكويت المستقل قد استمر حتى بعد مدحت باشا والي بغداد الذى قاد عام ١٨٧١ حملة على الاحساء .. لاخضاع المنطقة .

يمكن القول على اساس الأدلة التاريخية بأن الامبراطورية العثمانية لم تحرز فى يوم من الأيام حق السيادة «Sovereignty» بمعناها القانونى على الكويت التى لم يحتلها الأتراك اطلاقا . وتشير المصادر التاريخية إلى أن شيوخ الكويت « لم يدينوا بالولاء للسلاطين الأتراك » ولكن يوجد دليل تاريخى يشير إلى أن السلاطين الأتراك قد مارسوا خلال فترات قصيرة متقطعة نظاما متأرجحا أو نوعا من السلطان أو الرعاية «Suzerainty» على الكويت خلال القرن التاسع عشر . وعلى العكس من السيادة «Sovereignty» التركية التى لم تكن قائمة فى يوم من الأيام ، فان وجود نوع من السلطان أو الرعاية أو النفوذ التركي المتأرجح أو المتقطع على الكويت خلال تلك الحقبة من الزمن هو أمر لا يمكن دحضه بسهولة . لذلك يستنتج من المصادر التاريخية أنه كان يوجد نوع من السلطان أو الرعاية التركية المفروضة على الكويت بشكل متأرجح وذلك خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر

وربما خلال بداية العقد الأول من القرن العشرين . ويوجد دليل تاريخي يشير



نوري السعيد



عبدالكريم قاسم

بأن حكام الكويت ظلوا يقبلون لقب « قائمقام » حتى عام ١٨٩٦ الا أن الحكومة الكويتية لم تكن تعطى أهمية لمثل هذا اللقب الذى لم يكن سوى « لقب فخرى » . ودليل ذلك هو ما تؤكده المصادر التاريخية من أنه عندما أعلن الشيخ مبارك الصباح فى تلك السنة نفسه حاكما جديدا للكويت سارعت الحكومة التركية الى اصدار « فرمان »

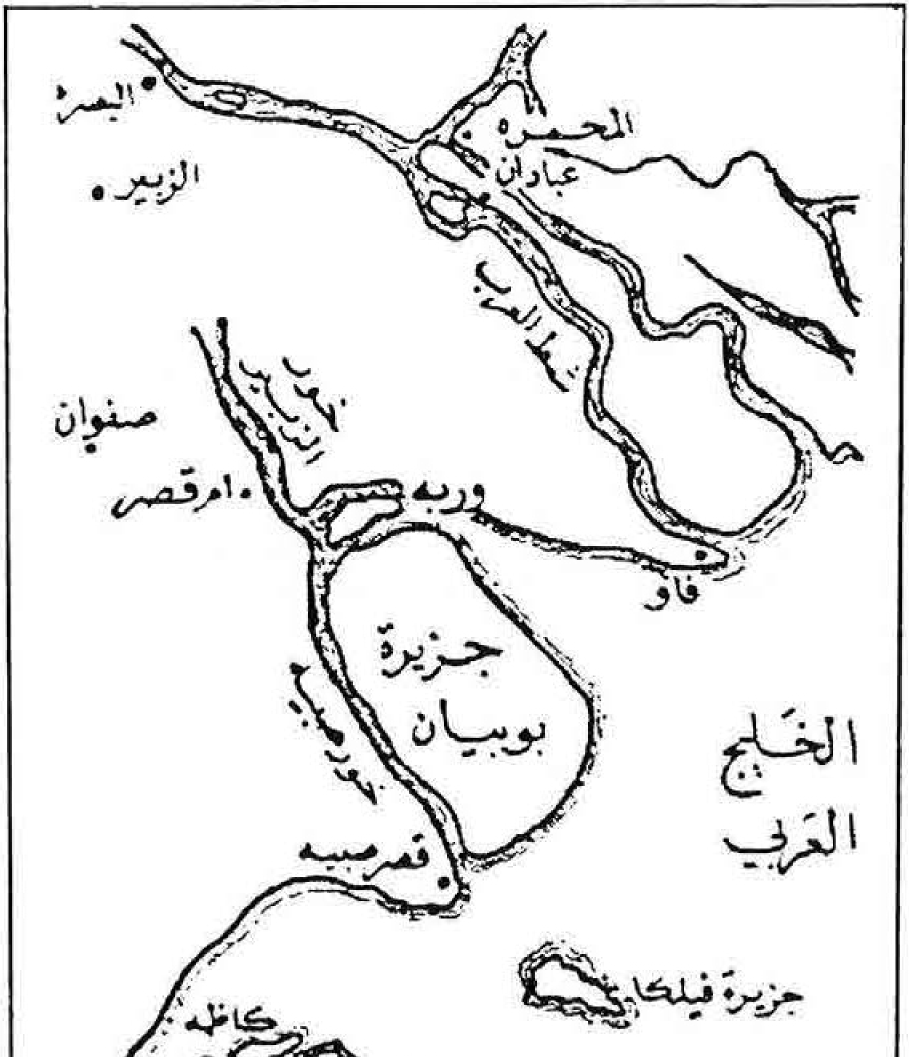
يقضي بتعيينه . قائمقام» غير انه اعتذر فى نفس الوقت عن قبول اللقب ، كما رفض استقبال ضابط تركى للحجر الصحى ، وفرض فى مايو ١٨٩٩ أى بعد أربعة أشهر من عقده اتفاقية عام ١٨٩٩ السرية مع بريطانيا ضريبة جمركية قدرها ٥٪ على البضائع التركية .

أما الحكومة البريطانية فان سياستها كانت تقتضى فى ذلك الوقت عدم اتخاذها موقفا معارضا للسياسة التركية فى فرض السلطان أو الرعاية التركية على الكويت ،

ويفسر هذا الموقف لجوء الحكومة البريطانية الى ابرام اتفاقية عام ١٨٩٩ مع الشيخ مبارك الصباح سرا ودون علم الأتراك .

الا أن الميثاق الانكيزى ـ التركي لعام ١٩١٣ الذى لم تستكمل اجراءات التصديق عليه نظرا لقيام الحرب العالمية الأولى قد حسم من الناحية القانونية

موضوع السلطان أو الرعاية التركية على الكويت الى الأبد وذلك لتضمنه اعترافا



الزبير
المحمرة
عبادان
صفوان
ام قصر
وربه
فاو
جزيرة
بوبيان
الخليج
العربي
جزيرة فيلكا
كاظمه
الكويت
الجهراء

صريحا من تركيا باستقلال حاكم الكويت عن أية ولاية أو نفوذ تركي ، كما اعترفت تركيا العثمانية بموجب هذا الميثاق باتفاقية عام ١٨٩٩ السرية بين الكويت وبريطانيا وهي الاتفاقية المتضمنة لنظام الحماية البريطانية على الكويت .

وأيا كان الوضع وحتى بدون الاعتماد على ميثاق ١٩١٣ كأساس لاستقلال الكويت فانه يجب التفريق من الناحية القانونية بين تعبير السيادة «Sovereignty» وتعبير « التبعية » أو « الولاية » «Suzerainty» .

وهذه التفرقة مهمة من وجهة نظر القانون الدولي الذي لا يعترف الا بمبدأ « السيادة » «Sovereignty» كأساس لخضوع الاقليم للدولة المطالبة به ، فعلى الدولة التي تطالب باقليم معين أن تثبت سيادتها الكاملة ، من الناحية القانونية ، على هذا الاقليم . ومفهوم السيادة هو الممارسة الادارية الفعلية لمختلف سلطات الدولة السياسية من تنفيذية وتشريعية وقضائية في الاقليم المطالب به . فالسيادة اذن هي السلطة الكاملة للدولة على الاقليم في الداخل والخارج .
ومن ناحية أخرى ، فإن الاقليم الخاضع لسيادة دولة أخرى يمكن أن ينفصل عنها سواء بارادة هذه الدولة وحدها أو بارادة شعبه اذا استطاع أن يقاوم الاحتلال المفروض عليه بقوة السلاح ويستقل عن الدولة الأم ، ويعلن استقلاله عن تلك الدولة ، وينال اعتراف المجموعة الدولية به كدولة مستقلة ذات سيادة أي تمارس وحدها أعمال السيادة على أراضيها .

كما أن الدولة الواحدة يمكن أن تنقسم أو تتفكك بعد الحرب وتخرج عنها عدة دول مستقلة ذات سيادة فيما بعد اذا نالت هذه الدول اعتراف المجموعة الدولية بها كدول مستقلة ذات سيادة . وأقرب دليل على ذلك الامبراطورية العثمانية نفسها التي تفككت بعد الحرب العالمية الأولى وخرجت عنها الجمهورية التركية بحدودها الجديدة ، والعراق ، وسوريا ، ولبنان ، وشرق الأردن ، ولم يشمل ذلك خروج الكويت كاقليم منفصل عن الامبراطورية العثمانية .

وبعد انشاء الأمم المتحدة في عام ١٩٤٥ ، وقبلها عصبة الأمم المتحدة ، في أعقاب الحرب العالمية الاولى ، أصبح الإنضمام الى هاتين المنظمتين دليلا قاطعا على اعتراف المجموعة الدولية التام باستقلال وسيادة الدولة من وجهة نظر القانون الدولي .

هذا هو مفهوم « السيادة » والذي يعتبر أساسا لخضوع الاقليم لدولة ما أو بالعكس أساسا للاستقلال التام لذلك الاقليم اذا توافرت له معايير ذلك الاستقلال السالفة الذكر . أما مفهوم « التبعية » أو « الولاية » أو بالتعبير الانجليزي ، «Suzerainty» فهو أدنى درجة من مفهوم « السيادة أي «Sovereignty» لذلك لا يعتبر التعبير الأول أساسا لخضوع الاقليم للدولة التي تطالب به لعدم توافر معايير ممارسة « السيادة » في ذلك التعبير ، من وجهة نظر القانون الدولي .

ولتوضيح معنى أو مفهوم « التبعية » أو « الولاية » ، فان تعبير Suzerain يعني في القاموس « سيد اقطاعي » أو « دولة مهيمنة تفرض سلطانها في حقل الشئون الخارجية » على دولة أخرى تابعة ولكنها مستقلة في شئونها الداخلية . « وهذا يعرف بتعبير » . «Suzerain Power» أي قوة أو دولة مهيمنة على دولة ضعيفة

تابعة ومن هذا اشتق تعبير « تبعية » أو «Suzerainty» وهو تعبير فرنسي الأصل مستمد من الوضع الاقطاعي سابقا . وأصبح يطلق من الناحية القانونية على علاقات الدول القوية بالدول الضعيفة والتي لا يشملها تعريف قانوني دقيق فهي علاقات غامضة مثل علاقة الاقطاعي صاحب الأرض بالفلاح الضامن للأرض والتي تؤدي في النهاية ـ بعد اصدار القوانين الاصلاحية ـ الى فك الارتباط بين الاقطاعي والفلاح الزارع للأرض واستقلاله بها نهائيا . وبعد هيمنة الامبراطورية العثمانية ، على الكثير من الأقاليم في الشرق والغرب أطلقت الدول الأوروبية هذا التعبير الغامض « التبعية أو «Suzera inty» على علاقة الخلافة العثمانية بهذه الأقاليم وذلك لتتجنب الاعتراف بخضوع هذه الأقاليم للمفهوم القانوني الواضح للسيادة أي «Sovereinty» أو لأية مفاهيم قانونية أخرى معروفة مثل « الحماية » أو ما يعرف بتعبير « المحمية » أي «Protectorate» والقصد من ذلك هو تسهيل فك الارتباط بين الامبراطورية العثمانية والأقاليم التي فرضت سلطانها عليها بصورة غير مباشرة ، وبالتالي التمهيد التدريجي لاستقلال تلك الأقليم ، ودون تعقيدات قانونية نظرا للعلاقة الغامضة بين الامبراطورية العثمانية وتلك الأقاليم ، تلك العلاقة التي لم تكن تنظمها اتفاقات خاصة أو تشريعات عثمانية خاصة ، بل تعتمد أساسا على السلطان والقوة المفروضة على تلك الأقاليم . ولو طبقنا هذا الوضع على البلاد العربية فانه يجب أن لا ينكر تاريخيا مدى سيطرة ونفوذ الامبراطورية العثمانية على بعض الأقاليم والمناطق في الخليج وبخاصة مناطق واقاليم الساحل الشرقي لشبه الجزيرة العربية وذلك خلال فترات متقطعة من القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . وقد كان الحال كذلك نظرا لضعف حكام تلك الأقاليم أمام قوة سلطان كل من الدولتين العظميين أنذاك وهما الامبراطورية العثمانية والدولة الفارسية اللتان كانتا تتنازعان فيما بينهما لبسط سلطانهما ونفوذهما على الحكام الضعفاء لتلك الأقاليم ، الأمر الذي حدا بهؤلاء الحكام أحيانا لأن يعلنوا الولاء الشكلي أو يطلبوا الحماية العسكرية بين أن وآخر ـ خلال تلك الحقبة من التاريخ ـ من كل من الدولتين العثمانية أو الفارسية ضد الأخرى كلما هددها خطر احداهما وذلك وفقا للظروف التي تناسب سياسة هؤلاء الحكام الذين لجأوا في كثير من الأحيان الى دفع الأتاوات أو الضرائب السنوية لاحدى هاتين الدولتين في مقابل الحماية التي يطلبونها أو لدرء الخطر من هجوم أو مجرد تهديد بهجوم عسكري من أي من هاتين الدولتين ضد حكام هذه الأقاليم .

وكان هذا الوضع السائد أنذاك يشمل حكام الكويت الذين قبلوا وكغيرهم من حكام المنطقة التبعية التركية في فترات متقطعة من القرن التاسع عشر وذلك نتيجة لضغط الظروف السياسية في تلك الحقبة . ولكن في ضوء الشرح السالف الذكر لمفهوم تعبير كل من « السيادة » أي «Sovereignty» « والتبعية » أي «Suzerainty» وبيان الفرق بينهما من ناحية حق الدولة القانوني في ضم الاقليم الذي يعتمد

قانونا على حق السيادة دون حق « التبعية » ، فانه يتبين لنا بأن الافتراض بأن الكويت كانت تابعة تركية تتمتع بقسط كبير من الاستقلال الذاتي ، لا يعطي بالتالى لتركيا حقا بالسيادة على الكويت أو بضم الكويت الى أقاليم الدولة التركية أو الامبراطورية العثمانية . ودليل ذلك أن تركيا العثمانية نفسها لم تكن تطالب بذلك الحق فى السابق بل ولم تتخذ اى اجراء قانونى أو دستورى يعطيها ذلك الحق ، بل اكتفت بفرض سلطانها أو نفوذها فى فترات متقطعة على حكام الكويت مكتفية بقبولهم لقب « قائمقام » أحيانا ودفع الأتاوات أو الضرائب السنوية من بعضهم او مكتفية فى بعض الحالات بمجرد منحهم ذلك اللقب مع احتفاظهم باستقلالهم الذاتي .

ويؤكد هذا الوضع ما ذكرناه سابقا من أن المصادر التاريخية تؤكد رفض حاكم الكويت الشيخ مبارك الصباح قبول لقب « قائمقام » بعد عام ١٨٩٦ عند توليه حكم الكويت .

ولذلك وصفت علاقة الكويت بالدولة التركية خلال تلك الحقبة بالتعبير الغامض الذى يعرف قانونا بعلاقة « التبعية » أو « الولاية » ، ونظرا لأن حق العراق بالمطالبة بالكويت من الوجهة القانونية ليس حقا أصليا أو مباشرا وانما هو حق تبعي أو غير مباشر اى بمعنى آخر انه حق يعتمد على ميراث أو خلافة ما كان للدولة التركية من حق قانونى فى الكويت دون زيادة أو نقصان ، وذلك نظرا لأن العراق كان اقليما أصليا من أقاليم الدولة العثمانية البائدة . وبعد زوال تلك الدولة من الوجود ورث العراق كدولة حديثة ـ على أساس ميراث أو خلافة الدولة ـ ليس ولاية البصرة التركية فحسب بل ـ كما يدعى العراق ـ « قضاء الكويت » أو « قائم مقامية » الكويت أيضا .

هذا هو الأساس القانوني لدعوى أو مطالبة العراق بالكويت من وجهة النظر العراقية . لذلك . من أجل مناقشة هذه الحجة أو هذه الدعوى من الناحية القانونية البحتة فانه يجب التساؤل بالقول :

هل الافتراض بأن الكويت كانت تابعة تركية تتمتع بقسط كبير من الاستقلال الذاتي يعطى للعراق الحديث حقا مشروعا فى أن يضم الكويت الى أراضيه على هذا الأساس ؟ وهذا التساؤل يقتضي منا مناقشة المبدأ الثاني وهو موضوع خلافة العراق أو ميراثه لحقوق الولاية التركية على الكويت .

ثانيا : وراثة العراق لحقوق الامبراطورية العثمانية فى الكويت :

لقد ادعت الحكومة العراقية بأن دولة العراق الجديدة قد ورثت الممتلكات التركية في بلاد الرافدين ، بما في ذلك الكويت التى كانت حينذاك تشكل قضاء تابعا لولاية البصرة . فما هو مقدار الصدق فى هذه الحجة ؟

لقد سبق القول أن الامبراطورية العثمانية لم تحرز أية سيادة اقليمية فى الكويت . ولكن حتى لو سلمنا جدلا بأنه كان لتركيا العثمانية حق السيادة «Sovereignty» على الكويت لا مجرد حق « التبعية » «Suzerainty» فهل يستتبع ذلك أن العراق بصفته خلفا أو وارثا لولاية البصرة التركية العثمانية ، قد ورث ـ كخلف عن سلف ـ من الناحية

القانونية مثل هذا الحق في الكويت .؟

من الواضح أنه عند ما دخلت تركيا في الحرب ضد بريطانيا عام ١٩١٤ ، لم يتردد حاكم الكويت حينذاك في اعلان وقوفه الى جانب بريطانيا ، وقد لعب دورا نشطا في الأعمال الحربية ضد الأتراك في البصرة . وبما أنه قد أعلن الحرب على دولة تركيا العثمانية ، فقد حصل في عام ١٩١٤ على اعتراف صريح من بريطانيا لبلاده « كحكومة مستقلة تحت الحماية البريطانية » ومن ثم ظلت الكويت تتمتع بهذا الوضع حتى ١٩ يونيو ١٩٦١ عندما أصبحت دولة مستقلة استقلالاً تاما . أما بالنسبة للعراق الحديث الذى ورث قانونا ولايات الموصل وبغداد والبصرة التركية ، فقد أعلنت بريطانيا وضعه تحت الانتداب البريطاني في ٣ مايو ١٩٢٠ . وفي ٢٠ يونيو ١٩٢٠ شكلت لأول مرة حكومة عربية في العراق تحت رعاية بريطانيا ، وفي ١١ يوليو ١٩٢١ نودى بالملك فيصل الأول من قبل مجلس الدولة العراقي ملكا هاشميا على العراق ، وفي ٢٣ أغسطس ١٩٢١ عين الملك فيصل الاول حكومة وزارية مدنية جديدة . وأخيرا انتهي نظام الانتداب البريطاني في ٢٨ يناير ١٩٣٢ ، عندما أوصت بريطانيا بادخال العراق عضوا مستقلا في عصبة الأمم المتحدة . وبما أن العراق قد استوفى شروط العضوية في المنظمة بموجب المادة ٢٢ من ميثاق عصبة الأمم ، فقد قبل العراق في عضويتها في ٣ أكتوبر ١٩٣٢ . وسواء كانت دولة العراق قد أنشئت ، من وجهة النظر القانونية ، في عام ١٩٢١ عندما تشكلت فيها أول حكومة مدنية ، أم في عام ١٩٣٢ نتيجة لقبول العراق عضوا في عصبة الأمم ، فانها لا يمكن أن تعتبر وارثة للممتلكات التركية السابقة في القانون الدولى دون القيود التي تفرضها معاهدتا الصلح لعام ١٩٢٠ وعام ١٩٢٣ . فما هي هذه القيود .

في أعقاب هزيمة تركيا العثمانية في الحرب العالمية الأولى تفاوضت هذه الدولة ووقعت معاهدة الصلح في سيفر في ١٠ اغسطس ١٩٢٠ واعترفت بموجب المادة ٩٤ من هذه المعاهدة ببلاد الرافدين وسوريا كدولتين مستقلتين خاضعتين لتقديم المشورة الادارية والمساعدة طبقا للمادة ٢٢ من ميثاق عصبة الأمم ، كما حددت هذه المعاهدة حدود دولة العراق الجديدة ، ولم يرد في هذه المعاهدة ذكر للكويت باعتبارها من الممتلكات التركية ، وبالرغم من أن معاهدة سيفر لم يصدق عليها من قبل الأطراف المعنية الا أن المعاهدة الأخرى - وهي معاهدة لوزان المبرمة في ٢٤ يوليو ١٩٢٣ والمصدق عليها فيما بعد - قد تضمنت في المادة ١٦ منها نفس بنود التخلي الواردة في معاهدة سيفر . وهي كالتالى :

« تتخلى هنا تركيا عن جميع حقوقها وممتلكاتها أيا كانت بشأن الأقاليم الواقعة خارج الحدود المثبتة في المعاهدة الحالية وفي الجزر ، عدا تلك التي تعترف المعاهدة المذكورة بسيادتها عليها . أما مستقبل هذه الأقاليم والجزر فيحدده أو سيحدده الأطراف المعنيون » ويستدل بوضوح من منطوق هذه المادة أن تركيا العثمانية قد تخلت عن حقوقها في جميع الممتكات التركية الواقعة خارج حدود جمهورية تركيا الحديثة . وبطبيعة الحال يشمل هذا التخلي عن الحقوق التركية في اقليم الكويت ، وذلك على افتراض اعتبار أن الكويت كانت تشكل جزءا من ولاية

البصرة التركية السابقة كما يدعى العراق . وبناء عليه فقد « تخلت تركيا بوضوح عن جميع ممتلكاتها في الأراضي الواقعة جنوب تلك الحدود المحتملة.

ومن هنا يتضح أنه لا مبرر للاستناد الى مبادىء الخلافة الدولية - وفقا لمبادىء القانون الدولي - دعما لادعاء العراق بالكويت ذلك لأن العراق بصفته خلفا أو وارثا للأقاليم التركية السابقة كان من الناحية القانونية مقيدا بالقيود التي تفرضها على تركيا معاهدة لوزان ، بمعنى آخر أن العراق الحديث لا يستطيع ان يحتج بخلافته او ميراثه للحقوق التركية في الكويت لأنه قد سبق لتركيا ان تنازلت عن هذه الحقوق بموجب بنود معاهدة لوزان لعام ١٩٢٣ . ونأتي الآن الى مناقشة المبدأ الثالث وهو :

ثالثا : مبدأ الاستمرار في دعوى المطالبة بالكويت دون انقطاع :

توجد وثيقتان مهمتان صادرتان من العراق تدحضان ، من الناحية القانونية ، بل وتتناقضان مع مبدأ الاستمرار في المطالبة بالاقليم المدعى به . ونشرح ذلك فيما يلي :

١ - ان دولة العراق المستقلة اعترفت في عام ١٩٣٢ بالحدود الحالية للكويت في الرسائل التي تبولت بتاريخ ٢١ يوليو و١٠ أغسطس ١٩٣٢ بين نوري السعيد رئيس وزراء العراق والشيخ أحمد الصباح حاكم الكويت ، وقد أكدت هذه الرسائل المتبادلة من جديد «الحدود القائمة بين العراق والكويت» كما ورد وصفها من قبل في رسائل سابقة تبودلت بتاريخ ٤ و١٩ ابريل ١٩٢٣ بين الشيخ أحمد الصباح حاكم الكويت والسير بيرسي كوكس المندوب السامي البريطاني آنذاك في العراق ، وقد جاء تعيين الحدود العراقية - الكويتية في رسائل عام ١٩٣٢ كما هو الحال في رسائل ١٩٢٣ ، عند وصف خط الحدود على النحو التالي : «في تقاطع وادي العوجا مع الباطن ، ومن هناك شمالا الى نقطة تقع الى جنوب خط عرض صفوان ،

ومن هناك شرقا مرورا بجنوب آبار صفوان وجبل سنام وأم قصر تاركا هذه للعراق ، ماضيا الى نقطة التقاء خور الزبير بخور عبدالله . أما جزر وربة وبوبيان ومسكان (أو مشجان) وفيلكه وعوهه وكبر وقارو وأم المرادم فتخص الكويت» . ومع ان الحدود العراقية الكويتية قد ظلت دون تخطيط فعلي ، فان وضعها الوارد في الرسائل المتبادلة في عام ١٩٣٢ لا يمكن تجريده من قوته الملزمة للطرفين بسبب عدم وجود اتفاق صريح . أما فيما يخص العراق فان اتفاق عام ١٩٣٢ يمثل حجة دامغة تبطل دعواه بالكويت ، خصوصا وان فقهاء القانون الدولي يتفقون بأن «المناسبات الشرعية الوحيدة التي تتضمن الاعتراف هي - ضمن أمور أخرى - عقد معاهدة ثنائية» . ويعتبر اتفاق عام ١٩٣٢ - الذي يتخذ شكل تبادل رسائل - في قوة المعاهدة الثنائية التي تشكل ، من وجهة نظر القانون الدولي ، اعترافا من العراق بالكويت بحدودها القائمة .

٢ - بعد الاطاحة بحكم عبدالكريم

قاسم في ٨ فبراير ١٩٦٣ اعترفت الحكومة العراقية الجديدة رسميا باستقلال الكويت وذلك اثناء الزيارة الرسمية الى العراق التي قام بها الشيخ صباح السالم الصباح حين كان رئيسا لمجلس الوزراء الكويتي بدعوة من السيد أحمد حسن البكر بصفته رئيسا لمجلس الوزراء في الحكومة العراقية الجديدة . وفي ختام تلك الزيارة وقع رئيسا الوفدين العراقي والكويتي محضرا متفقا عليه في ٤ اكتوبر ١٩٦٣ .

وتبدو أهمية هذا المحضر المتفق عليه في انه اكد اعتراف العراق بالكويت وبحدودها كما جرى تعريفها في الرسائل المتبادلة بين العراق والكويت عام ١٩٣٢ ، وتنص الفقرة (١) من هذه الوثيقة على ان الجمهورية العراقية تعترف باستقلال الكويت وسيادتها الكاملة طبقا لتعيين حدودها الوارد في الرسالة المؤرخة في ٢١ يوليو ١٩٣٢ ، والصادرة من رئيس وزراء العراق وجواب حاكم الكويت على الرسالة المذكورة والمؤرخ في ١٠ اغسطس ١٩٣٢ ومن الواضح ان اتفاق عام ١٩٣٢ ينص صراحة على ان جزيرتي وربة وبوبيان تعودان الى الكويت .

الخاتمة :

ان التحليل التاريخي والقانوني السابق للدعوى او المطالبة العراقية بالكويت يبين وجهة نظر القانون الدولي من هذه الدعوى فيما لو عرضت للنظر فيها سلميا في اطار ميثاق الامم المتحدة الذي تعتبر كل من العراق والكويت طرفا فيه وملتزمة بمبادئه باعتبارهما عضوين مستقلين من اعضاء الامم المتحدة .

وعند النظر في النزاع العراقي الكويتي ـ سواء كان متعلقا بالسيادة على الكويت او على جزء من اراضيها او بتسوية الخلافات الحدودية القائمة ـ فانه يخضع للفصل السادس من ميثاق الامم المتحدة المتعلق «بحل المنازعات حلا سلميا» ، فالمادة ٣٣ من هذا الفصل تنص على الآتي :

١ ـ يجب على اطراف أي نزاع من شأن استمراره ان يعرض حفظ السلم والامن الدولي للخطر ان يلتمسوا حله بادىء ذي بدء بطريق المفاوضة والتحقيق والوساطة والتوفيق والتحكيم والتسوية القضائية ، أو ان يلجأوا الى الوكالات والتنظيمات الاقليمية او غيرها من الوسائل السلمية التي يقع عليها اختيارها .

٢ ـ ويدعو مجلس الامن اطراف النزاع الى ان يسووا ما بينهم من النزاع بتلك الطرق اذا رأى ضرورة لذلك .

والجدير بالذكر ان المادة ٣٣ من الميثاق واسعة في مضمونها المتعلق باللجوء الى الوسائل السلمية دون غيرها في حل المنازعات بين الدول . وهذه الوسائل تتدرج من المفاوضة الى التحقيق الى الوساطة الى التوفيق فالتحكيم فالتسوية القضائية .

من الواضح اذن انه فيما لو لم تنجح مختلف وسائل حل النزاع بين

الدولتين المتنازعتين كالمفاوضة والتحقيق والوساطة والتوفيق والتحكيم فإن للطرفين في النهاية ان يلجئا الى التسوية القضائية لنزاعهما كآخر وسيلة من وسائل حل هذا النزاع .

ولم تتناس الأمم المتحدة التسوية القضائية كوسيلة نهائية من وسائل حل المنازعات . فالنظام الأساسي المرافق لميثاق الأمم المتحدة ينشىء محكمة العدل الدولية باعتبارها الجهاز القضائي للأمم المتحدة المتخصص في التسوية القضائية للمنازعات بين الدول . ولأهمية محكمة العدل الدولية كجهاز قضائي متخصص لتسوية المنازعات بين الدول فإن الميثاق يعتبر النظام الأساسي لمحكمة العدل الدولية جزءا متمما له أي بعبارة أخرى يعتبر انضمام أي دولة أو قبولها بالميثاق قبولا أو انضماما مباشرا للنظام الأساسي للمحكمة .

هذه هي الاجراءات السلمية لحل الخلافات أو المنازعات بين الدول حسبما تقرها مبادىء القانون الدولي المعاصر وحسبما تجسدها مبادىء الامم المتحدة في اهم وثيقة دولية أو معاهدة جماعية دولية هي ميثاق الامم المتحدة الصادر في اعقاب الحرب العالمية الثانية والموقع في مدينة سان فرانسسكو في ٢٦ يونيه ١٩٤٥ ،

وحيث ان العراق والكويت هما دولتان عضوان في ميثاق الامم المتحدة ، فهما ملتزمتان - بموجب مبادىء القانون الدولي التي يجسدها الميثاق - بتطبيق المادة «٣٣» من الميثاق فيما يتعلق بحل المنازعات حلا سلميا .

ويتضح من التطور التاريخي للنزاع العراقي الكويتي ، ان العراق بدأ مطالبته الرسمية بالكويت في ٢٥ يونيه ١٩٦١ - حين طالب الزعيم عبدالكريم قاسم رئيس مجلس قيادة الثورة في الجمهورية العراقية انذاك بالسيادة على الكويت باعتبارها جزءا لا يتجزأ من العراق ، وقد جاءت هذه المطالبة بالسيادة العراقية الكاملة على الكويت بعد سبعة ايام من اعلان الاستقلال الرسمي للكويت في ١٩ يونيه ١٩٦١(★) . ولكن الحكومة العراقية الجديدة بقيادة حزب البعث - التي اطاحت في انقلاب عسكري ناجح ، بحكم عبدالكريم قاسم في ٨ فبراير ١٩٦٣ - اعترفت رسميا باستقلال الكويت كدولة ذات سيادة في ٤ اكتوبر ١٩٦٣ .

وقد استمرت العلاقات الاخوية السلمية بين العراق والكويت بعد هذا التاريخ نحو عقد من الزمن دون ان يعكر صفو تلك العلاقات استمرار الخلافات الحدودية بين الطرفين .

★) تجدر الاشارة الى انه بناء على طلب من وزير خارجية الكويت ، اتفقت الحكومة الكويتية والحكومة البريطانية في رسائل متبادلة بينهما في ١٣ مايو ١٩٦٨ - على انهاء العمل بمعاهدة ١٩٦١ التي تم انهاؤها رسميا بموافقة الطرفين في ١٣ مايو ١٩٧١ .

ولكن في ٢٠ مارس ١٩٧٢ احتلت القوات العراقية مركز شرطة الصامته الكويتي الواقع في الجانب الكويتي من خط الحدود الذي لم يرسم بعد بين العراق والكويت .

وقد زال اثر هذا الاعتداء العراقي العسكري المحدود على الموقع الكويتي نتيجة للتدخل العربي السريع عن طريق الجامعة العربية الامر الذي ادى الى الانسحاب العراقي من هذا الموقع الكويتي في ٢٠ ابريل ١٩٧٣ ، وقد تزامن هذا الانسحاب العراقي مع وصول وفد عراقي برئاسة وزير الخارجية العراقي الى الكويت حيث اجرى مع نظيره الكويتي مفاوضات حول تخطيط الحدود بين العراق والكويت .

ونستطيع ان نقول انه ، بالرغم من استمرار المد والجذب في العلاقات العراقية الكويتية حول عدم انهاء تخطيط الحدود بين البلدين ، خلال السنوات اللاحقة لعام ١٩٦٣ ، وقبل ٢ اغسطس ١٩٩٠ ـ فان العلاقات بينهما خلال تلك الفترة الطويلة كانت اخوية وسلمية ، ولم يشبها اي عمل عدائي ، فيما عدا الاعتداء العراقي الحدودي المؤقت في ٢٠ مارس ١٩٧٣ .

واذا كان الخلاف العراقي مع الكويت قد تطور بعد عام ١٩٦٣ الى خلاف حول تخطيط الحدود العراقية ـ الكويتية ، بما في ذلك مطالبة العراق بشريط حدودي الى البحر وبجزيرتي وربة وبوبيان الكويتيتين . الا انه يمكن الجزم من الناحية القانونية بان هذا الخلاف او هذه المطالبة تختلف جذريا عن المطالبة العراقية بالسيادة الكاملة على الكويت وبالتالي انهاء وجودها قانونا كدولة مستقلة ذات سيادة .

وفي ضوء ما سبق ، يمكن القول ان العراق بدأ في ٢٥ يونيه ١٩٦١ بالمطالبة بالسيادة الكاملة على الكويت ثم تنازل عن هذه المطالبة رسميا باعترافه الكامل باستقلال وسيادة دولة الكويت على اراضيها في ٤ اكتوبر ١٩٦٣ ، وظل الخلاف العراقي ـ الكويتي خلال فترة السبعة والعشرين سنة اللاحقة وحتى قبل الثاني من اغسطس ١٩٩٠ مرتبطا بالخلاف الحدودي لا بالمطالبة العراقية بالسيادة على الكويت ، وخلال تلك الفترة السابقة ظل كل من العراق والكويت ملتزما بمبادىء ميثاق الامم المتحدة وبخاصة المبادىء السلمية المبينة في المادة (٣٣) من الميثاق حول «حل المنازعات حلا سلميا» ، وقد سار كل من العراق والكويت على هذا الطريق السلمي في التوصل الى حل النزاع الحدودي بينهما عن طريق المفاوضات المباشرة ، وهي الخطوة الأولى من الخطوات السلمية المطلوبة بموجب الميثاق لحل المنازعات بين الدول .

ولكن الوضع انعكس رأسا على عقب بعد بداية الساعات الأولى من فجر اليوم الثاني من اغسطس ١٩٩٠ ، حيث قطع العراق حبل المفاوضات والوساطة السلمية وفاجأ العالم كله باعتداء عسكري مسلح برا وبحرا وجوا على دولة الكويت وشعبها كانت نتيجته الاحتلال العراقي الكامل لأراضي الكويت والقضاء على كيانها كدولة بعد تشريد أميرها وحكومتها وشعبها .

وقد تبع هذا الغزو المسلح لدولة الكويت اتخاذ العراق خطوات ادارية استبدادية فيما يتعلق بالكويت ابتدأت باعلان حكومة وهمية لها باسم «حكومة الكويت الحرة» ثم تدرجت هذه الخطوات والاجراءات تجاه اعلان وحدة الكويت مع العراق ثم ضمها كليا لاراضي العراق مرتبطة بمحافظة البصرة العراقية . ثم تلاحقت الاجراءات الاستبدادية من جانب العراق على اراضي الكويت باعتبارها جزءا من اراضي العراق ، وكان هدف تلك الاجراءات هو تغيير التركيبة السياسية والاجتماعية لسكان دولة الكويت ، بل والقضاء نهائيا على الهوية الكويتية وبذلك اصبحت الكويت في نظر العراق - لا أرضا محتلة - كما تنظر اليها المجموعة الدولية - بل جزءا لا يتجزأ من اراضي العراق .

وبهذه الطريقة يكون العراق قد حسم - بالقوة العسكرية - لا مجرد قضية الخلاف الحدودي القائم بينه وبين دولة الكويت خلال السبع والعشرين سنة الماضية التي تلت اعترافه بالكويت كدولة مستقلة في ٤ اكتوبر ١٩٦٣ ، ولكنه حسم ايضا مطالبته او ادعاءه بالسيادة على الكويت قبل ذلك التاريخ .

ولكن ما هي المبررات القانونية للاعتداء العراقي المسلح على الكويت واستيلائه عليها ؟

ان المبررات التي أوردها العراق لضم الكويت اليه بالقوة هي نفس المبررات التاريخية التي أوردها عند بداية مطالبته بالكويت في ٢٥ يونيه ١٩٦١م . وقد أوردنا في البداية شرحا تحليليا لتلك المبررات من وجهة النظر القانونية .

ولكن الفرق كبير بين مجرد المطالبة السلمية بالاقليم أو بحقوق فيه ، وبين احتلاله بالقوة العسكرية دون مبرر . فالاجراء الأول يحكمه الفصل السادس من الميثاق المتعلق «بحل المنازعات حلا سلميا» كما اوضحنا سابقا ، بينما الاجراء الأخير يتعارض كليا مع مبادىء القانون الدولي وميثاق الأمم المتحدة الذي حرم تحريما قاطعا اللجوء الى استعمال القوة كأساس لحل الخلافات بين الدول .

فالنزاع بين الدول الذي تخرج معالجته عن نطاق الفصل السادس من ميثاق الأمم المتحدة تنطبق عليه أحكام الفصل السابع من الميثاق وهو الفصل المتعلق بما «يتخذ من الأعمال في حالات تهديد السلم والاخلال به ووقوع العدوان» . وتعالج المادة ٣٩ - تحت هذا الفصل - الاجراءات المطلوب اتخاذها في حالة وقوع العدوان» من دولة على دولة أخرى .

وتنص هذه المادة على سلطات مجلس الأمن في معالجة هذه الحالة بالقول : «يقرر مجلس الأمن ما اذا كان قد وقع تهديد للسلم أو اخلال به أو كان ما وقع عملا من أعمال العدوان ، ويقدم في ذلك توصياته أو يقرر ما يجب اتخاذه من التدابير طبقا لأحكام المادتين ٤١ ، ٤٢ لحفظ السلم والأمن الدولي أو إعادته الى نصابه» .

وتتعلق أحكام المادة ٤١ بالتدابير التي يمكن أن يتخذها مجلس الأمن لمواجهة هذا العدوان قبل أن يقرر تخويل الدول الأعضاء «استخدام القوات المسلحة لتنفيذ قراراته» .

وتتعلق هذه التدابير بتخويل الدول الأعضاء بأن تتخذ الاجراءات اللازمة

لتطبيق هذه التدابير التي «يجوز أن يكون من بينها وقف الصلات الاقتصادية والمواصلات الحديدية والبرية والبحرية والجوية والبريدية والبرقية اللاسلكية وغيرها من وسائل المواصلات وقفا جزئيا أو كليا وقطع العلاقات الدبلوماسية».

أما أحكام المادة ٤٢ فتخول مجلس الأمن اتخاذ اجراءات أقوى ضد الدولة المعتدية على دولة أخرى في حالة عدم امتثالها لقراراته التي تطالب الدولة المعتدية بالانسحاب من أراضي الدولة الأخرى. وتجيز هذه المادة لمجلس الأمن، في هذه الحالة، بأن «يتخذ بطريق القوات الجوية أو البحرية أو البرية من الأعمال ما يلزم لحفظ السلم والأمن الدولي أو لاعادته الى نصابه». ويجوز أن تتناول هذه الأعمال «المظاهرات والحصر والعمليات الأخرى بطريق القوات الجوية أو البحرية أو البرية التابعة لأعضاء الأمم المتحدة».

فالمادة ٤٢ من الميثاق تخول مجلس الأمن الدولي أن يجيز للدول الأعضاء، بقرار يصدر منه، بأن تفرض الحصار البحري الذي يسمح بتفتيش كل السفن التي تذهب الى موانىء الدولة المعتدية أو تخرج منها وذلك لأحكام المقاطعة الاقتصادية ضدها. كما تجيز هذه المادة استعمال القوة العسكرية جوا وبحرا وبرا ضد الدول المعتدية لغرض منع الاعتداء أو ازالته وارجاع الوضع لما كان عليه قبل الاعتداء. وهذا ما تعبر عنه المادة بعبارة «أن يتخذ (المجلس) بطريق القوات الجوية والبحرية والبرية من الأعمال ما يلزم لحفظ الأمن والسلم الدولي لاعادته الى نصابه».

والفصل السابع يتضمن ١٢ مادة ترتيبها من المادة ٣٩ ـ ٥١ وكلها باختصاصات مجلس الأمن بشأن حفظ السلم والأمن الدولي أو اعادته الى نصابه». أما المادة ٥١ فهي تتعلق بحقوق الدول في الدفاع عن نفسها عند وقوع العدوان وذلك قبل أن يتخذ مجلس الأمن التدابير اللازمة لحفظ السلم والأمن الدولي وفقا للمواد الأخرى. وفي ذلك تشير هذه المادة الى أنه «ليس في هذا الميثاق ما يضعف أو ينتقص الحق الطبيعي للدول، فرادى أو جماعات، في الدفاع عن نفسها اذا اعتدت قوة مسلحة على أحد أعضاء الأمم المتحدة وذلك الى أن يتخذ مجلس الأمن التدابير اللازمة لحفظ السلم والأمن الدولي».

وفي ضوء ما شرحناه سابقا من المبادىء التي تضمنها الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة، يتضح لنا أن النزاع العراقي الكويتي اتخذ بعد الثاني من أغسطس ١٩٩٠م وضعا جديداً تنطبق عليه أحكام هذا الفصل من الميثاق، فهو في شكله عدوان صريح من دولة عضو في الأمم المتحدة هي العراق على دولة أخرى عضو في المنظمة هي دولة الكويت.

لذلك، فإنه لا غرابة في الخطوات والاجراءات والقرارات التي اتخذها مجلس الأمن الدولي والتطورات العربية والدولية التي تبعت هذا الاحتلال وذلك تطبيقا لمبادىء الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة. فقد اتخذ مجلس الأمن الدولي اثنى عشر قرارا لا ليدين هذا الاحتلال غير الشرعي لأراضي الكويت فحسب، وانما ليطالب العراق ـ ضمن أمور أخرى ـ بأن ينسحب انسحابا

كاملا غير مشروط من جميع أراضي الكويت ، لتعود الحكومة والسلطة الشرعية الكويتية الى الكويت المحررة ، وبالتالي لارجاع الأوضاع في دولة الكويت الى ما كانت عليه قبل يوم الثاني من اغسطس ١٩٩٠ .

أما آخر هذه القرارات وهو القرار رقم ٦٧٨ فهو أخطر هذه القرارات قاطبة وهو القرار الذي اتخذه مجلس الأمن الدولي بتاريخ ٢٩ نوفمبر ١٩٩٠ ، وتطبيقا للمادة (٤٢) من الميثاق ، فهو يدعو العراق الى تطبيق القرارات السابقة التي اتخذها المجلس ضد العدوان العراقي على الكويت ، ويجيز للدول الأعضاء ان تتخذ كل الوسائل اللازمة لتطبيق قرارات مجلس الأمن السابقة المتعلقة بالانسحاب العراقي الكامل من اراضي الكويت ، وذلك اذا لم يتم هذا الانسحاب العسكري من الكويت بعد تاريخ ١٥ يناير ١٩٩١ .

والمفهوم الصريح لهذا القرار واضح ، اذ أنه يعطي الخيار للقوات البرية والبحرية والجوية للولايات المتحدة الأمريكية والدول المتحالفة معها سواء في المملكة العربية السعودية أو الخليج أو المناطق الأخرى بأن تقرر في أي وقت بعد ذلك التاريخ الهجوم العسكري برا وبحرا وجوا على أراضي كل من العراق والكويت لغرض تطبيق قرارات مجلس الأمن ـ الذي هو أكبر سلطة دولية في العالم ـ وبالتالي تحرير الكويت من العدوان والاحتلال العراقي .

وتجدر الاشارة بصدد هذا القرار الى أنه في الوقت الذي حدد تاريخ ١٥ يناير ١٩٩١ كآخر فترة للانسحاب العراقي من الكويت ، إلا أن القرار المذكور لم يكن من الناحية القانونية البحتة انذاراً باعلان الحرب على العراق بعد انتهاء الساعة الأخيرة من اليوم الخامس عشر من يناير ١٩٩١ .

ولكن القرار أعطى الخيار للولايات المتحدة الأمريكية والدول المتحالفة معها بأن تباشر العمليات العسكرية ضد القوات العراقية والمواقع العسكرية والاستراتيجية في أراضي العراق والكويت في أي وقت تراه مناسبا بعد انتهاء الفترة المحددة في القرار وهي ١٥ يناير ١٩٩١ . والفرق واضح بين هذا وذاك .

واخيرا ، فإن القانون الدولي الذي يجسد مبادئه السلمية ميثاق الأمم المتحدة والمعاهدات الدولية الجماعية يحرم بل ويدين بقوة العدوان أو مجرد التهديد بالعدوان ، بأي شكل كان ، كما ان مبادىء القانون الدولي صريحة في عدم اقرارها اللجوء الى استعمال القوة كوسيلة من وسائل حل الخلافات أو المنازعات بين الدول سواء كانت هذه المنازعات تتعلق بالدعاوي الاقليمية (أي المطالبة بالسيادة على الاقليم) أو بتحديد الحدود البرية أو البحرية بين الدول . اذ أن حل هذه المنازعات لا يكون إلا عن طريق اللجوء الى الأساليب السلمية البحتة .

وان اصرار المجموعة الدولية على الالتزام بهذه المبادىء الأساسية هو الذي دعا مجلس الأمن ـ بقيادة الدول الخمس الدائمة العضوية فيه ـ الى اتخاذ موقفه المتشدد من العدوان العراقي والمتمثل في القرارات الاثني عشر التي اتخذها خلال فترة العدوان .

وفي نظر المحللين السياسيين ، لم يتخذ مجلس الأمن منذ تأسيس الأمم المتحدة في عام ١٩٤٥ موقفا بهذه القوة من العدوان ولكن يجب الاشارة الى أن مجلس الأمن توصل في حالة الحرب الكورية في عام ١٩٥٠ - ونظرا لمقاطعة المندوب السوفيتي لجلسات المجلس آنذاك - الى اصدار قرار يجيز للولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها التدخل العسكري لغرض رفع العدوان عن كوريا .

ولعل التبرير السياسي لتشدد مجلس الأمن في مقاومة العدوان من دولة على دولة أخرى هو خوف المجموعة الدولية عندما تقف حائرة لا حول لها ولا قوة تجاه هذا العدوان ، اذ أن مثل هذا الموقف المتخاذل قد يعصف بل ويقضي على وجودها كمنظمة دولية جبل ميثاقها أساسا على ارساء قواعد الأمن والسلم الدولي ، خاصة وأن المجتمع الدولي لا يزال يتذكر الاحتلال الايطالي لأثيوبيا الذي أدى الى القضاء الفعلي على عصبة الأمم المنشأة بعد الحرب العالمية الأولى ، وذلك بعد أن أصبحت عاجزة عن مواجهة ذلك العدوان الايطالي على أثيوبيا .

ولكن بالرغم من هذا التبرير السياسي ، فان الحقيقة هي أن قرارات مجلس الأمن ومدى قوتها أو ضعفها كانت محكومة دائما بالجو السياسي بين المعسكرين الغربي والشرقي وبخاصة الخلافات بين القوتين العظميين . أما القرارات الأخيرة التي اتخذها مجلس الأمن تجاه العدوان العراقي فقد اتخذت في جو يسوده الوفاق الدولي ، الأمر الذي يدعونا الى القول بأن قوة مجلس الأمن في تدعيم السلم والأمن الدولي تعتمد ، ضمن أمور أخرى على استمرار وجود الوفاق الدولي بين الشرق والغرب .

محاضرة
بنادي الخريجين بالبحرين
٩ يناير ١٩٩١

الشيخ عيسى بن علي

الشيخ عيسى بن علي آل خليفة
ولادته : ١٢٦٥هـ - ١٨٤٩م .
تولى الحكم : ١٢٨٦هـ - ١٨٦٩م .
تنازله لولي عهده : ١٣٤١هـ - ١٩٢٣م .
وفـــاته : ١٣٥١هـ - ١٩٣٢م .
مدة حكمه : ٥٥ عاما .
عمـــره : ٩٧ سنة قمرية - أو ٩٤ سنة شمسية .

هو الشيخ عيسى بن علي بن خليفة بن سلمان بن أحمد (الفاتح) بن محمد بن خليفة آل خليفة ولد في البحرين غرة عام ١٢٦٥هـ/١٨٤٩م وسماه والده باسم صهره (عيسى بن طريف آل بنعلي) . ولما جاوز سموه نصف العقد الأول من عمره ضم اليه والده المربين والمؤدبين وعلماء اللغة والدين فاخذ عنهم ما يجب لأولاد الأمراء وإدارة البلاد . وتعلم على أيديهم فنشأ فصيحا يتذوق الأدب والشعر ويشجع الشعراء ويقرب العلماء لذا أصبح قصره موئلا للفقهاء والعلماء والشعراء وفي أواخر حياة أبيه أصبح حاكما في المحرق . وكان للظروف السياسية التي مرت بها البلاد في عهد والده من جهة ولتربيته على يد مشاهير عصره في الادارة والسياسة وحضوره مجالس والده ما هيأه الى ان يتبوأ مكانة رفيعة في الادارة فقصده بعض رجال السياسة للإستنارة برأيه خاصة وقد وهبه الله بسطة في الذكاء ونظرة بعيدة في أحكامه . ومن خصاله الحميدة كرمه الذي ضرب فيه المثل فقصده أصحاب الحاجات كما امتاز بالحزم وحسن التدبير وسعة البال والحلم مع ما اتصف به من عدالة اجتماعية مستمدة من تقواه وتمسكه بدينه . وقصده القاصي والداني واجتمعت على محبته القلوب .



آل خليفة

القسم الأول

بقلم

الدكتور

أبا حسين

وسكن الشيخ عيسى بن علي آل خليفة في صباه في بيت يقع في سوق المنامة مع والده الشيخ علي بن خليفة ويقع البيت بقرب المسجد المقابل لبيت الشيخ قاسم المهزع ويمتد الى البحر أي الى المكان الذي تحتله البلدية اليوم وبذلك يشمل أسواق السمك والخضار واللحم القديمة حتى إذا ما حكم الشيخ عيسى بن علي انتقل الى بيت في المحرق كان قد بناه الشيخ حسن بن عبدالله الذي توفي قريبا

وكان بناء هذا البيت في أيام الشيخ حسن ما عدا الغرفة الشمالية الغربية حيث بنيت أيام الشيخ عيسى بن علي وأما الحجرة الوسطى التي يعلوها (البادكير) فقد بنتها الشيخة عائشة بنت محمد زوجة الشيخ عيسى بن علي آنذاك بنتها في حياته . وعاش الشيخ عبدالله بن عيسى بن علي واخوته في هذا البيت في حياة والدهم وبعد وفاته سكن الشيخ عبدالله بن عيسى المجلس الشرقي وسكنت عائشة

بقية البيت الى ان توفيت . ثم بقي فترة فسكنته الشيخة نورة بنت عبدالله الى ما قبل بضع سنين حيث ترك . وقامت وزارة التربية والتعليم (إدارة الآثار والمتاحف) بترميمه كنموذج للتراث المعماري في البحرين . وشهدت فترة حكم الشيخ عيسى بن علي آل خليفة الاستقرار والأمن مما ادى الى نشاط عمراني وثقافي واقتصادي فإن شاهد عيان من المؤرخين المعاصرين له كتب يقول : أول ما يلفت النظر في البحرين حسن ترتيب وضع قصور الحكام الفخام : إذ قد توسط قصر سمو الحاكم المعظم واحاطت به قصور أنجاله الكرام . فكأنه القمر بين زواهر النجوم (فمن الجنوب) قصر ابنه سمو الشيخ حمد وهو شرقي مسجد الجمعة القديم .

وقد كتب على مصراعي الباب هذان البيتان وبهما تاريخ البناء :

عيسى بن علي منار البيت أطده
على المكارم والعليا له عمد
لشبله طالع الاقبال أرخه
(هنيت بالبيت يا در العلى حمد)
١٣٠٩هـ

(ومن الغرب) قصر ابنه سمو الشيخ عبدالله . وقد جدده على الطراز الحديث . (ومن الشمال) قصر ابنه سمو الشيخ محمد . وبجانبه مجلسه العمومي . وامامه المجلس الخصوصي وقد خصصه لاقامة الوافدين من العلماء والفقهاء والمحبين للزيارة ولطلب العلم : وفي جنوب هذا المجلس . مجلس ابنه الشيخ أحمد بن الشيخ محمد . (ومن الشرق) قصر حفيد الحاكم سمو الشيخ خليفة بن سلمان وقد جدد بناءه على الطراز الجديد وجعله في الطبقة الثانية سنة (١٣٣٩هـ) وأرخه يوسف بن فلاح بقوله :

تجديده صار في العشرين من صفر
في عام خير بهذا قلت مبتدر
مؤرخا داعيا للشهم صاحبه
(عمرت فيه بلا نقص ولا كدر)
١٣٣٩هـ

وباقي قصور العشيرة الخليفية الكريمة محيطة به من جهاته الأربع احاطة الهالة بالقمر . والاكمام بالثمر . وكلها بديعة الزخرفة منتظمة الهندسة .

وفي داخل قصر سمو الشيخ حمد مجلسه العمومي وهو بديع المنظر والشكل بنى سنة (١٣٣١هـ) لمقابلة الوفود . والضيوف . ويكاد أن يكون أفخر أبنية البحرين الشهيرة [١] .

وبعد مقتل الشيخ (علي بن خليفة) في ١ سبتمبر عام ١٨٦٩م الموافق في ٢١ جمادي الأولى عام ١٢٨٦هـ [٢] خلت مشيخة البحرين واضطربت الأحوال في المنامة فأرسل الرائد (بيلي) مساعده الكابتن (واي) على ظهر سفينة (دالهوزي) لنقل التجار الذين يريدون مغادرة البلاد لكنهم رفضوا وطلبوا البقاء رغبة في الكسب وعلى أثر ذلك فقد قدم المقيم في اوائل أكتوبر من عام ١٨٦٩م الموافق في رجب ١٢٨٦هـ اقتراحات لتسوية هذه الأزمة التي تمر فيها البحرين ، ثم خولت له السلطة لحصار البحرين واستخدام القوة حتى تستتب الأحوال وكان ذلك في منتصف نوفمبر ١٨٦٩م الموافق في التاسع من شعبان ١٢٨٦هـ فاستسلم كل من (محمد بن عبدالله) و (ناصر بن مبارك) و (محمد بن خليفة) جميعا وارسلوا الى الهند واعلنت حكومة الهند عزمها على معاقبة المستحقين ممن اثاروا الشغب [٣] وعلى اثر مقتل الشيخ علي بن خليفة فقد خرج ابنه الشيخ عيسى بن علي من البحرين الى

قطر وهناك استقبلته قبيلة النعيم وغيرهم من الموالين لآل خليفة وأكرموه فأقام عندهم نحو شهرين الى ان أتاه الداعي من البحرين ووضح أن الناس جميعاً كانوا يفضلون تعيين الشيخ عيسى ابن الشيخ السابق شيخا للبحرين فأعلن تعيينه وابلغ شيوخ عمان والساحل المتصالح كتابيا وذلك بعد ان تشاور رؤساء القبائل وأعيان أهل البلاد على اختياره حاكما عليهم فكتب المقيم السياسي في البحرين اليه وعرض عليه رغبة أهل البحرين في توليه مشيخة البحرين فقبلها وقدم سكان قطر اليه السفن فشكرهم وتوجه مع بعض أتباعه الى البحرين وما أن وصل المحرق حتى استقبل استقبالا منقطع النظير من جمهور أهل البلاد وكان المعتمد السياسي في مقدمة مستقبليه ، ونصب حاكما على البحرين وسط مظاهر الابتهاج الشامل . وله من العمر وقتئذ الحادية والعشرين وتولى سدة الحكم لليلة بقيت من شعبان ١٢٨٦هـ الموافق الرابع من ديسمبر ١٨٦٩م ودانت له القبائل فأنعم عليها وبذل لها العاديات الأصائل من الخيل والمال والسلاح والحلل فاشتهر بكرمه وجوده حتى مع أعدائه وأغدق بكرمه على جميع الذين استبشروا بعهده من سكان البلاد بعد سنين طويلة مرت بها البحرين من الحروب والفتن والاضطرابات فعوض المتضررين من جراء الفتن الماضية وخص بالاكرام أولئك الذين لازموه وأيدوه ونصروه فحفظ لهم صحبتهم ونصرتهم وتأييدهم له .

وبذا عرف الشيخ عيسى بكرمه المنعوت بين حكام العرب السالفين وذلك لعطائه ورعايته خاصة للضعفاء والفقراء والمساكين من أهل البلاد ومن العربان الوافدين عليه من البر . وكان في طبعه الحلم والسماحة وعدم الاستعجال في الحكم وتدارك الأمور بالهون واصلاح ما بين الطرفين المتخاصمين بعكس بعض من حكم قبله ممن عرف بالشدة . وبقى الشيخ عيسى بن علي يداري خاطر الكبير والصغير بعطائه وسماحة نفسه سواء الى أهله واقربائه أو لجماعته حيث يوقر كبيرهم ويرحم صغيرهم مع ما عرف من مساعدته لأهل بلده كافة . وعرف بشجاعته وبسالته التي بدت حين خان البعض أباه فدافع دفاع الأبطال واثرت الجراحات والصوابات في جسمه . وحافظت أسرته (آل خليفة) على اصالة النسب فلم يزوجوا بناتهم إلا بعد أن يرجعوا اليه والى كبار رجال الأسرة . كما كان يرجع في أحكامه الى الشرع والى (سالفة الغوص) . وخلاصة القول فان سيرة الشيخ عيسى بن علي آل خليفة تذكرنا بسير شيوخ العرب وسياسته كسياستهم . وهذا مما أدى الى أن يسود الأمن والأمان والاستقرار وذلك بفضل ما عرف عنه من حزم وعدل وتدبير [٤] .

وخلف الشيخ عيسى بن علي من الأولاد وهم : سلمان وحمد وراشد ومحمد وعبدالله ومن وزرائه ان صح هذا التعبير - فقد استوزر الشيخ عيسى عم ابيه الشيخ (عبدالوهاب بن سلمان بن أحمد آل خليفة (الفاتح) المولود في البحرين عام ١٢٤٠هـ/ ١٨٢٤م ويسكن المحرق وكان الشيخ عبدالوهاب ملازما للشيخ عيسى قبل أن يتولى الحكم في البحرين وهو بمثابة وزيره فلما تولى الشيخ عيسى الحكم كان تدبير أملاك الشيخ عيسى بيده وكذلك إدارة الجمارك في البحرين ، وأحيانا يستشيره الحاكم

وهو الذي يتولى خرجه وسيرة الشيخ عبدالوهاب كانت حسنة مع الناس ورغم كثرة مهامه بقى في الوزارة وأصبح ضريرا في أواخر أيامه حتى توفي سنة ١٣٠٦هـ [٥] وبعد وفاة الشيخ عبدالوهاب استوزر من بعده ابنه الشيخ (عبدالرحمن بن عبدالوهاب) وبقى فيها الى ١٣٢٤هـ حيث انسلخ منها لامور مجهولة على حد قول النبهاني [٦] .

أما (يوسف بن حسن بن فلاح) فيقوم بمهام (الحاجب) للشيخ عيسى بن علي آل خليفة . وعرف عن الشيخ عيسى بن علي اهتمامه ورعايته للعلماء والأدباء والشعراء ومن أشهر علماء البحرين في عهده :

الشيخ (محمد بن راشد الحسني المالكي) الذي تولى القضاء الى ان توفي . والشيخ (عبدالرحمن بن جعفر المالكي) تولى القضاء ثم عزل عنه . والشيخ (قاسم بن مهزع المالكي) ولد في البحرين عام ١٢٦٦هـ/١٨٤٩م وتعلم في الاحساء ثم عاد الى البحرين فصار قاضيا فيها عام ١٢٩٤هـ/١٨٧٨م وذلك بعد عزل قاضيها الشيخ عبدالرحمن بن جعفر وكان الشيخ قاسم المهزع يقضي في القضايا البسيطة بلا معاودة حاكم البحرين بينما يقضي في القضايا الكبيرة بأمر ومعاودة حاكم البحرين وبرضى الطرفين وكان يجرى أحكامه على المذهب المالكي وهو أحد المذاهب الأربعة ومذهب حكام البحرين .

وممن تولى القضاء أيضا الشيخ (عبدالرحمن بن عبداللطيف آل مبارك المالكي) تولى القضاء في البحرين وينتسب الشيخ عبدالرحمن الى تميم ولد في الاحساء عام ١٢٥٣هـ/١٨٣٧م وكان أبوه وجده قاضيين وعالمين في الاحساء وساحل الخليج والعراق ومن أفاضل سكان الاحساء ثم هو واخوانه المشهورين فيها والمعروفين بآل مبارك من أهالي الاحساء ولما دخل العثمانيون الاحساء وحاربوا الأمير عبدالرحمن الفيصل وكان آل مبارك موالين له فلما انتصر ناصر باشا قائد الجند العثماني واتجه عبدالرحمن الفيصل الى نجد وقتل من قتل من أهالي الاحساء وفر آخرون منهم الى البحرين ومنهم الشيخ عبدالرحمن بن الشيخ عبداللطيف آل مبارك واخوانه فنصبه الشيخ عيسى بن علي آل خليفة قاضيا في المحرق يقضي على المذهب المالكي وهو باق على القضاء حتى عام تدوين هذه المذكرات في ١٨٨٢م [٧] .

وممن تولى القضاء في البحرين الشيخ (ابراهيم بن عبداللطيف بن عبدالمحسن الصحاف المالكي) وقد ولاه الشيخ عيسى بن علي القضاء وفي ١٣١١هـ سافر الى الهند للعلاج فادركته الوفاة في بومباى . والشيخ (سعيد بن أحمد بوبشيت) والشيخ (خالد بو يوسف بوبشيت المالكي) كما ان الشيخ (شرف بن أحمد) أحد قضاة الشيخ عيسى بن علي مما لم يذكره النبهاني بينما ورد ذكره وختمه على صكوك الأملاك ودعاوي المحاكم الشرعية في زمانه ومنها ختم على دعوى مؤرخة في ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م بين أحمد بن شاهين الدوسري مع عيسى بن أحمد بن سعد الدوسري حول خلاف بينهما على حضور وأملاك لهما في جزيرة حوار [٨] .

أما الشيخ (محمد بن سعد بن علي بن حمود) فكان اماما وخطيبا لجامع المنامة الكبير سنة ١٢٧٠هـ [٩] مكبا على القراءة والكتابة كثير النسخ والنقل فقد كتب اكثر من خمسين كتابا بقلمه في اللغة

والدين والمواريث والفلك والطب وخلف مكتبة احتلت حجرة من حجرات داره المقابلة لمسجد الفاضل . وكان يرسل الفتاوي لمن يسأله فقد أرسل فتوى بتوقيعه عام ١٣٠٥هـ الى الشيخ جاسم المهزع ويبدو ان الشيخ محمد بن سعد قد بدأ في التأليف والنسخ منذ سنة ١٢٤٤هـ واستمر حتى عام ١٢٩٩هـ وان عدد الصفحات التي كتبها يزيد على تسعة آلاف صفحة محفوظة في دار المخطوطات بمتحف البحرين الوطني [١٠] فإذا حسبنا في كل صفحة عشرين سطراً يكون عدد الأسطر التي كتبها مائة وثمانين الف سطر أو حوالي الف ألف وثمانمائة الف أو (مليون وثمانمائة ألف) كلمة . توفى رحمه الله سنة ١٣٠٧هـ ودفن في البحرين ، وخلفه ابنه الشيخ عبداللطيف بن محمد بن سعد المالكي خطيب جامع المنامة .

ومن القضاة والمفتين الاخرين والذين عاصروا الشيخ عيسى حاكم البحرين هم : الشيخ علي بن محمد الباشا المالكي والشيخ عيسى بن راشد بن عيسى المالكي وكان قد تولى منصب الافتاء في المحرق ثم الشيخ ابراهيم بن جامع الحنبلي وابنه الشيخ عبدالعزيز بن عيسى بن جامع وقد تقلد مذهب الامام مالك وكان امام جامع الشيوخ في المحرق الى سنة ١٣٤٢هـ ١٩٢٢م والشيخ ابراهيم بن هاشل الشافعي النقشبندي والشيخ محمد بن عبدالرزاق آل محمود الشافعي خطيب جامع الحد ومفتيه حتى توفي في ٢٤ ربيع الاول عام ١٣٣٦هـ والفقيه النحوي والفرضي المتفنن الشيخ عبداللطيف بن محمود آل محمود الشافعي وهو تلميذ والد المؤرخ محمد النبهاني في علم الفلك وقد قرظ كتابه المنعوت (الوسيلة المرعية في معرفة الاوقات الشرعية) . ومن العلماء في ايام الشيخ عيسى بن علي آل خليفة الشيخ احمد بن محمد بن عبدالرزاق آل محمود وهو خطيب جامع الحد تولى الامامة والخطبه بعد والده حتى بعد ١٣٤٢هـ .

وقد نصب الشيخ عيسى بن علي آل خليفة الشيخ (احمد بن الشيخ سلمان الشاخوري) قاضيا يقضي على المذهب الجعفري . والشيخ احمد الشاخوري ولد في البحرين عام ١٢٥٧هـ ١٨٤١م وهو من علماء الاثنى عشرية الاخباريه وقد نصبه الشيخ عيسى بن علي قاضيا في عام ١٨٧٠م وهو مدقق في الاحكام الشرعية وعفيف وله بعض النخيل مما يقوته منها ويوصله بعض جماعته بالمال على هيئة هدايا ووصايا . وكان الشيخ احمد يحكم في المخاصمات التى يكون طرفي النزاع فيها من الجعفريين . اما اذا اختلف مذهب طرفي النزاع فيحكم بينهما القاضي السني[١١] .

ومن القضاة الذين عاصروا الشيخ عيسى بن علي القاضي السلفي محمد بن فضل او محمد الفضاله وكان يقوم بمهامه بجدية وعدل واصدر قرارات منصفه وخاصة قضايا الغوص في عام ١٩١٦م ومثله القاضي خليفة بن مبارك ومن القضاة الاخرين في عام ١٩٢١ الشيخ عبدالله والشيخ علي بن حسن والشيخ خلف العصفور وغيرهم .

ومن رجال الشيخ عيسى بن علي آل خليفة /(سعد بن عامر الهزاني) وهو من سكان البحرين ولد في المنامة عام ١٢٥٠هـ ١٨٣٤م وكان امير وضابط سوق المنامة ودكاكينها وحكمة ماض في



الشيخ عيسى بن علي بن خليفة آل خليفة في الوسط وعلى يمينه الشيخ حمد بن عيسى بن علي ثم الشيخ عبدالله بن عيسى بن علي وعلى يساره الشيخ محمد بن عيسى بن علي ثم الشيخ سلمان بن حمد بن عيسى بن علي

No. 4 4th January

From Residency Agent – Bahrein
To Resident

من بحرين مربوت ف جنوري سنة ١٨٩٧

حضرة جناب العالي الجاه ذوي الشوكة والاجلال الاكرم الافخم صاحب الكرنل ولسن باليوز

دام مجده آمين بعد السلام والسؤال عن صحة ذاتكم العلية لا زلتم في خير وعافية

وبعد هذا واصلا لسعادتكم لفا كتاب باسم حضرتكم من الشيخ عيسى بن علي

حاكم البحرين مضمونه ارادته ان يجعل ابنه الشيخ حمد خليفة من بعده هذا ما لزم عرضه

ودمتم سالمين والسلام حرر ٤ رجب سنة ١٨٩٦ مطابق ف جنوري سنة ١٨٩٧
١٣١٤ هـ

صحيح [illegible]

[illegible]

C/O

Enclosed I encloses you a letter fr to your address from Sheikh Isa Chief of Bahrain, putting forth his desire to appoint his son Sheikh Hamed his successor.

الادنى من الاحكام بلا مراجعة الحاكم ولكنه يعاود الشيخ عيسى فى الاعلى من الاحكام اي يعود فى أحكامه الى حاكم البحرين . ويقوم بجمع الرسومات والنطاير (رسوم حراسة المخازن) والدكاكين .

وقد منحه الشيخ عيسى نخيلا يستحصل ثمرها وكثيرا ما ينظر (سعد بن عامر) فى الدعاوى البسيطة من المدعى فى ١٠ الى ١٠٠ اما الدعاوى الاعلى فيقصر عمله على المصالحة . وقد كان سعد بن عامر فى السابق اميرا فى السوق فى عهد الشيخ على بن خليفة بن سلمان والد الشيخ عيسى وكانت احكام الشيخ علي تجرى كمجرى احكام حكام العرب(١٢) اى على الشرع والعرف والعادة .

وممن عاصر الشيخ عيسى بن علي من الادباء والمؤرخين فى البحرين :

مقبل بن عبدالرحمن الذكير المولود فى عنيزه من اعمال القصيم عام ١٢٦٠هـ ١٨٤٤م وقد عمل بالتجارة وخاصة تجارة اللؤلؤ وذلك فى (جده) وكان يتردد على الهند والبصرة وفى ١٢٩٤هـ وصل الى البحرين وسكن فى المنامة وهو من رعايا الدولة العثمانية وكتب كتابا فى التاريخ كما ان له مكاتبات ومحاورات مع ادباء فى الاحساء والبصرة والهند وقطر ومراسلات حول الاسعار ويحترمه حكام البحرين وعنده بيت ملك فى البحرين وبيت فى عنيزه بنجد واولاده عبداللطيف وعبدالمحسن ويفهم اللغة الهندية علاوه على اللغة العربية(١٣) .

والشيخ محمد بن خليفة النبهانى الطائي نسبا ثم المكي مولدا والمدرس بالمسجد الحرام ولد فى ١٣٠١هـ فى (ام القرى) وهو صاحب (التحفه النبهانية فى تاريخ الجزيرة العربية) الفها بعد وصوله الى جزيرة اوال فى غرة عام ١٣٣٢هـ وعجل بطبع القسم المختص بتاريخ البحرين على اثر قيام الحرب العالمية الاولى واتجه الى البصرة عائدا من البحرين ولكنه اسر من قبل الانجليز هناك فلما بلغ حاكم البحرين الشيخ عيسى بن علي ذلك تذاكر مع رئيس الخليج فاطلق سراحه فى جمادى الاولى ١٣٣٤هـ فبقى فى البصرة مطلق السراح الى ان اعلنت الهدنة فى عام ١٣٣٧هـ فطبع الكتاب طبعة اولى فى بغداد ١٣٣٢هـ وثانية فى القاهرة ١٣٤٢هـ وقد استمد معلوماته التاريخية من الوثائق المخطوطه وقتئذ فى سجلات دار الامارة بالبحرين وبمساعدة الشاعر الشيخ ابراهيم بن محمد بن خليفة والشيخ عبدالله بن سعد بن شملان المتوفى فى ١٥ ربيع الثاني ١٣٣٦هـ حيث امداه بعدة وثائق تاريخية هامة على حد قوله بالاضافة الى الروايات الشفوية التى حصل عليها من كبار السن وشيوخ عصره . وقد ترجم الطبعة الاولى من كتابه الى الانجليزية ترجمها السيد حسن صديق رئيس الشرطة بالبحرين وقتئذ بأمر من الحكومة البريطانية مقابل مكافأة سخية اعطيت للمترجم . وقد عاش جد المؤلف فى الزبارة مع آل خليفة ثم انتقل معهم الى البحرين وعاش فيها الى ان حدثت الفتن فى البحرين خرج والده الى مكة المكرمة وسكنها رغبة فى طلب العلوم وبقى الشيخ محمد بن خليفة النبهانى مثابرا على طلب العلوم حتى اصبح مدرسا فى الحرم المكى الشريف كوالده(١٤) . ثم نزل

البصرة وعين قاضيا فيها ولم يزل في القضاء الى ان ادركته المنية عام ١٢٧٠هـ وكان قد وضع اثنى عشر كتابا .

ومن المدارس الاولى في عهد الشيخ عيسى بن علي آل خليفة مدرسة للمالكية في البحرين تأسست قبل عهده واستمرت في ايامه وكان قد اوقف عليها الشيخ حسن بن عبدالله بن احمد آل خليفة نخلا في (الجابور وجد الحاج) وجعل القائم عليها فضيلة الشيخ راشد بن عيسى بن خميس والصالح من ذريته وشهد على هذه الوقفية الشيخ احمد بن عثمان بن جامع في ٢٤ ربيع الثاني ١٢٤٨هـ وختمها الشيخ عيسى بن علي بختمه بعد ان ثبت لديه ما ذكر فيها .

ومدرسة اخرى اوقف عليها الشيخ عيسى بن علي سوقا هو سوق السمك القديم ولا نعرف موقع هذه المدرسة يدرس فيها العلوم الشرعية من فقه ونحو وفرائض ونصب عليها الشيخ احمد بن مهزع واوجب عليه التدريس فيها كل يوم عدا يومي الجمعة والخميس وقبل ان يشرع في التدريس كان يقرأ الفاتحه ويجعل ثوابها للشيخ عيسى بن علي ، وامه وابيه وقد حررت هذه الوقفيه في ٦ رجب ١٣٠٨هـ الموافق في ١٦ فبراير ١٨٩١م[١٥] .

وحين تذكر البحرين يذكر حاكمها الشيخ عيسى بن علي آل خليفة وخير من وصف البحرين ووصف مجلس شيخها الاديب المؤرخ (امين الريحاني) نقتطف من وصفه عمران مدينة المنامة عام ١٩٢٢م بقصورها المشرفة على البحر والمراكب الشراعية حولها ومما يلفت النظر الحركة التجارية في أسواقها وما فيها من مخازن تحوى من الملبوس والمأكول والمشروب ومن أسباب الزينه والترف ما يندر الا في المدن الكبيرة . وفي بيوتها الدفاتر الضخمه والكتاب وفيها نظام وادارة ودواوين يجلس عليها الزائرون لا الزبائن وفيها بيوتات تجارية تحوى صناديق حديديه واكياس النقود ذهبا وفضه وبريد تراعى اوقات سفره وقدومه . والبحرين سوق الجزيرة العربية تحمل منها واليها البضائع وفي البحرين نهضة ادبيه ومشاركة اجتماعية نشطة ففي ناديها الادبي المجلات العربية والكتب الحديثة والقديمة . ومدرسة ابتدائية وفي المحرق قصر الحاكم صاحب السمو الشيخ عيسى بن علي آل خليفة وفي الزقاق المؤدى اليه بعض الاعراب وفي فناء القصر جمهور أخر لا يقل عن المائة جالسين في مجالس من اللبن والحجر كل يحمل سيفه او عصاه ويتصدر ساحة القصر شيخ طاعن في السن قصير اللحية قصير القامة ويأمر بالقهوة فيأتى رجل يحمل إبريقا من النحاس ويلبس معطفا احمر مزركشا بالقصب يتبعه ولد بثوب رسمى يحمل الفناجين ويسلمان على الشيخ وعلى ضيوفه ثم يصب القهوة للشيخ ثم لضيفه . وفي ذلك القصر غرفه تقع على السطح يجتمع فيها الحاكم بعيدا عن الرقباء . وهناك سأل امين الريحاني الشيخ عيسى بن علي آل خليفة هل تلبون دعوة الشريف حسين الى اجتماع يعقد في مكه من اجل البحث في شئون العرب والاسلام ؟ فاجابه الشيخ قائلا : اذا لبى سلطان نجد (الملك عبدالعزيز آل سعود) الدعوة فنحن نلبيها[١٦] .

كما سبق ان وصفها (الانطاكى) حين زارها في ٩ ذي القعدة ١٣٢٥ الموافق ١٥ ديسمبر ١٩٠٧م (قبل ٨٥

عاما) وحل ضيفا على شيخ البحرين الشيخ عيسى بن علي آل خليفة فقال نزلنا فى المنامة وسرنا الى المحرق والمسافة بينهما بحرا قطعناها بخمسين دقيقة بقارب يسير بقوة الهواء ووجدت المحرق ناشف الجو حار حسن السكنى فى الشتاء ولم اجد بردا خلافا لقسم المنامة فانه كثير الطراوة حتى انى وجدت ترابه مبلولا بتأثير الرطوبة وعلمت ان الشيوخ الكرام يسكنون المحرق شتاء والمنامة صيفا ولما نزلت اركبت حمارا وكانت الحمير كثيره وهى عالية وبيضاء وسريعة الجرى وسار بى الحمار فى سوق المحرق وهى سوق ضيقة ولكنها اجمل انتظاما وأوسع مذاهب من أسواق لنجه وخرجت منها الى شوارع حسنه نوعا ما ومازلت اسير بمنعرجات الى ان بلغت سراى الشيخ عيسى المعظم وفى الحال ارسلت بطاقتى لسموه وكان فى الحرم فاسرع اعزه الله ونزل الى حجرة الاستقبال ودعاني اليه فدخلت بسراى الشيخ بين العدد الكبير من رجاله الذين ملأوا صحن الدار وكان بايدى اكثرهم البزاة والشواهين وهم يعتنون بهم عناية فائقة للصيد والقنص . ثم دخلت على حضرته فى غرفة متوسطة الحجم مفروشة بالحصر والسجاد وكان فى صدرها سمو الشيخ واقفا وعندما وقع نظره الكريم على بادرنى بالترحيب ببشاشة وطلاقة عرفت بالعرب الكرام ودعاني للجلوس الى جانبه وكان له من العمر نحو السبعين عاما نحيل الجسم قصير القامة ذو لحية قد خطها الشيب حتى اصبح ليلها نهارا مضيئا ذو عينين وقادتين تنبعث عنهما انوار الذكاء والفطنه وبعد ان استقربي المقام قدمت له تحريرين كانا معي احدهما من سمو الامير فيصل بن تركى سلطان مسقط والاخر من سمو الشيخ عبدالله بن عيسى نجل سموه فتلاهما ثم دعاني لتناول الغداء معه فالقهوة وامر وكيله ان يوصلنى الى الغرفه التى اعدت لى مع خادم يقوم بخدمتى .

وفى الساعة الرابعة بعد الظهر دعيت الى مجلس الحضور حيث يحضره آل بيته وعموم الاهلين وذلك مرتين فى كل يوم فى الضحى وبعد العصر ويقع المجلس امام القصر وهو غرفة واسعة يتصدرها سموه مع ابنائه واحفاده والناس حولهم فيقيم نحو نصف ساعة ثم يخرج الى غرفة القضاء لينظر فى امور الناس وينفرط عقد الاجتماع ثم تلقانى كبير انجاله وهو سمو الشيخ حمد الذى لا يتجاوز الخامسة والثلاثين من عمره ممتلىء الجسم طويل القامة مفتول الساعد ذو لحية كثة شديدة السواد حنطى اللون له عينان جذابتان ممتلئتان ذكاء ويدل منظره على الشجاعة والبساله ويدخل الهيبة فى النفوس واخذنى الى سراياه العامر الذي يبعد نحو خمس دقائق عن سراى ابيه وقد خلع علي بعباءة مزركشة بالقصب على عادة ملوك العرب فانشدت :

مـولاي قـد زينتني بعبـاءة
هى للملـوك العرب والامـراء

وفى نهار الغد ارسل الى ابن عمه ووزيره الشيخ عبدالعزيز مستفسرا عن راحتى واخذني للتجول فى اسواق المدينة التى يبلغ عدد سكانها نيفا وعشرة آلاف نسمة واكثر مبانيها ذات دور واحد الاقصور الامراء فانها ذات دورين واسواق البحرين عامرة ونخيلها باسقة ثم زرنا الشيخ الاديب الشاعر الشيخ ابراهيم بن خليفة والذي يقضى وقته بين الكتب والدفاتر ويسامر الاقلام والمحابر وقد اطربنا لطفة وادبه ثم ودعت صاحب

السمو الشيخ عيسى بن علي ال خليفة وولي عهده الذى زارنى بحاشيته الكريمة فى غرفتى وهو عازم للسفر الى الصيد مع اتباعه وعددهم نيف ومائة رجل فقلت فيه اودعه :

هو ابن عيسى الشيخ افضل حاكم
ويكفية فخرا ان ذا الشيخ والد
نما غرسه فى دوحة المجد والعلى
نمواً كذا من انسلته الأماجد[١٧]

الحالة الصحية فى عهد الشيخ عيسى بن علي آل خليفة :

لقد اهتم الشيخ عيسى بن علي ال خليفة بالخدمات الصحية فكان يدعم ايرادات المستشفيات بأكياس كثيره من الربيات الفضيه على حد قول مدير المستشفى وفى سنة ١٩٠٠م كانت بداية انشاء المستشفيات بالبحرين فى عهد الشيخ عيسى بن علي فبدأت بشكل منزل تم استئجاره والذى تحول الى مستشفى الارسالية الامريكية الموجود حاليا فى البحرين . والمستشفى الثاني هو الخاص بدار الاعتماد والذى اطلق عليه مستشفى فكتوريا التذكارى والذى اسسه هومز وهو نفس الشخص الذى اسس محجرا صحيا فى القضيبيه . ذلك المحجر الذى نقل عام ١٩٨٩ الى قلعة حالة بوماهر وبنى فى القلعة محجر صحي اما مستشفى الارسالية الامريكية فقد تبرع سمو الشيخ عيسى بن علي آل خليفة بقطعة الارض اللازمة للبناء وتم وضع حجر الاساس لبناء المستشفى فى ١٩ مارس ١٩٠٢م وبدأ تشغيله فى يناير ١٩٠٣م وقد استقبل المستشفى فى ١٩٠٥م اكثر من اربعة عشر الفا وكان بعض المرضى من شرق ووسط الجزيرة العربية كنجد والاحساء وقطر وساحل الامارات وعمان وجلان وأرسلت حكومة البحرين مايشبه المستشفى العائم فى مركب مجهز بالأطباء والصيادلة والادوية لخدمة اهل الغوص فى الخليج وذكر الدكتور (بندركار) الخدمات التى قدمتها حكومة البحرين فى مستهل القرن العشرين فى عهد الشيخ عيسى بن علي آل خليفة وولده الشيخ حمد الى سفن الغوص عموما فى الخليج العربى وقدر عدد الاشخاص الذى قدمت البحرين خدمتها اليهم حوالى ٢٥ الف شخص بعد عام ١٩٢٥م وبنى مستشفى جديد للنساء والاطفال فى عام ١٩٢٤م[١٨] وهكذا تطورت الخدمات الصحية خلال حكم الشيخ عيسى بن علي تطورا ملحوظا حتى اصبحت موئلا للكثير من ابناء الخليج يؤمونها للاستشفاء والعلاج وقد ارسل الملك عبدالعزيز رحمه الله عدة رسائل يطلب فيها حضور بعض الأطباء الحاذقين للكشف على المرضى ومعرفة اسباب انتشار الامراض وطرق الوقاية منها ومنهم الطبيب هاريسون الامريكانى الذى فى البحرين وطلب من امير الاحساء عبدالله بن جلوى ان يقدم كافة التسهيلات لحضور الطبيب بسرعة نظرا لانتشار بعض الامراض فى القرى والنواحى فى ١٣٣٥هـ[١٩] كما ورد فى رسالة من جلالته عن وصول الطبيب الامريكانى من البحرين ومباشرته مداواة المرضي واجراء العمليات على المعلولين وقد استفادوا كثيرا ويشير جلالته الى انحراف صحته بسبب تغير الهواء لمكوثه فى الاحساء وكثرة الرطوبات فيها فعالجه الطبيب القادم من البحرين وكتب الى الطبيب هاريسون للتوجه الى بلاد الوشم وسدير والقصيم وعالج الاهالى ويختم

جلالته الرسالة بتحيات والده الامام عبدالرحمن والابناء سعود وفيصل واخوانهما يسلمون على سمو الشيخ عيسى بن علي آل خليفة والاخوان والابناء هذه الرسالة مؤرخة في ٣ ربيع الثاني ١٣٣٨هـ [٢٠] ولما طلب سمو الشيخ عبدالله بن قاسم آل ثاني طبيبا من البحرين توجه له الطبيب (هومز) وارسلت معه كمية من الأدوية لعلاج الشيخ الذي يشكو من الم في رجليه[٢١] واستلم سموه الادوية وعالجه الدكتور هومز . ولما طلب الشيخ عبدالله بن قاسم آل ثاني من الشيخ عيسى بن علي بواسطة الباليوز ان يتوجه الدكتور هومز ثانية وذلك لعلاج اخيه الشيخ علي بن احمد آل ثاني فتوجه اليه وعالجه فارسل شيخ قطر رسالة شكر على ذلك . وفي ابريل ١٩١٨ قام الدكتور هاريسون بزيارة الى ابي ظبي والشارقة والموانىء المجاوره الاخرى لعلاج الاهالي هناك ثم عاد في اواخر الشهر الى البحرين وفي ١٩٣١ نقل أخو شيخ رأس الخيمة الى البحرين بطائرة لتلقى العلاج الطبي في البحرين وعاد بعد اسبوع مشافى[٢٢] .

التعليم في عهد الشيخ عيسى بن علي آل خليفة :

لقد شهد عهده اهتماما بالتعليم فوضع اللبنات الاولى للتعليم في البحرين مما كان له كبير الاثر في تطور البحرين في كافة المجالات كما قرب العلماء والشعراء وقام بافضل الاعمال ومنها تاسيس المدارس وتشجيع ما وجد منها كمدرسة المالكية التي تأسست في ربيع الثاني ١٢٤٨هـ سبتمبر ١٨٣٢م والتي اوقف عليها الشيخ حسن بن عبدالله بن احمد نخلا في الجابور وجد الحاج . كما اوقف الشيخ عيسى بن علي وقفا على مدرسة انشأها في ١٣٠٨هـ/١٨٩١م وتقع في قلب سوق المنامة (قرب سوق السمك سابقا) يدرس فيها الحديث للخاص والعام وبعد الفراغ من قراءة الحديث يشرع المحدث في قراءة العلوم الشرعية من فقه ونحو وفرائض وسائر ما يتعلق بذلك من اللوازم بالعلوم الشرعية وقد نصب الشيخ عيسى بن علي للقيام بهذه الوظيفة الشيخ احمد بن مهزع واوجب عليه الحضور للقراءة والتدريس كل يوم الا يومي الجمعة والخميس وان تأخر لمرض او حج او غير ذلك فيعين من يخلفه[٢٣] وظهرت بدايات التعليم النسوي عام ١٩٠٥م فقد سمح بفتح مدرسة للبنات والتي اسستها الارسالية الامريكية وكان يتعلم فيها خمسون طالبة[٢٤] .

وهكذا فان بدايات التعليم العصري كانت في مستهل القرن العشرين وقد سبق التعليم الاهلي التعليم النظامي حينما تقدم بعض أعيان البحرين بطلب فتح مدرسة اهلية فرحب الشيخ عيسى بن علي بطلبهم وكان منزل علي بن ابراهيم الزياني في المحرق اول مدرسة اهلية للبنين فتحت ابوابها عام ١٩١٩م وحتى عام ١٩٢٦م حين امر الشيخ عيسى ببناء مدرسة الهداية الخليفية ووضع حجر الاساس لها فنقل اليها طلبة وهيئة التدريس من المدرسة الاهلية المذكورة الهداية[٢٥] وارسلت اول بعثة دراسية من مدرسة الهداية ١٩٢٨ لاكمال الدراسة العليا بالجامعة الامريكية في بيروت[٢٦] وشهدت الفترة ما بين ١٩١٩م - ١٩٢٤م نقدا للجنة التربية والتعليم بسبب صرف الاموال من قبل القائمين

على الادارة فما كان من الشيخ عبدالله بن عيسى بن علي آل خليفة الا ان يبادر بالاصلاح نزولا على رغبة الشيخ حمد نائب الحاكم وولى عهده وعلى الرغم من ان مدرسة الهداية اصبحت فى ١٩٢٤م مدرسة حكومية فقد تركت ادارتها فى ايدى لجنة من الاهلين فلم توفق اللجنة فتولى الشيخ ادارتها وبلغت المخصصات المالية لادارة التربية والتعليم فى ذلك العام ٤٨٠٠٠ ربيه تقدمها الحكومة وقامت بأنشاء مدرستين ابتدائيتين جديدتين احداهما فى المحرق والاخرى في المنامة كما أسست مدرسة متقدمه فى المنامة وخصص لكل من المدرستين الابتدائيتين الف ربيه شهريا . وللمدرسة المتقدمة الفى ربيه شهريا كما عين موظف من دائرة التربية والتعليم البريطانية لدية خبرة فى العمل ببلد عربي ليقدم المشورة فى مرحلة انشاء المدارس اولا ثم يقوم بزيارة البحرين زيارات قصيره خلال العام الدراسي وخاصة اثناء الامتحانات ويقدم تقريرا عن المدارس .

وبعد عام او عامين زادت مخصصات التربية والتعليم من الف ربيه لكل مدرسة شهريا الى ٢٥٠٠ ربيه شهريا . وشهد عام ١٩٢٧م افتتاح مدرستين جديدتين للبنين فى كل من الحد والرفاع واتسعت المدرستان السابقتان فى كل من المنامة والمحرق وجلب عدد من المدرسين الجدد وقد كان تأسيس هاتين المدرستين الجديدتين على نفقة الحكومة مع تبرع بعض الاهالى لانشاء المبنى بينما قدمت الحكومة ضعف ما تبرع به الاهالى على ان تصبح ادارة هذه المدارس تحت اشرافها وما ان اهل عام ١٩٢٨م حتى خصص مبلغ إضافي وقدره اثنا عشر الف ربيه لتطوير التعليم الفنى وتوسعة مدرسة المنامة . ومع ذلك فقد شهد عام ٢٩/١٩٣٠م زيادة فى المصروفات بالنسبة الى المخصص من الميزانية وفى تقرير كتبه المقيم أن المصروفات بلغت اكثر من ٣٢ الف ربيه فى عام ٢٨/١٩٢٩م بينما زادت المصروفات فى العام التالى الى اكثر من ٥٧ الف ربيه وكان عدد الطلاب فى البحرين فى ذلك العام ٢٩/١٩٣٠م ٦٥٨ طالبا و ١٠٤ طالبات فى الثانوية وثمانية طلاب مبتعثين الى الجامعة الامريكية فى بيروت على حساب الحكومة وواحد يدرس فى جامعة برايتون فى انجلتره على نفقته الخاصة .

وتأسست مدرسة للبنات ١٩٢٨م رغم المعارضة والنقد لدى البعض الا ان الجهود التى قام بها البعض من الاهالى الذين لهم المام بالثقافة وعلى رأسهم الشيخ عبدالله بن عيسى آل خليفة ذلل تأسيس مدرسة للبنات فى المحرق . وقد سجلت المدرسة نجاحا بالغا ونالت دعما من الاسرة الحاكمة بصوره خاصة وبلغ عدد طالباتها في العام الأول من تأسيسها نحو مائة طالبة وتدرس فيها مدرستان متعاقدتان وأخريان من البحرين وكانت مواد الدراسة تشمل القراءة والكتابة والحساب والخياطة والرسم . وتمتعت المدرسة بشعبيه كبيره مما شجع على قيام لجنة التعليم بانشاء مدرسة فى المنامة للبنات . وكان الشيخ حمد بن عيسى بن علي آل خليفة يهتم كثيرا بنشر التعليم ومواكبة تطوره فى البحرين فقد قام سموه بمراسم افتتاح مدرسة جديده فى عيد الفطر من عام ١٣٤٧هـ /١٩٢٩م وخصص لمدرستى المنامة وسوق الخميس مبلغا قدره الف ومائة ربيه شهريا مساعدة من الحكومة مع تعاون الاهالى بالتبرعات لهذه

المدارس . ووفرت الدولة التعليم المجانى لان معظم الطلبة كانوا فقراء ولا يستطيعون دفع الرسوم ولظروف تدهور محصول اللؤلؤ فى عام ١٩٣١/٣٠م فقد خفضت الحكومة المخصصات من ٩٠ ألفا الى ٦٠ الف ربيه وتم تخفيض رواتب المدرسين وتقرر عدم فتح مدرسة جديده فى هذا العام . كما شهد هذا العام تغييرات هامة فى ادارة المدارس .

وعوداً على بدء فان ادارة التعليم كانت منذ ان انشئت مدرسة شبه حكومية فى المحرق واخرى فى المنامة فى ١٩٢٠/١٩١٩م بمبادرة من الشيخ عبدالله بن عيسى آل خليفة عقب عودته من انجلترا والى عام ١٩٣٠ قد ظلت تحت ادارته اسميا فقط وكان يرأس لجنة التعليم اعضاء من اعيان البلد ذوى المكانة المالية لا الثقافية وكانت الحكومة تدفع مبلغا قدره ٣٢٧٠ ربيه شهريا لهاتين المدرستين مع ما سبق وان جمعته من تبرعات وقدرها ٣٠٠ الف ربيه لبناء مدرسة المحرق التى كلف بناؤها ٢٠٠ الف ربيه ولم يكن مستوى التعليم جيدا اذ ان خريجى المدرستين لا يستطيعون ممارسة الأعمال في الدوائر الحكومية خاصة فى تعليم اللغة الانجليزية ومسك الدفاتر فى بلد يعتمد على التجارة والغوص والتعامل التجارى مع دول اجنبيه مما اثار سخط الكثير من الناس فحدثت تغيرات وتنقلات وتعيين مفتش في دائرة التربية والتعليم واقترح الشيخ عبدالله بن عيسى ان تتولى الحكومة ادارة المدارس وحساباتها وتعيين مشرف على شئون التعليم مما أغضب مدير المدرسة وعدداً من المدرسين وبعض الاعضاء فى لجنة التعليم فاحدثوا اضطرابات لكن الشيخ عبدالله بن عيسى عالجها بحكمته وسياسته وكان الخطأ السائد هو تدريس مواد كثيرة متقدمه بالنسبة للمدارس الابتدائية ولا علاقة لها بالحياة اليومية كعلم الجبر والهندسة والكيمياء وعلم الطبيعة والموسيقى وغيرها علاوة على انها لم تكن تدرس بصورة جيده ، وعلى الرغم من ان الشيخ عبدالله بن عيسى آل خليفة لا يملك المؤهلات الدراسية العالية الا انه ذو ثقافة عامة ورجل ذكي جدا وله طموحات فى تطوير التعليم واجراء اصلاحات حيوية فى نظام التربية وقد استطاع بالتعاون مع المستشار والمفتش التربوى ادخال تعديلات جذرية من بداية عام ١٩٣٢/٣١م وبموجبها استغنى عن معظم المدرسين الاجانب (الذين هم من خارج منطقة الخليج العربى) وحل محلهم مدرسون من شباب البحرين الذين درسوا فى جامعة بيروت الامريكية على نفقة الحكومة بينما عين مديرا مدرسة المنامة والمحرق من الخارج ممن يحمل شهادة عالية وان يكون عصريا فى افكاره ولهما سمعه علمية ودينية طيبة فى أوساط التربية والتعليم وادخل فى المنهج تعليم النجاره والزراعة العملية فكان ذلك نواة للمدارس الصناعية فى البحرين . ودرست اللغة الانجليزية فى الصفوف العليا فقط وشمل المنهج ايضا تدريس الدين واللغة العربية والقراءة والكتابة والتاريخ والجغرافية والحساب والرسم والموسيقى والكشافة فى مدرستى المنامة والمحرق وقدم بعض التجار الآلات الموسيقية لكشافة مدرسة المنامة واقتصر التدريس على مواد بسيطة فى المدارس

الاخرى كالقراءة والكتابة والدين والحساب وقامت لجنة التعليم الجديدة الممثلة لجميع الفئات بمناقشة هذا التغيير واقراره بعد قناعة تامة بفائدته مما ادى الى تقدم ملحوظ في التربية والتعليم . وان كانت اللجنة غير مخوله بتقرير الرواتب او تعيين المدرسين لان ذلك من اختصاص الحكومة(٢٧) .

وكان للشيخ عبدالله بن عيسى المبادرة لانشاء اول مدرسة للبنات عام ١٩٢٨م في المحرق رغم المعارضة الشديده من البعض وساهم تاجر اللؤلؤ الشهير محمد علي زينل بتأسيسها اذ كان يهتم كثيرا بشئون التربية والتعليم واقنع محمد علي زينل بعض الرجال البارزين لفتح مدرسة في المحرق كما فتحت في السنة التالية مدرسة للبنات في المنامة ترأستها زوجة المفتش وكان المنهج الدراسي في مدرستي المحرق والمنامة للبنات يشتمل على اصول الدين والكتابة والقراءة والحساب والخياطة والتطريز وانضمت اليها طالبات من مدرسة الارسالية وكانت المدرسة تتمتع بشعبيه كبيرة .

ويلاحظ في السنتين ١٩٢٩ ـ ١٩٣١ اهتمام بالعاب الميدان الرياضية ولدى كل مدرسة فريق لكرة القدم وتعقد مباريات بين المدارس ويوجد ناد لكرة القدم حتى اصبحت لعبة كرة القدم شائعة وعامة حتى في خارج المدن .

وبلغت مخصصات الحكومة للتربية والتعليم لعام ١٩٣٠م تسعة الاف ربية وفيما يلي تفاصيل النفقات لكل مدرسة :

المدرسة	عدد الطلبة	عدد الصفوف	عدد المدرسين
الخليفية في المنامة	١٣٠	٨	٩ بما فيهم المدراء السابقون
الخليفية في المحرق	١٨٠	٨	٨
الجعفرية في المنامة	١٣٥	٤	٨
العلوية في سوق الخميس	٢٥	٢	٢
الحد	٩٥	٦	٤
الرفاع	٤٠	٣	٢
مدرسة البنات بالمحرق	٦٠	٤	٣
	٧٦٥		

قائمة المدرسين الذين تحسب رواتبهم من قبل التربية والتعليم

فائق ابراهيم ادهم	٣٠٠ روبية	المفتش
مدرسة المحرق		
عثمان حوراني	٢٥٠ روبية	كبير المدرسين
جلال رستم	٢٠٠ روبية	مدرس
محمد الفراتي	٢٠٠ روبية	مدرس
جمعة الجودر	١٢٠ روبية	مدرس
زكريا بيات	٢٠٠ روبية	مدرس
عبدالعزيز الزامل	١٢٥ روبية	مدرس
عبد اللطيف الشملان	٩٠ روبية	مدرس
عبدالله الزياني	٦٠ روبية	مدرس
أحمد عثمان	٥٠ روبية	مدرس
مدرسة المنامة		
عمر يحى	٢٥٠ روبية	مدرس
عبدالرحمن فارس	٢٠٠ روبية	مدرس
عبدالعزيز الراشد	١٨٠ روبية	مدرس
عبدالماجد حموري	١٥٠ روبية	مدرس
ابراهيم العريض	١٣٠ روبية	مدرس
عبدالله عوفي	٨٥ روبية	مدرس
داود الزياني	٧٠ روبية	مدرس
عبدالله المهزع	٥٠ روبية	مدرس
الجعفرية		
محمد سعيد	٢٥٠ روبية	مدرس
محمد رضا	١٦٠ روبية	مدرس
موسى صالح	١٥٠ روبية	مدرس
عبدالله الحامد	١٣٥ روبية	مدرس
عبدالقادر	٦٠ روبية	مدرس
ناصر حسن	٣٥ روبية	مدرس
عبدالله محمد	٦٠ روبية	مدرس
جعفر عبدالله	٨٠ روبية	مدرس

العلوية		
عبدالكريم جمعة	٢٠٠ روبية	مدرس
علي مدني	٦٠ روبية	مدرس
مدرسة الحد		
خليفة محمد	١٤٠ روبية	مدرس
محمد عبداللطيف	٦٠ روبية	مدرس
يعقوب يوسف	٦٠ روبية	مدرس
شريف أحمد	٤٠ روبية	مدرس
مدرسة الرفاع		
السيد هاشم	١٢٠ روبية	مدرس
ملا سالم عبدالله	٤٠ روبية	مدرس
سعد خليفة	٤٥ روبية	مدرس
مدرسة المحرق للبنات		
فاطمة بيات	١٥٠ روبية	مدرسة
لطيفة يوسف	٥٠ روبية	مدرسة
شيخة مسيعيد	٣٠ روبية	مدرسة
مدرسة المنامة (للبنات)		
سنية ادهم	٢٠٠ روبية	مدرسة
هاجر رشيد	٣٠ روبية	مدرسة
سليمة حسين	٣٠ روبية	مدرسة

وتشمل مجموعة المصروفات تحت عنوان (التربية والتعليم) تكاليف الاصلاحات لمبنى مدرسة الحد وقيمة الاثاث ونحوه وفي هذا العام ١٩٣٠ /تم بناء مدرسة في المنامة واستغرق بناؤها اكثر من عامين هي الآن جاهزة وقد بنيت على نفقة الحكومة والمواد المستخدمة فيها توجد محليا باستثناء العوارض الحديدية والاسمنتية والاخشاب ويذكر المستشار بان هذا المبنى من أجمل مباني البحرين والذي قام بتصميمه وتنفيذه هو السيد محمد خليل الناظر في دائرة الطابو ويتولى مهام الأشغال العامة .

ويتكون المبنى من ٩ غرف وسعتها ٢٥٠ طالبا بالاضافة الى صالة كبيرة مركزية تتوسط جناحين وتتسع لأكثر من ١٠٠ طالب اذا اقتضى الامر .. وتستخدم غرفة كمكتب للاوقاف ويوجد مكان كاف لاسكان هيئة التدريس داخل المبنى .

وفي العام التالي تم تخفيض المخصصات بقدر ١٠,٠٠٠ روبية بسبب توقيف نفقات الرسوم عن الطلبة البحرينيين عقب تخرجهم في جامعة بيروت وتوجد الآن ٨ مدارس حكومية ٦ منها للبنين واثنتان للبنات لقد كان لوجود لجنتين مكونتين من اعضاء تنقصهم

الخبرة والمؤهلات ما يسبب مشاكل كثيرة بسبب نزعاتهم الشخصية .. والفائدة الوحيدة التى تأتي منهما هي تشجيع الآباء على ارسال اطفالهم الى المدرسة .. فمن الافضل للشيخ عبدالله بن عيسى ان يتولى الامور بيده نيابة عن الحكومة بالتعاون مع المفتش الذي يملك المؤهلات المطلوبة ليشرف على شئون التربية والتعليم وهذا ما تحقق فيما بعد .

وفي نهاية السنة الدراسية السابقة ٣٠ ـ ١٩٣١م تم اخطار هيئة التدريس بانهاء الخدمة وتوظيف ٥ من المدرسين الجدد و ٣ مدرسات من الخارج وانتخبهم كل من المفتش والشيخ محمد بن عيسى الخليفة وان واحدا منهم وهو رئيس مدرسة المنامة نال توصية من جامعة بيروت ليشغل منصبه وجاء الآخرون من الكلية الاسلامية في بيروت وقام المستشار باعادة توظيف بعض المدرسين القدماء مع ٣ من خريجى بيروت وجلب ٣ مدرسين من الخارج . وتم توظيف المدرسين بالعقود التي وضعت في اللوائح والشروط التي كانت طبقت سابقا من قبل الحكومة بما فيها درجات الرواتب وفقا لمؤهلات المدرسين لكن اللجنة لم توافق على هذا الشرط على أساس أنه يجب على المدرسين المحليين ان يكسبوا اكثر .

وكان من بين المدرسين اثنان من العلماء المتسامحين ذوى السمعة العالية وثالث يحمل شهادة بكالوريوس من جامعة بيروت .

الحضور في المدارس

تقع المدارس في كل من المنامة والمحرق والحد والرفاع وسوق الخميس ويبلغ عدد الطلبة ٥٠٠ وعدد الطالبات ١٠٠

ولما كانت المدارس سابقا تحت ادارة اللجنتين الخاصتين بلغ متوسط التكاليف الشهرية ٥٦٠٠ روبية لكنها الآن اصبحت ٣٦٠٠ روبية بما فيها راتب المفتش وراتب المدرس الزراعي وحصل تحسن في مستوى التعليم وكذلك الاقتصاد في المصاريف بواسطة الرقابة الحكومية .

والان تتوفر فرص التعليم مجانا وان ابواب المدرسة مفتوحة للجميع دون تفرقة ومع انه يفترض ان الطالب يدفع ثمن الكتب الا انه لا يحصل عمليا وتقاوم اللجنتان اى اقتراح حكومي يفرض اى رسوم على الطلبة مهما كانت .

مستوى التعليم : بناء على عدد الطلبة تنقسم الصفوف الى رياض للاطفال ومدارس اولية صغيرة وتوجد ٦ صفوف في المدارس الكبيرة ولكن هذه المدارس تحتاج الى اعادة تنظيم في المناهج واهتمام في ضبط تصرفات الطلاب .

ويتم التدريس باللغة العربية غير ان الانجليزية تدرس في الصف الرابع والصفوف العليا بناء على رغبة اللجنتين ومدة العام الدراسى تسعة شهور وساعات الدوام تمتد من ٨ الى ١٢ صباحا ومن ٢ الى ٤,٣٠ عصرا .. ويرحب الناس بالتعليم لكنهم لا يرحبون بأى تغيير او اصلاح في النظام لذا وجب القيام بالاصلاحات بصورة تدريجية(٢٨) .

وقبل ان نختم تلك النبذة المختصرة عن التعليم في عهد الشيخ عيسى بن علي آل خليفة انقل ملاحظات كتبها السيد حسن ادريس الهندي الذي عاصر الشيخ عبدالله بن عيسى ودوره في تطور التربية والتعليم علاوة على اهتمامه بالخدمات

ثبت لدي ما ذكر في هذه الورقة
وانا عيسى بن علي
آل خليفة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه اجمعين
اما بعد فاقول وانا الفقير الى الله حسن بن عبد الله بن احمد آل خليفة باني قد وقفت
النخل المسمى بسعدنا صرع تابعة الجابور الواقعين بجد الحاج على مدرسة وقت
العصر على يد الشيخ راشد بن عيسى بن خميس هو والصالح من ذريته ثم من بعد ذلك
على الصالح من مذهب مالك وقفا صحيحا شرعيا معتبرا مرعيا مؤبدا دائما
الى ان يرث الله الارض ومن عليها فمن بدله بعدما سمعه فانما اثمه على الذين
يبدلونه ان الله سميع عليم والله بما نقول كفيل وهو حسبنا ونعم الوكيل تاريخ اليوم الرابع
والعشرين من ربيع الثاني سنة [illegible] وله ولذريته نضارة النخل اربع جلامات
شهد بذلك احمد بن عثمان بن جامع

نقلتها من ورقة الاصل حرفا بحرف
وانا عبد الله بن عبد الرحمن المبيور راشد

٢١/٩/١٨٤٢م

الطبية والبلدية والامور القضائية في البحرين وتوليه منصب وزير التربية والتعليم .. وله نفوذ كبير في كافة المجالات والانشطة الاجتماعية الاخرى .. ولقد كان الشيخ عبدالله محافظا على الصلاة يحاول ان يكون منصفا في تصرفاته نحو الجميع دون تفرقة فهو يمد يد المساعدة لكل من استعان به صديقا للفقراء والمساكين ويعتبر مجلسه الثاني بعد مجلس اخيه الشيخ حمد اذ يزوره كبار رجال الأعمال والوجهاء من اهل البحرين كما كان الوكيل السياسي في البحرين حريصا على الاحتفاظ بعلاقات ودية معه وهو يقضي فترة الصيف في لبنان ويحافظ على البرتوكولات الدبلوماسية كما عرف عنه انه من هواة كرة القدم واكله بسيط ولم يدخن ولم يشرب المسكر قط تجده متسما بانشراح الصدر مثقفا في سلوكه هذا ما كتبه شخص خدمه وعاصره من غير اهل بلده لذا لا بد ان نأخذ بشيء من الحذر ما كتبه البعض الاخر من الاجانب عن شخصيته مما يخالف ذلك والانسان قسطاس عقله .

النوادي في عهد الشيخ عيسى بن علي :

لقد كانت النواة الاولى في تأسيس النوادي منذ عهده فقد ساهمت في نشر الثقافة والتعاون الاجتماعي بالاضافة الى النشاط الرياضي فهي تجمع بين رياضة العقل والابدان وتعالج بعض المشاكل متخذة من المناسبات الدينية والوطنية فرصة لتحقيق تلك الغايات .. حتى في المجال السياسي كما ساهمت في جمع التبرعات لاعانة فلسطين وانبرى الخطباء والشعراء على منابر النوادي يشجعون الملأ على التبرع بالمال والدم في سبيل القضايا العربية والاسلامية وفي مقدمتها قضية فلسطين ونشطت جميع النوادي التي تأسست في البحرين منذ أول ناد عرفناه وحتى السنوات الماضية الاخيرة ساهمت في التعليم بجانب المدارس النظامية فقد تنادى اعضاء (النادي الاسلامي) الذي أسسه العالم العامل بعلمه الشيخ محمد بن عبدالعزيز المانع لتأسيس مدرسة كانت أول مدرسة كبيرة في الخليج تنشر العلوم الاسلامية واللغة العربية وذلك في ١٩١٠ ونادي اقبال أوال الذي تأسس ١٩١٣م[٢٩] .. أما النادي الادبي فقد تأسس في ١٩٢٠م وكانت قمة نشاطه بين ١٩٢١م ١٩٢٨[٣٠] .. والمنتدى الاسلامي الذي تأسس ١٩٢٨ في البحرين[٣١] .. وكانت تلحق في جميع النوادي مكتبة كبيرة أو صغيرة تساهم هي الاخرى بصورة غير مباشرة بنشر الثقافة والوعي الفكري بما فيها من كتب ادبية وعلمية وصحف ومجلات لها قراؤها الذين يرتادون المكتبة من اعضاء النادي فيواكبون المسيرة الثقافية في البلدان الاخرى .. وفي مجال الروايات والمسرحيات التمثيلية كان للنوادي قصب السبق في البدايات الاولى للفن المسرحي في البحرين ايام كانت تقام التمثيليات التاريخية والاجتماعية على مسارحها والتي تهدف الى نشر الوعي التاريخي والاجتماعي والصحي بين جموع أفراد المجتمع وبصورة غير مباشرة يجمع ريع تلك الحفلات لتصرفها لكساء اليتامى والمعوزين والفقراء أو لشراء كتب لمكتبة النادي أو لتقديم هدايا للمرضى والفقراء أيام الاعياد والمناسبات .

بسم الله الرحمن الرحيم

وبعد فان شيخنا الأجل وولي نعمتنا المبجل الشيخ عيسى بن علي اطال الله لنا في وجوده
وافاض على المسلمين من بحر جوده لما ان بعض الأخيار نبهه وذكره على افضل الأعمال
والخيرة قام بهمته العربيه ومروته العنبسيه مجيبا داعي مولاه حين سمع نداه من
ذا الذي يقرض الله فوقف وحبس جميع وجملة الأرض الكاينه شرقي دكاكين
سعد بن غانم المستعمله حال التاريخ لبيع السماك على قرائة حديث للخاص والعام
كل يوم ومن بعد الفراغ من قرائة الحديث ثم يشرع المحدث في قرائة العلوم
الشرعيه من فقه ونحو وفرائض وسائر ما يتعلق بذلك من اللوازم بالعلوم
الشرعيه وقد نصب الواقف حفظه مولاه للقيام بهذه الوظيفه الشيخ احمد بن مهزع
واوجب عليه الحضور للقرائة والتدريس على حسب ما هو مذكور كل يوم الا
الجمعه والخميس وان تأخر لمرض او حج او طارئ او تشييع جنازه وان تأخر لغير ذلك
فذمته غير بريه وعليه اذا جلس للقرائه قبل ان يشرع فيها يقرا الفاتحه ويجعل
ثوابها لروح الواقف ووالديه واذا مات الموقوف عليه وهو الشيخ احمد بن مهزع
فالذريته من بعده الصالح منهم والله المسئول ومنه القبول ان يجعل اجر ذلك
للشيخ عيسى بن علي وامه وابيه وان لا يحرم التابعي والقاري والمستمع من فضله
العظيم انه هو البر الكريم فمن بدل هذا الوقف بعد ما سمعه فعليه لعنة الله وإثمه
على الذين يبدلونه وصلى الله على خير خلقه محمد وعلى اله وصحبه وسلم حرر
في ٦ رجب سنة الف وثلاث مائه وثمان بعد الهجرة النبويه سنة ١٣٠٨ هـ

١٦ / فبراير ١٨٩١م

النظم الادارية في عهد الشيخ عيسى بن علي آل خليفة :

يحكم البحرين شيوخ آل خليفة منذ دخولهم ايام أحمد الفاتح ١٧٨٣م/١١٩٧هـ والى الوقت الحاضر ولهم الرئاسة العليا للمؤسسات الادارية التنفيذية والتشريعية وفي عهد الشيخ عيسى بن علي آل خليفة اصبح الحكم الوراثي يستند على أساس عمودي أي بتولي أكبر الأبناء وراثة الحكم وقد أصدر بذلك وثيقة وقع عليها كبار أعيان البحرين وفيها ان نظام الحكم ينتقل من الأب الى أكبر الأبناء وهذا مما ساعد على الاستقرار السياسي في البلاد كما ساعد على تأكيد ذلك موافقة الحكومة البريطانية في عام ١٨٩٨م على تعيين الشيخ حمد وليا للعهد .

وفي عام ١٩١٩م كانت البداية للنظم الادارية الحديثة فقد عين الشيخ عيسى بن علي امراء يمثلونه في مناطق البحرين . ونشأت المجالس البلدية في ١٩١٩ - ١٩٢٠ والتي كانت تقوم بمهام كثير من الشئون الادارية كالأمن والتعليم والصحة والمواصلات والأشغال بالاضافة الى أعمال البلدية التقليدية المعروفة وكان أول رئيس بلدية هو الشيخ عبدالله بن عيسى آل خليفة مع مجلس بلدي مكون من ثمانية اعضاء معينين من قبل الحكومة ثم زيد عددهم الى ٢٤ عضوا وانتخب الأهالي بعضهم وذلك عام ١٩٢٦م وتأسس المكتب الجمركي لادارة الجمارك عام ١٩١٧ وكانت توكل ادارته لبعض التجار نظير أجر يتفق عليه لادارة المكتب : وفي العشرينات تكونت مجالس للتجار وأخرى للري والزراعة ومجالس لفض المنازعات والخلافات ومحكمة لدعاوى الغوص وحساباتها منذ عام ١٨٩٤م إذ كان الاعتماد في الحياة الاقتصادية على صيد اللؤلؤ ففي اوائل العشرينات بلغ وارد البحرين من اللؤلؤ حوالي مليون ونصف المليون جنيه استرليني وكانت أكثر من الفي سفينة تعمل في الغوص حول شواطىء البحرين .

وتكون مجلس شورى من المواطنين كما عقد مؤتمر وطني عام ١٩٢٠ وطالبوا بتشكيل جمعية تشريعية تلتزم بالشريعة الاسلامية كأساس للحكم فأيد الشيخ عيسى بن علي آل خليفة ذلك . وهكذا فقد شهد عام ١٩٢٦بداية تنظيم الجهاز

الاداري والمالي وأصدر الشيخ عيسى بن علي أمرا الى الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة بتاريخ ١٦ ذي القعدة ١٣٤٠هـ وختمه بختمه . كما أبلغه الشيخ حمد للشيخ سلمان أيضا بكتاب مؤرخ في ١ محرم ١٣٤١هـ جاء فيه : أما بعد فنخبرك رسميا ان تترتب في بلدنا المنامة لادارة شئون حكومتنا وتقضي بين رعايانا بمقتضى الحق والانصاف مع محافظتك على المواد الآتية وجريانك عليها وهي :

المادة الأولى : وهي القضية الشرعية وتحال عند الشرع .

المادة الثانية : وهي القضية العرفية وتحال عند العرف .

المادة الثالثة : وهي مسائل الغواصين وتحال عند عرف الغوص (أي السَّالفة) .

المادة الرابعة : أن لا تقبل شفاعة أي أحد في الحقوق والحدود .

سواد خط ترداس المهراجه
م ١٤ ذي حجه سنة ١٣٣٠

بعد سؤال الشريف خاطركم نرجو انكم
طيبين بخير بعد نعرفك انه كما اخبركم
اخوكم نارنداس من طرف الكشاف المهندس
الذي ارسلتوه من مدة تقريب شهر ونصف
على تطليع ماء بوماهر الى البلد المحرق وانما
بتوفيق الله قد عزمنا على تطهير الماء
المذكور فلهذى قد عمدناكم بان يكون
جميع اشغال الآلات التي تحتاجه
لها هذا الشغل الذي هي على نظر المهندس
تاخذونها على اجتهادكم وترسلونها
الى البحرين وتعرفونا عن ذلك كما تعرفون
اخوكم نارنداس ونتقابلكم في قيمة
ذلك لهذى ما لزم ودمتم سالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

من عيسى بن علي آل خليفه الى الجناب الاجل الافخم الولد الشيخ سلمان بن حمد آل خليفه المحترم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته على الدوام اما بعد فنخبرك رسمياً ان تترتب
في بلدتنا المنامه لادارة شؤون حكومتنا وتقضي بين رعايانا معي مما
فضلتك على المواد الآتيه وجريانك عليها

المادة الأولى وهي القضية الشرعية تحال عند الشرع

المادة الثانية وهي العرفية تحال عند العرف

المادة الثالثة هي مسائل الغواصين تحال عند عرف الغوص أي السالفه

المادة الرابعة ان لاتقبل شفاعة أي احد في الحقوق والحدود

المادة الخامسة في المسائل الجنائية يقبض على فاعلها الى وقت المحاكمة

وتنفيذ ما في كل من المواد المذكوره بمقتضى الحكم هذا مالزم والسلام

حرر في ١٦ زى القعده سنة ١٣٤٠

المادة الخامسة : في المسائل الجنائية يقبض على فاعلها الى وقت المحاكمة وتنفيذ ما في كل من المواد المذكورة بمقتضى الحكم .

وفي العام التالي وضعت أنظمة للمحاكم الشرعية وفي ١٩٢٨ تأسست بلدية المحرق وفي العشرينات كانت الطائرات تحط في مياه البحرين عبر المطار البحري الذي يقع في القضيبية حتى عام ١٩٣٢م حيث بديء في تشييد مبنى متواضع للمطار[٣٢] .

الشرطة والأمن في عهد الشيخ عيسى بن علي آل خليفة :

كانت الشرطة في البحرين هم (فداوية) الشيخ مع بعض النواطير لحراسة الأسواق ويرأسهم (أمير السوق) وهم الذين يحفظون الأمن ويحملون السلاح ويتلقون الأوامر من الأمير مباشرة لذا كان الناس يخافونهم ثم تحولوا الى مستخدمين في الحكومة تدفع لهم رواتبهم وخصصت لهم مهام خاصة وكان بعض الشرطة من مسقط ومن بعض الأفارقة والبلوش والأجانب وذلك في بداية العشرينات من القرن الحالي وهؤلاء تحت اشراف البلدية التي تدفع لهم رواتب ولم يقبل الناس على العمل في الشرطة لانشغالهم في الغوص الذي كان له سوق رائجة .

في ١٩٢٦ عين الشيخ حمد بن عيسى بن علي ولي العهد ونائب الحاكم وقتئذ فصيلة من البلوش ثم جمع معهم بعض الأفارقة والعمانيين الذين وفدوا من مسقط مع وجود فداوية الشيخ وقد نقل ديلي أو أنهيت خدماته في البحرين من قبل بريطانيا عام ١٩٢٦م بعد ان جرحه شرطي بلوشي لسلوكه الخشن تجاه الشرطة وموقف ديلي العدائي مع الشيخ عيسى بن علي واثارته الخلافات الطائفية والعنصرية بين أبناء البلد الواحد وعلى اثر جرح ديلي سرحت الفصيلة وأبدل بها شرطة من البنجاب (الهنود) المتقاعدين في الجيش الهندي حتى نهاية عام ١٩٣٢م حيث غادر الشرطة الهنود البحرين وبدأت شرطة بحرينية ذات تدريب وكفاءة عالية وعددهم ١٢٢ مع بعض العرب الفداوية من أصل سعودي ويمني أو افريقي وعددهم ١١٤[٣٣] .

ولاية العهد :

لقد سبق وأن أوصى الشيخ عيسى بن علي لابنه الشيخ سلمان بولاية العهد ١٨٩٠م إلا ان الشيخ سلمان توفى ١٨٩٣م اثناء عودته من الحج وعين الشيخ عيسى ابنه الشيخ حمد حاكما على المحرق في مايو ١٨٩٨م وسبق وان أعلن في اكتوبر ١٨٩٧م بولاية العهد لأنه أكبر ابنائه ووقع على وثيقة ولاية العهد للشيخ حمد عدد كبير من وجهاء البحرين . وفي فبراير ١٨٩٨م طلب الشيخ عيسى بن علي اعتراف بريطانية بولاية العهد لابنه الشيخ حمد فاعترفت بذلك وصودق على تنصيب الشيخ حمد وليا للعهد في نهاية عام ١٨٩٨م. ولدى البحث في الوثائق تم العثور على رسالة مؤرخة في ٢٨ رجب ١٣١٤هـ الموافق ٤ يناير ١٨٩٧م من الشيخ عيسى بن علي الى المقيم في الخليج وفيها ان الشيخ عيسى بن علي طلب أن يكون ابنه الشيخ حمد معاونا ومساعدا له في الأمور التي تنوب الحكومة وذلك لأن فيه الكفاية والسداد على حد قول الشيخ

بسم الله الرحمن الرحيم

(حكومة البحرين)

GOVERNMENT OF BAHRAIN
مركز للحكومة
SECRETARIAT

نمرة ١٠٢٧/٤٥
١٣٤٥

من حمد بن عيسى آل خليفة

الى جناب الاجل الاكرم ... الفاضل حضرة الشيخ عبد اللطيف بن جودر المحترم

بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته على الدوام ـــ
نعرف جنابكم بنسبة التفاوضه معكم عن امر الشرع الشريف
اننا قد عينا جنابكم وحضرة الشيخ عبد اللطيف بن الشيخ محمود
وحضرة الشيخ عبد اللطيف بن الشيخ محمد بن سعد ابتداءً من اول
شهر ذي الحجة ١٣٤٥ ونؤمل من حضراتكم ان تباشرون الحضور
في محكمة الشرعي التي سيعين لكم محلها في المحرق وفي المنامة
وتحكمون في القضايا الشرعيه في جميع المتقدمات اللتي
تصدر اليكم من بيت الدوله ومحكمة البحرين - ويكون -
الحضور في كل اسبوع اربعة ايام يومين في المحرق ويومين
في المنامة ولاجل تشتغلكم بهذه الوظيفة الشريفه
جعلنا ... لكل واحد من حضراتكم مائة روبية شهريًا في كل
اول شهر تقبضونها من خزينة محبكم - ونرجوا الله ان يوفقكم
لصالح الاعمال ودمتم محروسين تحريرا ٢١ ذي القعدة ١٣٤٥

مهر حمد بن عيسى آل خليفة

صحيح خليفة بن محمد آل خليفة

صحيح ... بن علي آل خليفة بيده

اقول وانا عيسى بن علي آل خليفة بأني قد اخترت ولدي حمد بن عيسى وجعلته ولي العهد من بعدي على الرعية لعلمي بصلاحه وحسن سيرته ولطلب الرعية مني ما ذكر المرة بعد المرة ورأيت ذلك صلاحا لما فيه من براءة الذمة لكونه من المصالح العامة وهو من الخصال المهمة وعليه بتقوى الله في السر والعلن والقيام بحقوق الله وحقوق العباد والتأني في الامور المهمة واقامة الحدود وانصاف المظلوم من الظالم وان لا يأخذه في الله لومة لائم وان لا يستغني عن المشاورة وان يقبل النصيحة وعليه بالعدل والاحسان الخاص والعام وان يكون مع الحق اينما دار ولو على نفسه وولده وان ينتصب لله ... واسأل الله الكريم المولى الرحيم ان يتولاه بحفظه وعنايته وحسن رعايته وان يوفقه ويساعده ويعينه على ما ذكر بمنه وكرمه ويصرف عنه شر الحاسدين انه على ما يشاء قدير وبالاجابة جدير وهو القوي المتين ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم وهو حسبنا ونعم الوكيل والله على ذلك شاهد وكفيل حرر في شهر جمادى الاولى سنة ١٣١١

/اكتوبر ٨٩٦

عيسى في رسالته التي بعثها الى المقيم في الخليج (كرنل ويلسن) وقد أرفق محمد رحيم عبدالنبي صفر كاتب في المعتمدية بالبحرين الرسالة التي ارسلها الشيخ عيسى بن علي وارسلها الى المقيم في الخليج وفيها ان الشيخ عيسى بن علي يريد أن يجعل ابنه الشيخ حمد من بعده وليا للعهد[٣٤] ومن هنا فإن ما أورده (لوريمر) غير صحيح حين ذكر بأن الشيخ عيسى بن علي طلب اعتراف بريطانية بولاية العهد لابنه الشيخ حمد في فبراير ١٨٩٨م أي بعد اكثر من سنة من رسالة الشيخ عيسى بن علي المرفقة صورتها .

وورد في التقارير الادارية الخليجية : على لسان المقيم في الخليج ان الشيخ عيسى بن علي آل خليفة عين ابنه الشيخ حمد محافظا للمحرق في شهر مايو ١٨٩٧م ويستطرد المقيم بقوله : واثناء زيارتي للبحرين أعرب الشيخ عيسى عن أمله ان الحكومة البريطانية تعترف رسميا بولاية العهد للشيخ حمد وخلفا له عقب وفاته . وفي تقرير أخر للمقيم كتبه في عام ١٩٠٠م ان صحة الشيخ عيسى لم تكن مرضية في هذا العام واعترفت الحكومة البريطانية بناء على طلب منه بالشيخ حمد وريثا له ووليا لعهده فأعرب الشيخ عيسى عن ارتياحه باعتراف الحكومة البريطانية بخلفه وكان الاعلان الرسمي عن ذلك موضع افراح في البحرين . وهنا نجد ان ذلك لا يستقيم مع ما ورد في الوثيقة المؤرخة في جمادى الأولى ١٣١٤هـ الموافق في اكتوبر ١٨٩٦م والمرفقة صورتها لانها تسبق تقرير المقيم المذكور ببضعة اشهر وان الاعلان بالاعتراف الرسمي كان في عام ١٩٠٠م الموافق في ١٣١٨هـ أي بعد تاريخ الوثيقة بنحو أربع سنين . وهنا وضع الشيخ عيسى بن علي آل خليفة اساسا لنظام الحكم حسب (التسلسل العمودي) فقد أصبحت ولاية العهد لأكبر الابناء سنا واستمر ذلك الأساس الذي أدى الى الاستقرار في انتقال الحكم دون منازع وتخلصت البحرين من النظام السابق لولاية العهد والذي كان يتبع فيه (التسلسل الأفقي) في انتقال الحكم من الحاكم الى أخيه أو عمه . هذا النظام قاست منه البلاد كثيرا من المشاكل وأدى الى الانقسام والخلافات الأسرية . كان ذلك قبل عهد الشيخ عيسى بن علي وانتهت تلك الخلافات الى حيث لا رجعة .

وفـــاته :

توفى الشيخ عيسى بن علي آل خليفة وهو راكع يصلي صلاة الفجر في اليوم العاشر من شعبان ١٣٥١هـ الموافق التاسع من ديسمبر ١٩٣٢م وله من العمر ٩٧ سنة قمرية أو ٩٤ سنة شمسية رحمه الله وأسكنه فسيح جناته وقد رثاه كثير من الشعراء وقال أحدهم :

مـوت النبيـين والابـرار ميتتـه
في ركعة الفجر منه الروح ترتفع

وخلف ابناءه الخمسة الذين رباهم تربية عربية اسلامية وهم : (الشيخ سلمان والشيخ حمد والشيخ راشد والشيخ محمد والشيخ عبدالله) فأما الشيـخ سلمـان فتـوفى عـام ١٣١١هـ/١٨٩٣م بعد عودته من اداء فريضة الحج . والشيخ راشد كانت وفاته في رمضـان ١٣٢٠هـ الموافق ١٩٠٢م . وتوفى الشيخ حمد ولي عهده ونائبه في الحكم والذي اصبح حاكما اثر

بسم الله الرحمن الرحيم

مملكة الحجاز ونجد وملحقاتها

عدد
٧٤٣

من عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل الى حضرة الاجل الامجد الاخ المكرم الشيخ محمد بن عيسى آل خليفة حفظه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته مع السؤال عنكم دمتم بخير ونحن من فضل الله بأتم الصحة والعافية . وبعد فقد تقدم منا لكم برقية تعزية بوفاة والد الجميع رحمه الله ولا شك ان فقده لم يكن فقيدة علينا فقط بل فقيدة على العرب اجمعين ولكن لا يسعنا في هذا الموقف الا الصبر والتسليم لما دبره وقضاه العزيز الحكيم نسأل الله ان يتغمد الفقيد برحمته وان يسكنه فسيح جنته وان لا يريكم مكروها بعد ذلك . هذا ما لزم بيانه وشرفونا بما يلزم وسلموا لنا على حضرة اخ الجميع الشيخ حمد والاخوان والاولاد ومن عندنا الاخوان والاولاد يسلمون والله يحفظكم والسلام حرر في ١٥ شعبان ١٣[illegible]

وفاة والده فكانت وفاته ١٣٦١هـ/١٩٤٢م . أما الشيخ محمد فتوفى ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م ووفاة الشيخ عبدالله في ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م .

من الوفيات في عهد الشيخ عيسى بن علي آل خليفة :

١ - توفي الشيخ أحمد بن علي بن خليفة الخليفة في صفر ١٢٠٥هـ .

٢ - توفي ابراهيم بن يوسف الطيور في دارين في صفر ١٣٠٥ هـ .
وتوفي الشيخ عبدالوهاب بن سلمان بن أحمد آل خليفة في عام ١٣٠٦ هـ .

٣ - توفي محمد بن حسن بن خاطر ١٣٠٧هـ .

٤ - توفي محمد بن خليفة بن سلمان آل خليفة ١٣٠٧هـ .

٥ - توفي الشيخ سلمان بن عيسى الخليفة في درب نجد بعد الحج في محرم ١٣١١هـ .

٦ - توفي علي بن عيسى البنعلي في فارس ١٣١٢هـ .

٧ - توفي سلطان بن محمد البنعلي آل سلامة في رأس تنورة ١٣١٣هـ .

٨ - توفي علي بن أحمد بن علي الخليفة ١٣٢٩هـ .

٩ - توفي سلمان بن دعيج الخليفة في ١٣١٨هـ في الظهران .

١٠- توفي راشد بن عيسى الخليفة في ٢٠ رمضان ١٣٢٠هـ .

١١- توفي خليفة بن عبداللطيف في مربس ١١ جمادي الأولى ١٣٢١هـ .

١٢- توفي الشيخ خالد بن علي بن خليفة آل خليفة في ١٩٢٥م الموافق ١٣٤٥هـ .

١٣- توفي صقر بن محمد الخليفة ١٣٥٠هـ .

١٤- توفي أحمد بن عبدالله بن أحمد الخليفة ١٣٥٠هـ .

١٥- توفي عبدالله بن أحمد بن الغتم في قطر في ذي الحجة ١٣٥١هـ .

١٦- توفي الشيخ عيسى بن علي الخليفة في ١٠ شعبان يوم الجمعة ١٣٥١هـ .

١٧- توفي راشد بن محمد بن عيسى بن علي الخليفة في ١٨ جمادى الآخرة ١٣٥١هـ .

١٨- توفي خليفة بن عبدالرحمن بن عبدالوهاب بن سلمان الخليفة في ١ ذو الحجة ١٣٥١هـ .

١٩- توفي عبدالرحمن بن عبدالوهاب بن سلمان الخليفة ٢٩ محرم ١٣٥٢هـ .

٢٠- توفي ابراهيم بن محمد الخليفة في ٢٠ صفر ١٣٥٢هـ .

٢١- توفي ابراهيم بن خالد بن علي في ٦ ربيع أول ١٣٥٢هـ .
ولد محمد بن خليفة بن عبداللطيف في مربس في ٧ رجب ١٢٨٧هـ .

المعاصرون للشيخ عيسى بن علي آل خليفة من آل سعود :

سعود بن فيصل بن تركي (ت : ١٨٧٥م)
عبدالله بن فيصل بن تركي (ت : ١٨٨٩م)
عبدالرحمن بن فيصل بن تركي (ت : ١٩٢٨م)

عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن فيصل (ت : ١٩٥٣م)

المعاصرون للشيخ عيسى بن علي آل خليفة من حكام آل علي وهي الأسرة الحاكمة في أم القيوين .

علي بن عبدالله بن راشد بن ماجد (ت : ١٨٧٣م)

أحمد بن عبدالله بن راشد (ت : ١٩٠٤م)

راشد بن حميد حكم منذ ١٩٠١م

المعاصرون للشيخ عيسى بن علي آل خليفة من أسرة آل ثاني

ثاني.....

محمد : كان شيخا على الدوحة وقد تنازل لمصلحة ابنه جاسم ١٨٧٦ وتوفي في سن متقدمة ١٨٧٨ .

قاسم : عينه الأتراك قائمقام على قطر وخلف والده على مشيخة الدوحة ١٨٧٦ واعتزل في قرية (الوسيل) حوالي ١٩٠٠ تاركا مسئولية القائمقامية لأخيه أحمد ومحتفظا لنفسه بالمشيخة وعمره الحالي فوق الثمانين (لوريمر ١٩٠٧ تاريخ انجاز الجدول) .

أحمد : ولد ١٨٥٣ عين حاكما للدوحة تحت امرة أخيه جاسم . قتله أحد الخدم من بنى هاجر ١٩٠٥م .

عبدالله بن قاسم : ولد ١٨٧٦هـ عين حاكما على الدوحة تحت امرة والده سنة ١٩٠٦م .

علي : ولد ١٨٩٤م .

حمد : ولد ١٨٩٦م .

المعاصرون للشيخ عيسى بن علي آل خليفة من البوفلاح من بني ياس الأسرة الحاكمة في ابوظبي :

زايد بن خليفة : حكم منذ ١٨٥٥م

سلطان بن زايد : ولد ١٨٨١م .

شخبوط بن سلطان بن زايد : ولد ١٩٠٢ .

طحنون بن زايد بن خليفة : ولد ١٨٥٧م .

الهوامش

(١) التحفه النبهانية ص ٢٣٦ و ٢٣٧ .

(٢) وارخ الشاعر مقتل الشيخ علي بن خليفة ال خليفة ببيت من الشعر وفيه يوم قتله والشهر والسنة فقال :

عصريـة الاثنـين واحـد وعشريـن
بـاول جمـاد ست فـوق الثمـانـين

(٣) لوريمر . دليل الخليج / جـ ٣/ ص ١٣٥٣ ـ ١٣٥٥ القسم التاريخي .

(٤) ار/١٥/١٨٦/ص ١٦٣/١٨٨٢م تقرير كتبه (حكيم وبوربوث) وانظر لوريمر . دليل الخليج ٣/ص ١٢٥٥/ والنبهاني . التحفه النبهانية . ص ١٩٩ ط ٢ .

(٥) ار/١٥/١/١٨٦/ص ١٤٣/ من تقرير كتبه معاصره في عام ١٨٨٢م كل من حكيم وبوربوت/ وفي مذكرات راشد البنعلي ص ٢٩ ان ابن مجلي سبح بعيسى بن علي بعد معركة الوكره ١٢٨٤هـ .

(٦) النبهاني . التحفه النبهانية . ص ٢٣٥/ار/١٥/٢/٥٤٧ .

(٧) ار/١٥/١/١٨٦/ص ١٥١/١٨٨٢م حكيم وبوربوت . وانظر مجلة العرب . ج ٩، ١٠/السنة ٨/الربيعان ١٣٩٤/ص ٦٦٧/ مجلة العرب للاستاذ حمد الجاسر ج ٩/س ٨/ص ٦٦٧/ ربيع ١٣٩٤هـ مقالة ليوسف بن راشد ال مبارك .

(٨) ار/١٥/١/١٨٦/١٨٨٢م/١٨٦ حكيم وبوربوت وانظر الوثيقـة رقم ار/١٥/٢/٥٤٧ .

(٩) الصديقي . محمد بن علان الحظر والتحريم . مخطوطه في متحف البحرين الوطني . وانظر مجلة البحرين .

(١٠) وقد اهدى ابناؤه مخطوطاته الى دار المخطوطات في المتحف الوطني . وانظر فهرس مخطوطات البحرين الجزء الاول للدكتور على ابا حسين وصفا لمخطوطات الشيخ محمد بن سعد .

(١١) ار/١٥/١/١٨٦/ ص ١٧١/ من تقرير كتبه حكيم وبوربوت . والتحفه النبهانية ص ٢٣٧ ـ ٢٣٩ .

(١٢) ار/١٥/١/١٨٦/ص ١٥٥/ ١٨٨٢م من تقرير كتبه حكيم وبوربوت . ومن

ابناء سعد بن عامر الهزاني (راشد وعبدالرحمن وزيد ومحمد وأحمد ويعقوب ويوسف) . وانظر التقرير الاداري لعام ١٩١٦م و١٩٣١م .

(١٣) ار/١٥/١/١٨٦/ ص ١٨٧/ ١٨٨٢م (حكيم وبوربوت) .

(١٤) التحفه النبهانية ص ١٦٩ - ١٧٣ والمقدمة للطبعة الاولى ١٣٣٢هـ والطبعة الثانية ١٣٤٢هـ عمر عبدالجبار . دروس من ماضى التعليم وحاضره في المسجد الحرام ص ٢٥٢/ طبع مصر ١٣٧٩هـ .

(١٥) انظر صورة الوقفية مرفقة ومؤرخة في ٢٤ ربيع ثاني ١٢٤٨هـ الموافق ٢١ سبتمبر ١٨٣٢م وصورة الوقفية للمدرسة الاخرى مرفقة ومؤرخة في ٦ رجب ١٣٠٨/الموافق في ١٦ فبراير ١٨٩١م .

(١٦) امين الريحاني . ملوك العرب جـ ١/ص ٢٠٨ - ٢١٤ .

(١٧) مجلة العمران ص ٣٣٩و ٣٤٠ .

(١٨) الشيخ عبدالله بن خالد الخليفة ، اضواء على نشاة وتطور الخدمات الصحية بالبحرين . ص ٧٩ - ١٠٥ الكتاب السنوى الثالث .

(١٩) رسالة من الملك عبدالعزيز الى قنصل بريطانية بالبحرين مؤرخة في ٤ رمضان ١٣٣٥هـ ٢٤ يونيو ١٩١٧م .

(٢٠) رسالة من الملك عبدالعزيز الى قنصل بريطانية بالبحرين رقم ار/١٥/٢/٤٧ في ٣ ربيع الثاني ١٣٣٨هـ .

(٢١) رسالة من البالبوز بالبحرين الى الشيخ عبدالله آل ثاني مؤرخة في ٢ اغسطس ١٩٣١/ ١٨ ربيع اول ١٣٥٠هـ . وجواب شكر في ٢٩ ربيع اول ١٣٥٠هـ .

(٢٢) من الشيخ قاسم آل ثاني رسالة في ١٨ جمادى الاولى ١٣٥٠هـ وجواب الشكر في ٦ اكتوبر ١٩٣١م/ ٢٥ جمادى الاولى ١٣٥٠هـ والتقرير الادارى لعام ١٩١٨و ١٩٣١م .

(٢٣) وثيقة خطية مؤرخة في ٦ رجب ١٣٠٨هـ/١٦ فبراير ١٨٩١م/ انظر هامش ١٥ من هذا البحث .

(٢٤) انظر صورة لمدرسة البنات التى تاسست ١٩٠٥م في البحرين في مجلة الوثيقة العدد ١٤ ص ١٢ .

(٢٥) البحرين بين الاستقلال السياسي والانطلاق الدولى ص ١٢٠و١٢١ .

(٢٦) البحرين حضارة وتاريخ ص ١١٣ .

(٢٧) التقرير الادارى الخليجي لعام ١٩٢٤ - ١٩٣١م المجلد الاول ص ١٠٩ - ١٤٢ .

(٢٨) التقارير الادارية الخليجية للاعوام من ١٩٢٤ - ١٩٣٢م .

(٢٩) مبارك الخاطر عن الشيخ بن المهزع والكتابات الحديثه لمثقفى البحرين .

(٣٠) ديوان الشيخ محمد بن عيسى بن علي آل خليفة . وقد امدنا الشيخ محمد صالح خنجي بالتاريخ المضبوط لتاسيسه ثم الاستاذ يوسف الشيراوى الذى املى على مبارك الخاطر .

(٣١) احمد حسن ابراهيم العطار عضو النادى وسكرتيره عبدالرحمن فخري انظر مجلة الكويت السنة الاولى عبدالعزيز الرشيد الذى كتب عن النادى وصدرت المجلة لسنتين فقط .

(٣٢) د . امل الزياني : البحرين بين الاستقلال السياسى والانطلاق الدولى ص ١٠٧ ـ ١٠٩ ط ٢ ١٩٧٧م القاهرة ولوريمر ٩٦٢/٣/ والبحرين حضارة وتاريخ ص ٥٣ و ٨١و١٠١ و١٥٩ ودليل الخليج/١٣٩٥/٣ .

(٣٣) التقرير السنوى لعام ١٣٦٥هـ ١٩٤٦م والبحرين حضارة وتاريخ ص ٢٢٣ .

(٣٤) لوريمر ١٣٩٥/٣/ وبدول . (البحرين في الحرب العالمية الثانية) ص ٢٠ وانظر الوثيقة المؤرخة في ٢٥ جمادى الاخرة ١٣١١هـ الموافق في ١١ يوليو ١٨٩٣م برقم ٧٨ من الارشيف العثماني . وانظر وثيقة عثمانية برقم ١١٤/ع سياسية مؤرخة في ١٦ محرم ١٣١١هـ الموافق ١/يوليو ١٨٩٣م وأر/٣١٥/١/١٥ الى كرنل ويلسن في ٤ يناير ١٨٩٧م والتقرير الادارى لعام ١٨٩٩م رقم ٧٦/٢٣ وانظر مجلة الوثيقة العدد ٨/ص ١٠٢ .

(٣٥) لوريمر . دليل الخليج (القسم التاريخى) الجزء ٣ .



عرب الصحراء

٢

بدأنا في العدد الماضي نشر الجزء الأول من كتاب عرب الصحراء تأليف الكاتب هارولد ديكسون وترجمة الاديب حمد السعيدان وهي الترجمة التي تنشر لأول مرة باللغة العربية ، وتأتي اهمية الكتاب في أنه رصد دقيق وكامل لحياة البادية العربية بقلم كاتب عاش سنوات طويلة في قلب هذه البادية ، وحرص خلال معايشته للناس وللاحداث ان يسجل كل مايراه بدقه متناهية ، وننشر في هذا العدد الجزء الثاني من هذا الكتاب آملين ان نواصل في الاعداد القادمة نشر بقية الاجزاء لما لها من فائدة كبيرة للباحثين في شئون البادية العربية .

الوثيقة

تأليف : هارولد ديكسون   ترجمة : حمد السعيدان



قبائل الكويت ونجد

(العرب) : موضوع هذا الكتاب الذين بدأت بتصوير انماط حياتهم في الجزء السابق هم البدو (عرب الصحراء) . الا ان الجدير بالذكر ان ليس كل عربي يشارك هؤلاء البدو حياة الترحال . ويقسم العرب انفسهم الى مجموعتين رئيسيتين : الحضر ، وهم الذين يعيشون في بيوت مستديمة من الطين او الحجر في القرى أو المدن .. والبدو ، وهم الذين يعيشون في الخيام في الصحراء ، ومن كلمة (بادية) والتي تعنى (الصحراء التي يسكنها البدو الرحل) اشتقت كلمة (بدوي) ، ولكن هذه التسمية لا يستعملها ولا يفهمها سكان الصحراء الذين يصنفون انفسهم (عرب) . وهناك مجموعة تأتي في الوسط بين المجموعتين السابقتين ويجب عدم الخلط بينها وبين البدو الاقحاح وهم (عريب دار) الذين يعيشون في خيام سوداء على حدود الصحراء الكبرى . يخيمون بصورة شبه دائمة على مقربة من المدن ، وفي الشتاء والربيع ينتقلون الى داخل الصحراء على بعد يتراوح ما بين ثمانين ومئة ميل من بيوتهم ، وللبعض منهم ممتلكات صغيرة يرتبطون بها .

ويمكن اطلاق تسمية (بدو) على هؤلاء (العريب دار) اثناء مراحل انتقالهم الى حياة اكثر استقرارا . ولبعضهم صلات قرابة مع بدو القبائل الاقحاح ويتزوجون باستمرار من أبناء عمومتهم في الصحراء ، وتتمثل ثروتهم بصورة رئيسية بقطعان الغنم التي عادة ما يملكون منها اكثر مما يملكونه من الجمال ، وهم محبون للسلام اذا لم يتعرضوا لعدوان ، عموما (عريب دار) محاربون اكفاء اذا استدعتهم الحاجة للدفاع عن شيخهم أو مدينتهم ، وينظر البدو اليهم نظرة اعتبار خاصة اذا كانوا من أصل عريق ولكن يعتبرونهم شبه مدنيين ، ويلعب العريب دار دور سماسرة بارعين في المبادلات التجارية التي تتعلق بالغنم والجمال ويفخرون دائما بأنهم مضيفون لاخوانهم البدو الذين يزورون المدينة .

وهناك قاطن آخر للصحراء ولا يجوز الخلط بينه وبين البدو الاقحاح أو أبناء عمومتهم العريب دار ، وهو راعي قبائل الصحراء ومهمته رعي غنم سكان المدن او غنم شيوخ القبائل الاثرياء ، ولما كانت الغنم ترعى في نطاق اضيق بكثير من تلك المناطق الواسعة التي تجول فيها جمال القبائل فقد برزت طبقة من الرعيان يتحركون في مناطقهم ولكنهم يرتبطون بالقبائل الرحل من اصحاب الجمال أو يشكلون جزءا منهم ، أو يمتلكون قطعانهم الخاصة ويجوبون بها مناطق مختلف القبائل في الصحراء الخارجية ، ويندرج رعيان القبائل هؤلاء تحت اسم الشواوى (مفرده شاوى) .

وتجدر الاشارة في هذا المضمار الى رعيان قبيلة العوازم ، ويرعى هؤلاء الى جانب قطعانهم من الغنم قطعان اخوانهم من جمال القبائل أو قطعان كل من يعهد اليهم بقطعانه ، ويعرفون بكفاءتهم وامانتهم ، ويذهبون الى الكويت فيؤجرهم سكان المدن الذين يملكون قطعانا ، فيأخذون هذه القطعان مسافات كبيرة ويرعونها مع قطعانهم على بعد مئة ميل جنوب الكويت حيث يتوفر الماء في الصيف ، ولأنهم أمناء الى اقصى حد يعتبرون مسئوليتهم عن كل حيوان يعهد به اليهم جزءا من الفخر القبلي .

والبدو الرحل لا يربون سوى الجمال ويجوبون بها ، لمدة تسعة شهور من السنة ، داخل اقاصي الصحراء بعيدا عن الحضارة والمدن حيث تتوفر افضل المراعي بعد ان يهطل المطر في الشتاء ، وهؤلاء البدو الاصليون لا يتزوجون الا من قبائل مثلهم ، من هذه القبائل ، عنزة وشمر وحرب ومطير والعجمان والظفير ومره وقحطان وعتيبة والدواسر وسبيع والحويطات وبنى تميم . وتنتسب العائلات الحاكمة في السعودية والكويت والبحرين الى عنزة ويعتبرون أنفسم ارستقراطي الصحراء ، وتشكل بعض القبائل الاخرى مجموعات كبيرة هامة ، وتمتلك العوازم - على سبيل المثال - مئة ألف جمل ومئتين وخمسين الف رأس غنم .

والقبيلة البدوية وحدة مترابطة الذرية ، ومن أهم صلات القرابة (العم) . ويعرف ابناء القبيلة او قسم منها ممن ينتسبون الى جد مشترك بأبناء العمومة ، بعض القبائل اكثر تشددا من غيرها في تفسير هذه العلاقة ، ومن هؤلاء مطير والعجمان الذين يحفظون نسبهم الى الجد السابع ، اما ماقبل ذلك فيعتريه الغموض . وتتشابك في هذه الحالة فروع وأقسام القبيلة ضمن عائلة صغيرة او كبيرة وفي النهاية تدعى جميع فروع القبيلة صلة بعضها ببعض عن طريق



الملك عبدالعزيز
آل عبدالرحمن
آل فيصل آل سعود

سلالتها من جد بعيد يعود اليه اسم القبيلة .

يعتمد رجل القبيلة في ازماته على ابناء عمومته الذين يهبون لنجدته وعليهم ان يشدوا ازره بغض النظر عن اي اعتبارات ، وتتعدى ـ في بعض الاحيان ـ صلة ابناء العم نطاق القبيلة الواحدة لتشكل الاساس لعلاقة نسب او قرابة بين قبيلتين متباعدتين ، ومثال ذلك قبائل مطير والعجمان اللتان كانتا على عداء مستديم تغيران بعضهما على البعض ، ولكن اذا تعرضت أي منهما الى عداء خارجي وضع العداء بينهما جانبا واتحدت القبيلتان في مواجهة العدوان ، ويرجع السبب في ذلك الى سلالتهما من جد مشترك وهو (يام) وبهذا اصبحتا أبناء عمومة ، وتعتمد العائلات المالكة ـ ابن سعود (المملكة العربية السعودية)

والصبــاح (الكـويــت) وآل خليفـة (البحرين) بعضهـا عـلى البعض في مـواجهـة الصعوبات كونهم أبناء عمومة من عنزة وينتمـون الى جـد مشتـرك ، هـذه الملاحظات تنطبق على صلات القرابة من جانب الذكر فقط ، وتعرف صلات القرابة من جانب الام بـ(الخوال) وبالطبع لهم أهمية ولكن ليس عليهم تلك الالتزامات كما لبني العم .

ويلتزم أبناء العمومة بقضايا تعتبر مقدسة ، فمثلا على رجل القبيلة ان لا يسرق أبناء قبيلته حتى ولو كان لصا والا يهاجم ابن عمه عند الفجر او يغزوه بعد منتصف الليل حتى ولو كانا على حرب ، لأن ذلك من افعال العار . وقد طرد فلاح بن خضير من قبيلته مطير ومنع من التخييم او الاقامة في ارضها بسبب خرقه لهذا العرف ، وابن خضير من اثرياء الكويت البارزين يملك عددا كبيرا من الجمال والأغنام ، ومع انه لا يمت بصلة لأي عائلة من الشيوخ الا ان ثروته قد حققت له مكاسب هامة ونظر اليه الجميع بعين الاحترام ابتداء من شيخ الكويت فما دون . كان في الصيف يبحر بأحد قواربه الكبيرة للبحث عن اللؤلؤ ويعيش بقية السنة مع اخوانه من مطير في الصحراء يتجول معهم في مناطق الصمان والقرعة والدبدبة .

لفلاح ولد وسيم عمره واحد وعشرون عاما تشاجر مع والده بسبب رغبة الاخير تزويجه من فتاة لا يرغب فيها ، وتكرر الشجار وتبادل الاثنان كلاما جارحا ، وعندها قرر الابن ـ بدافع اليأس ـ ترك والديه وبيته والفرار الى العراق . وهكذا استعد للأمر بحيطة ، وبينما كانت مطير تخيم في الدبدبة تسلل راكبا احسن جمال أبيه ومن خلفه ابل والده ايضا ، كما اخذ بندقيته وجفته* وحفنة من التمر وقربة ماء صغيرة . أمامه اربعون ميلا فقط ويصبح في مأمن على الحدود .

عند الفجر اكتشف ابن خضير هروب ابنه فامتطى جملا آخر واخذ يجرى بأقصى سرعة بين خيام مطير ويصرخ مدعيا ان خادمه من عنزة قد سرق جمله وابله وبندقيته في الليل وهرب بها «الحقوه .. يا أهـلي . ما زال هنـاك وقت» . وفي غضون عشر دقائق كان كل مطيري يملك جملا أو ناقة فوق سرجها في صرخة واحدة خلف الصبي . طبعا ، لو قال ابن خضير ان الذي سرقه هو ابنه لما حرك احد ساكنا ولكن عندما يكون المعتدي من قبيلة عنزة التي يناصبونها العداء القديم فتلك قضية أخرى . كانت أثار اقدام الابل التي اخذها الصبي بارزة لذلك كان من السهل ملاحقته بأقصى سرعة ، وبعد ساعتـين رأى المطاردون طريدتهم في الافق فانقضوا خلفه بسرعة لا يعيقهم عائق . ولما دنا المطاردون اكثر فأكثر قفز الهارب من جمله ، ولكن أين المفر .. فالمنتقمون مطبقون عليه ، والكل يعرف مصير السارق في الصحراء . فالضرب لا شيء مقابل وصمة بالعار وتصنيفه باللص ذلك اثم سيظل يدفع ثمنه طوال حياته . رأى الولد المذعور جموع المنتقمين فرفع يديه وقفز عن جمله الى الارض مواريا وجهه في التراب ، انقض البدو عليه وأخذوا يلكزونه في ظهره بخناجرهم لكي يظهر وجهه فيقطعون انف هذا (السارق العنزي) وأخيرا بعدما اشبعوه ضربا وتجريحا امره الشيخ محمد الوطبان من الدويش بالوقوف . فما ان وقف الصبي حتى عرفه الشيخ المطيري بلمحة بصر

ليس فقط كابن صديقه وانما ماهو اسوا من ذلك بكثير ، ابن قبيلته . لم يكن مسموحا في عرف الصحراء الصاق تهمة السرقة بابن أخذ من ممتلكات ابيه ، وكمن اصابته فجيعة زجر قومه بالكف عن إيذاء الصبي واستدار الى ابن خضير - الذي كان صديقه الى ما قبل تلك اللحظة - يريد ذبحه ولكنه لم يفعل مخافة شيخ الكويت كما اخبرني . وقد علمت فيما بعد ان أنف الصبي لم يقطع بكامله وانما رأسه فقط ، الا ان وجهه وجسده كانا مهشمين . وقد سمعت فيما بعد انه رفع قضية ضد والده الذي ادانته المحكمة فقط لادعائه بأن ولده من عنزة ، واعتقد بأنهما قد تصالحا فيما بعد .

وتحمل علاقة أبناء العمومة ما يسمى (ديه) وهو المال الذي يدفع تعويضا عن جرح أو قتل انسان . ويطبق قانون القرآن الكريم (العين بالعين والسن بالسن) في جميع انحاء الجزيرة العربية مع بعض التساهلات الطفيفة التي تلائم الظروف المحلية . فالقاتل مع سبق الاصرار يقتل ، وخلق العاهات لفاعلها مثلها . وقد يقبل أهل القتيل أو الجريح أو المشوه تعويضا ماليا يدفعه المعتدي حسب الشريعة الاسلامية . اما اذا ثبت ان القتل كان بالخطأ ففي هذه الحالة يتفق الطرفان على ان يدفع القاتل مبلغا من المال عن طريق وسيط من محكمة الشريعة أو عن طريق الأمير الحاكم أو الشيخ حسب ما تقتضيه الحال . والثمن المتعارف عليه عن القتل بين ابناء العمومة هو خمسون جملا ورجلا وبندقية ، ويختلف الثمن ان كان القاتل غريبا . اما اذا كان المقتول شيخا فلا يفصل في القضية غير الثأر .

ومثال على قانون التعويضات ما أقرته شركة نفط محلية كقاعدة للمصالحة وهو ان تدفع الشركة لأي عامل أو لذويه في حالة وفاته أو اصابته اثناء العمل تعويضا كاملا قيمته ثلاثة آلاف روبية عن القتل او الاصابة بالجنون أو فقد اليدين أو الرجلين . ونصف تعويض عن فقد يد أو رجل أو عين أو خصية واحدة ، وربع تعويض عن فقد جزئي للاذنين ، وثمن تعويض عن فقد كلي لأذن .. الخ . وتقل قيمة التعويض بين البدو لأن البدوي لا يتسنى له جمع المبلغ الذي قد تسنه الشريعة .

ويسمى المال الذي يدفع تسوية لقتل أو اصابة شخص بين قبائل العراق (الفصل) ويصحب ذلك الفصل مبلغ من المال يسمى الحشم (اكرامية) إذا كان الجرم خرقا لشرف القبيلة . ففي عام ١٩١٦م ، تعرضت اثناء عودتي من حفلة زفاف الى كمين عند سوق الشيوخ في العراق مع انني اتخذت احتياطاتي بالسفر مع مرافق لضمان سلامتي . وقد اقر لي شيخ القبيلة المسئولة عن سلامتي مبلغ خمسمائة روبية كفصل مقابل الدم الذي نزفته واربعمائة روبية اخرى اكرامية لأنني جرحت وانا في حماية رجل من القبيلة التي ضربتني .

ويقوم على راس القبيلة وفروعها شيخها . وينصب الشيخ من أسرة حاكمة بالوراثة . ويجب ان يكون الشيخ من أسرة محددة ، فبعد وفاة الشيخ يجرى استفتاء أو انتخاب لاختيار أحسن افراد العائلة الحاكمة لمشيخة القبيلة والذي يجب ان تتوفر لديه الخبرة الضرورية والمؤهلات الجسدية والعقلية والقيادية وخاصة الشجاعة والحظ الحسن . ويؤمن البدو بأن الشجاعة

والقيادة عديمة القيمة بدون الحظ ، لان الحظ الحسن هو الذي يحمي المشيخة . وترغب القبائل في شيخ حاكم يكون محظوظا في السلم والحرب . ويعزو ابن سعود - ملك المملكة العربية السعودية - عظمته الى حظه الكبير وهذا ما تؤمن به كل قبائل الجزيرة العربية (مع حنكته)

صلاحيات الشيخ محدودة في بعض المجالات ولا يمكنه حتى في وقت الحرب ان يصدر الاوامر الى مختلف فروع القبيلة ويتوقع منهم الطاعة ، وعليه ان يأخذ دائما بعين الاعتبار وجهة نظر الرأي العام . فإذا كانت القبيلة تتوقع ان يشن عليها هجوم أو غارة على الشيخ ان يبعث بطلب القيادات لمناقشة ودراسة الخطة المعدة لمواجهة العدوان وبحثها من كل زاوية قبل شهر من توقعها ، فإذا اقتنعت الغالبية بصواب الخطة يبدأ تمركز المقاتلين في اماكن مهيأة مسبقا لذلك ، فإذا ما اندلعت الحرب ينضم القادة الى شيخهم الذي يجب ان تطاع أوامره .

ولكي يحفظ الشيخ مقامه عليه ان يبرهن دائما انه الاب لقومه كأن يعرف مشاكل كل عائلة ويقدم النصح والحلول العادلة كلما طرحت القضايا بين يديه ، وفوق كل ذلك يجب ان يكون بيته مفتوحا للجميع وان لا تنقطع القهوة من بيته وان يدق الهاون من الصباح حتى المساء ، وحتى هذا غير كاف ، اذ يندر ان يأكل أبناء القبيلة اللحم ، بالكاد يتذوقونه من عام لآخر ، لذلك وجب على شيخ القبيلة ان يختار المناسبة لاقامة احتفال يذبح فيه جملا يأكل منه ابناء القبيلة حتى الشبع ، ومثل هذا الاحتفال يمكن للشيخ اقامته بمناسبة قدوم ضيف كبير او حفل زفاف او طهور وما شابه ذلك . واكثر جزء في الجمل يحبه البدو سنامه ويرون ان له لذة كبيرة وخاصة ايام البرد . اما بالنسبة لي فقلما اكلت من لحم الجمال لأنني وجدته قاسيا وصلبا ولكن البدو يحبونه .

والشيخ الكبير يذهب الى ابعد من ذلك بكثير فيبعث بانتظام الى فقراء الحال من قبيلته عباءات للرجال وأقمشة لنسائهم يخطنها جلابيب مما يدخل السعادة الى قلوب النساء والرجال على السواء . وتلعب زوجة الشيخ دورا في حفظ مقام زوجها ، وتظل نساء العشيرة على اتصال بها يحدوهن الأمل ، غير المعبر عنه بالكلام ، بالحصول على المعونة لاضافتها الى دواليب ملابسهن ومطابخهن . وكان فيصل الدويش الكبير سيدا في اسعاد نساء القبيلة وكذلك كان ابن سعود . من اهم القضايا ان لا تلحق صفة البخيل برئيس فاذا ما نعت بهذه الصفة انتهى نفوذه .

يعيش الرجل العادي في القبيلة حياة قاسية وصعبة ويفتقر دائما الى المال. فاذا لم تقدم له هبات يضطر الى السرقة

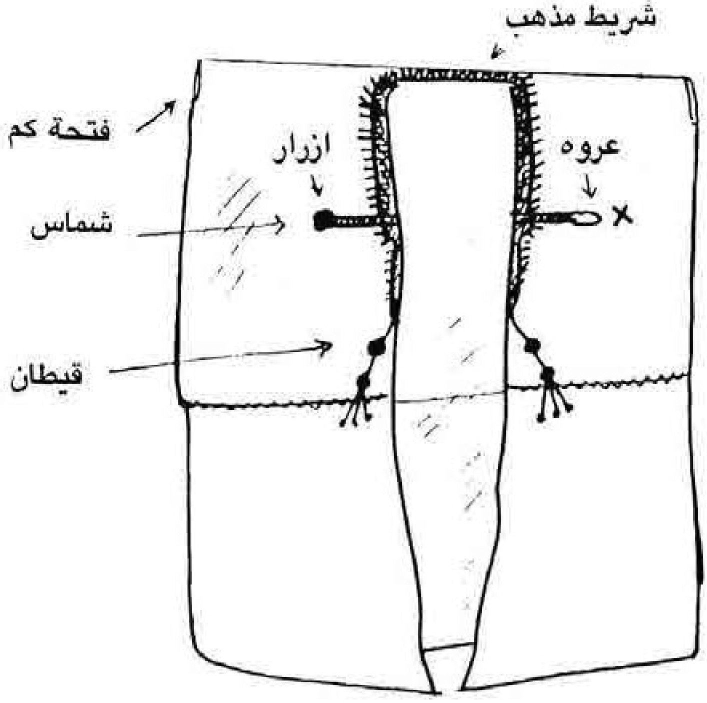
أو الغزو ، فان منع من الغزو فليس امامه الا ان يصارع الحياة بقسوة . ويتكون طعامه اليومي معظم ايام السنة من حليب الجمال وحفنة من التمر ، ويقل عن هذا المعدل نصيب راعي الجمال . وبسبب سوء التغذية ورداءة الماء تنتشر الامراض الكثيرة بين البدو اضافة الى صعوبة الحياة في الصحراء وخطورتها مما يجعل مدة حياة البدوي قصيرة . وتزحف الشيخوخة الى الجنسين مبكرا فتشيب لحية الرجل وهو في سن الاربعين وتعتبر المرأة عجوزا في سن الثلاثين . يتناول ميسور الحال مثل صديقنا سالم

المزين او شيخ القبيلة وجبة رئيسية في اليوم وعادة ما تكون في المساء وتتكون من الأرز المطبوخ بالسمن وحبات من التمر مغموسة بالزبد ولبن يتبعه القهوة ، وقلما يأكل اللحم لعدم اقتداره علي ذلك . فاذا ما طرا زائر يذبح له المضيف نعجة او خروفا وتأكل العائلة ما تبقى من الذبيحة . ولا يحصل البدوي الفقير على اللحم الا اذا استجداه ممن هم ايسر حالا منه او عندما يأتي زائر لشيخه أو رئيسه فيكون نصيبه بقية الذبيحة .

ويؤكل الأرز عامة اكثر من الخبز في المقاطعة الساحلية (الحسا) اما في المناطق التي ينمو فيها القمح فيفضل الخبز الذي يندر توفره لغير الميسورين . ومثل كل المسلمين يأكل البدوي بيده اليمنى فقط بعد ان يقوم بغسلها . وهو دائم الجوع ويأكل بشراهة كل ما يقع في طريقه مثل الجراد وأي من الزواحف القابلة للاكل مثل الضب والثعالب الصحراوية . ويقطع رقبة اي حيوان أو طير يصيده او يقنصه بعد ان يذكر اسم الله «بسم الله الله اكبر» . ويأكل الفطر والكمأ في فصل المطر وان كانا لا يتوافران الا لفترة قصيرة . وقلما يغسل يديه بعد الطعام لقلة الماء لذلك فهو يمسحهما بالخيمة ثم بلحيته . ويفخر ابناء قبيلة العجمان ببقع الدهن على خيامهم لانها تدل على كرم الضيافة .

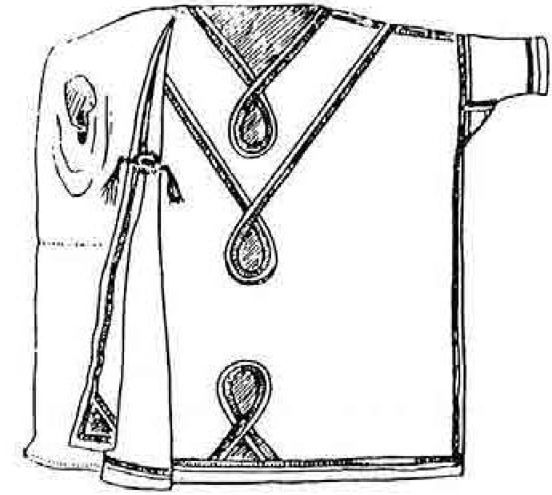
وثياب ابن القبيلة في مثل تدني مستوى طعامه وهي عبارة عن دشداشة من القطن وعباءة رثة وكوفية وعقال . من اكثر مصاعب البدوي عدم توفر الثياب الكافية للدفء ، فالشتاء في الصحراء قارص وتهبط درجة الحرارة الى ما تحت درجة التجمد وتهب رياح ثلجية . وتعمل المرأة ثيابها بنفسها ولا تملك مقصا او خيطا ، ولكنها تقطع القماش بأسنانها وتسلت منه الخيوط التي تخيط بها الثوب . وتلبس النساء سراويل طويلة ، وكذلك الرجال ، كما يلبسن دشداشة ملونة بأكمام طويلة وثوباً من القطن الأسود . وتلبس المرأة البدوية خارج الخيمة عباءة صوفية سوداء اثناء تواجد الرجال في المنطقة وتغطي شعرها بخرقة قطنية سوداء تنسدل فوق الثوب ، ويختلف الخمار من منطقة الى أخرى . ففي المناطق الشمالية من الكويت تلبس النساء ما يسمى (ملفع) وهو غطاء أسود شفاف يغطى الجزء الأسفل من الوجه ، أما في الجنوب فتلبس المرأة البدوية البرقع وهو غطاء للوجه مصنوع من القماش الخشن الاسود وبه فتحتان للعينين ، وفي جزيرة فيلكا وعمان تلبس (البطولة) وهي غطاء من القماش الخشن الأسود أيضا .

وتحت الخمار تزين المرأة جلدها بالوشم والحناء . وتنتشر عادة الوشم بشكل خاص بين نساء القبائل في العراق وتقل عند نساء البدو في الجزيرة العربية . ويندر التزين بالوشم بين القبائل التى تتبع السلفية وتقوم النساء بطحن الحناء وخلطها بالماء حتى تصبح عجينة جامدة ثم تستعمل عودا من الخشب وترسم على يديها ورجليها الاشكال التى تريدها ، وتجف الحناء أمام النار بسرعة وتتشقق ثم تتساقط أو تقشر وتتكرر العملية ثلاث مرات أو أربع للحصول على لون داكن وتستعمل بنات البدو الحناء الحمراء بينما تفضل نساء المدن الحناء السوداء وخاصة على

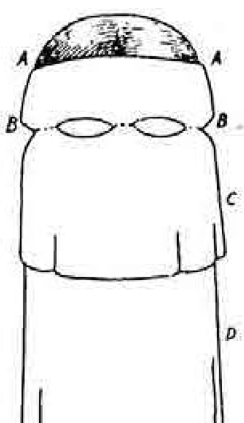


البشت

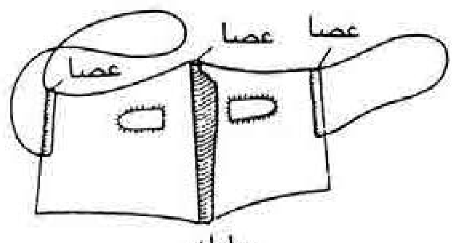
عباءة أو بشت : عبارة عن قطعتين من نسيج وبر الجمل او شعر الماعز وقد يكون النسيج سميكا أو رقيقا ، خشنا أو ناعما حسب امكانية الشخص تطرز حواشية بشريط من الذهب (زري) حول الرقبة والجانبين اللذين ينتهيان بشرابتين من الخيوط الذهبية ايضا . ويشير الخط الافقي (×) الى ان العباءة من النوع الذي يلبسه شيوخ الكويت . وهو بني قاتم ..



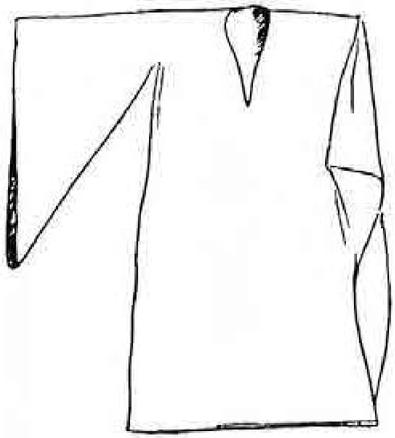
الفروة : معطف شتوي زاهي الالوان يصنع من قماش اسود وازرق ويزركش بخيوط من اللون القرمزي او الاخضر او البنفسجي او العنابي . وشرائط (كما في الصورة) ذات اللون الاصفر الفاقع والاسود . وهذا المعطف مبطن من الداخل بفرو الغنم الاسود او الابيض ، وغالبا ما يفضل اللون الاسود . وهو مريح ودافىء جدا ولا يلبسه غير الشيوخ والبدو الاثرياء .



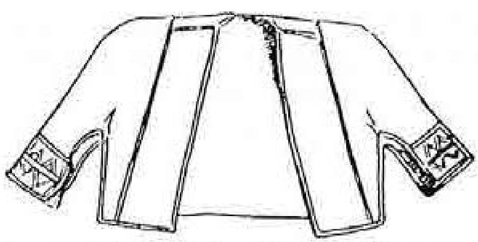
النقاب



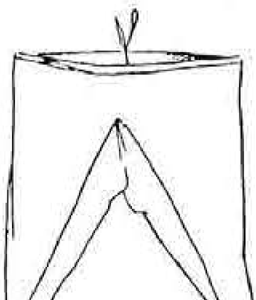
بطوله



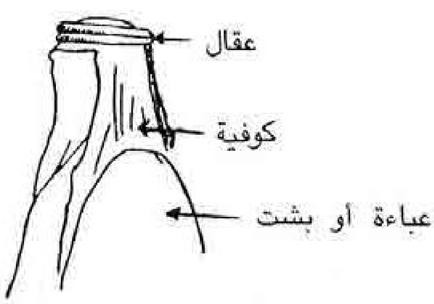
شلحات : بيضاء اللون بأكمام واسعة



د مير : جاكيت رجالي مطرز بخيط ذهبي أو أسود



سروال



اقدامهن . وللحصول على اللون الاسود تعمل النساء عجينة ثانية من بودرة الليم والامونيا (الوسمة) ثم تضعها فوق علامات الحناء البرتقالية فينقلب اللون رأسا الى اسود ويبقى على ذلك طوال عشرين يوما أو شهر ، وتغسل مواضع الحناء بالماء فقط بدون صابون .

وتجدل النساء في وسط وشرق الجزيرة شعورهن تسع جدائل اثنتين على جانبي الوجه تبينان جوانب البرقع وست جدائل رفيعة من الخلف تبدأ من منتصف الرأس والاخيرة تحت الرقبة ، وعندما ترقص النساء البدويات يطلقن شعورهن كلية فينساب الشعر على اكتافهن . وتغسل البدوية شعرها مرة في الشهر وتغذيه بالزيت مرة في الاسبوع وتستعمل احيانا خليطا من الاعشاب أو الحناء . وتنظف اسنانها بقطعة من خشب شجرة تسمى (ديرم) وهذه الشجرة تعطي الشفاه لونا أحمر يميل الى البرتقالي ويكون في غاية الجاذبية ، وهو شائع الاستعمال عند المدنيات أكثر منه عند البدويات .

وتتزين النساء بالمجوهرات مثل الخواتم والأساور والعقود وخواتم الأنوف . وفي المناطق السفلية يمنع استعمال الذهب لذلك تتزين النساء بالفضة . ويلبسن اساور من الكهرمان الاصفر او المرجان الاحمر ، أما نساء المدن فمجال التزين امامهن أوسع ويمكنهن استعمال الذهب .

ينتج عن الحياة في الصحراء مهارات خاصة ، وتبدو هذه المهارات في غاية الدهشة للغرباء . فذات يوم ذهبت برفقة الشيخ احمد شيخ الكويت نصطاد في منطقة تبعدمائة وخمسين ميلا داخل الجزيرة العربية . وطوال ساعة وعشرين دقيقة ونحن نطارد في السيارة سربا من الحبارى . ولكثرة تجولنا وتعرجنا إلتبس الأمر علي ولم أعد أميز اتجاهنا فالشمس فوق رؤوسنا مباشرة والارض من تحتنا سهل منبسط على مدى البصر . وعندما توقفنا للغداء ناديت نزال وهو من قبيلة الرشايدة مشهور بمعرفته الدقيقة للصحراء . سألته (اين تقع الكويت من هنا وكم نبعد عنها ؟) وبتلقائية غريبة اشار بيديه فورا (الكويت .. هناك .. وراء تلك الشجرة ، وتستغرق الرحلة الى هناك خمسة أيام لراكب الجمل بتمهل . سير ثماني أو تسع ساعات يوميا) . ناديت غيره من أبناء الرشايدة وأجابوا جميعهم بنفس المعلومات بالرغم من أنني سألت كل واحد منهم على حده . ثم سألت نزال اين نجمة الشمال فأشار الى شجرة أخرى وقال (هناك .. يا ابو سعود) أخرجت البوصلة والخريطة وتأكدت من كلامه . كانت هذه المعرفة لدى البدو تثير دهشتي في الوقت الذي كانوا يضحكون من استغرابي ويقولون لم يكن الامتحان صعبا . في الواقع لم يكن ما قمت به بامتحان فكل منهم يعرف كل شيء في هذه الارض . وللتأكيد على صحة كلامهم قالوا جميعا في آن واحد (بعد ربع ميل في الاتجاه الشمالي الغربي توجد أرض كمأ) وللبرهنة على ذلك قفز نزال الى احدى السيارات وانطلق مسرعا ، وبعد عشر دقائق عاد ومعه كمية من الكمأ .

الشيخ مطلق المسيلم ، من الرشايدة ، قال لي بأن قبيلته تضم أحسن مرشدين في الجزيرة العربية وأن ابن هدبا أشهر مرشد في الجزيرة العربية

وأن عائلته حتى النساء منهن لهن نفس المهارة . ولا يهم ان تكون الشمس واضحة في النهار او السماء مظلمة في الليل فالرشيدي يعرف طريقه ولا يمكن ان ينسى أيا من معالم الصحراء مهما صغر أو قلت أهميته . ومن ناحية أخرى يقر الشيخ مطلق بعدم مهارة قبيلته بعلم الاثر ويعطي الريادة في هذا العلم لقبيلة آل مرة جنوب الحسا وواحة يبرين الذين يتمتعون بمهارات فريدة في هذا المجال ويستطيعون قص اثر اقدام الانسان

والجمل والحصان والغنم . وفي حالة المرأة يستطيعون من تتبع آثار أقدامها معرفة ان كانت عازبة او متزوجة وحتى أن كانت حاملا أم لا .

عام ١٩٢٠ اكتشفت مهارة أخرى لدى قبيلة آل مرة عندما كنت مسافرا برفقة اثنى عشر رجلاً من رجال ابن سعود الشجعان وعلى رأسهم شاب يدعى باني في منطقة الحسا . لم يسبق لباني ان زار هذه المنطقة ، فقد جاء من الرياض الى الهفوف لأول مرة في حياته . وفي منتصف طريقنا الى الساحل التقينا براعي جمال قبيلة آل مرة فاقترح باني ان نشرب من حليب الجمال . وهكذا أتى بأنثى جمل وحلبت في الحال في قصعة خشبية وشرب كل منا نصيبه من ذلك الحليب المنعش ثم تلا ذلك القهوة .

وفجأة وبينما كنا نستريح ظهرت فتاة صغيرة من حيث لا ندري تحتج كيف نحلب جمل ابيها دون اذن منه . وبينما كنا نداعبها بقصد اغاظتها ظهر ابوها من خلف كثيب رملي ونظر الينا جميعا نظرات تفحصية ثم أخذ يحدق بناظريه الى (باني) وبادره بالسؤال (كيف حالك ..؟ وكيف حال والدك ..؟) أجابه باني) بخير .. الله يحفظ ، ولكن من أين تعرف والدي وكيف عرفت أنني ابنه .. لم يسبق لي المجيء الى الحسا ولم تسبق لي معرفتك ؟ أجاب المري بدون انفعال او استغراب (هذا صحيح .. اسم أبيك شجعان اليس كذلك ؟ عرفته من خمس وعشرين سنة ربما قبل مولدك .. وقد عرفتك من الشبه الكبير بينك وبينه .. فإننا لا أنسى أبدا وجها رأيته) . لم يشعر المري الساذج أبدا بأنه أثار بذاكرته وفراسته الحادة استغرابا ودهشة .

ولبدوي الصحراء فتنته وسحره الخاص فإن صادقته أو عملت له معروفا فلا ينساه . هو طفل الطبيعة ويعيش محكوما بكبرياء غريبة يسميها الشرف وهذا الشرف اعز من حياته ، فان وبخته أو قذفته بكلمات بذيئة هاج وحاول ذبحك او على الاقل قطب جبينه وكف عن التعامل معك ، اما اذا عاملته باحترام ودعوته للقهوة في خيمتك فقد اجتزت نصف المسافة الى كسب صداقته وثقته . حتى لو كان مرافقا او حارسا لك وعاملته على قدم المساواة بك قلما يتجاوز حدوده معك . وبعد شرفه يغار البدوي وكل عربي أصيل على شرف عائلته أو عرضه والذي ينطوي بالتحديد على حسن سيرة نسائه وبشكل خاص زوجته وأخته . وهو خفيف الظل ويفهم الطرائف والنكات شريطة أن لا تستهزىء به أمام ذويه او رفاقه العرب .

والبدوي فوق كل شيء متدين بطبعه .. وقد زادت حياة الصحراء وخطورتها بالنسبة للانسان والحيوان من احساسه بقربه من خالقه واعتماده عليه . ففكرة الله دائما في وجدانه واسمه على لسانه . يصلي خمس مرات في اليوم ولا يعمل اي

شيء بدون التوكل على الله . وتأتي واجباته تجاه الله في المرتبة الاولى ثم تليها واجباته تجاه جيرانه ثم نفسه . ويمكن تلخيص عرفه الكامل بما يلي :

أولا : واجبه تجاه ربه .

ثانيا : حماية جاره .
ثالثا : اعتبارات الضيافة .

رابعا : مسئوليته تجاه من يسافر تحت حمايته .

خامسا : اجارة المستجير ، وأخيرا نفسه والغزو متى استطاع ثم التمسك بمكاسبه .

طموحه في الحياة أن يمتلك - الى جانب بندقيته والذلول - (اي الناقة) دزينة من الجمال وزوجة وإبلا وخمسين رأسا من الاغنام وكلبا . في غضون ثلاث سنوات يتضاعف عدد الجمال والغنم بطريق التوالد . وحتى ولو لم يمتلك هذه القطعان فان البدوي لا يتعرض مطلقا لخطر الجوع الحقيقي او الموت من الفاقه نظرا للترابط العائلي ونظام الضيافة لمدة ثلاثة ايام . ومهما كان البدوي فقيرا فلا بد وان يكرم ضيفه ويذبح له حتى آخر جمل او خروف في حوزته . وتشارك النساء الرجال بإكرام الضيف ، فاذا مر عابر أو ضيف قرب الخيمة في غياب زوجها تسرع الى الخارج وبيدها قدر من اللبن علامة على الترحيب .

وللمرأة البدوية سحر حواء ، وهي على سجيتها لا تعرف عن العالم اي شيء وتعرف القليل عن حياة المدن مما يصل الى مسامعها . لها اشراقة وبراءة الاطفال ، قد تهب فجأة وتقطب حاجبيها بدون سبب ظاهر ، غيور جدا تحب وتكره بعنف وعاطفة قوية ، ومع ذلك فهي ارق المخلوقات وأكثرها قدرة على التضحية .

تحب اطفالها حبا شديدا مع انها لا تعرف كيف تعلمهم الانضباط وتستشيط غضبا من زوجها لو حاول ضرب طفل وتنام بعيدا عنه لو لم تشعر بقربه بجانبها . ومثل ازواجهن فالبدويات يحافظن على الآداب الاجتماعية ، وهن حساسات لدرجة كبيرة تجاه سمعتهن . وفي الوقت الذي تمنع البنات العذارى من مخالطة الشبان خارج حدود اسرتهن فان البدويات يتمتعن بحرية اكثر بكثير من نظيراتهن في المدن حيث يكن على علاقات ودية مع رجال اقربائهن في القبيلة .

على أنه يجب القول أن للبدو أخطاء ، فهم دائمو الوساخة ولكنها وساخة الصحراء وتختلف كلية عن وساخة المدن . ولا يغسل البدو ثيابهم مطلقا انما يرمونها عندما تبلى ويحصلون على احسن منها . ويكثر الوسخ على أجساد الرجال والنساء وتعشش في أجسادهم روائح السماد والمواشي وغيرها ، الا ان الاجزاء الهامة في الجسم تبقى نظيفة . وتغسل المرأة شعرها مرة في الاسبوع ببول الناقة (انثى الجمل) وترشه بمسحوق (الفرمين) مبيد الحشرات لبضعة أيام .

والبدو ونساؤهم يحسدون بعضهم البعض ولا يكفون عن اتهام غيرهم بالحسد في الوقت الذي ينكرون ذلك على انفسهم . ولذلك فالنساء حساسات - كما ذكرت - تجاه حسن سمعتهن ويعتبرن أن أسوأ ما يحدث لهن ان يكن موضوع ثرثرة الغير ، في حين ان كل واحدة بارعة في تشويه سمعة الاخرى :

وكم حدث من مآس في الصحراء بسبب زلة اللسان . والبدوي يفعل اي شيء مهما كبر الا التضحية بشرفه او شرف عائلته مهما قدمت له من اموال . ومع هذا فقد وجدت البدوي وزوجته احب وأظرف بشر في العالم .

قبيلة مطير :

تنقسم قبيلة مطير الى ثلاث مجموعات رئيسية وهي : الدويش والعلوة والبرية ، والحكم في هذه القبيلة لعشيرة الدويش وينظر الى بندربن فيصل الدويش ـ شيخهم عام ١٩٣٧ ـ على أنه زعيم القبيلة بكل بطونها .

قبيلة الدوشان :

تختلف عن غيرها من حيث كونها غير متفرعة وانما تتكون من مجموعة عائلات وتشكل بمجموعها مئتي خيمة . وشيوخ عائلاتها هم كما يلي :

السلطان ـ بندربن فيصل .
الشقير ـ تريحيب بن شقير .
الجبعا ـ مطلق الجبعا .
العمشا ـ محمد العمشا .
الوطبان ـ محمد الوطبان .
الماجد ـ عبدالعزيز .
المحمد ـ محمد البدر .
الفهد ـ ماجد الاصقة .

العلوة :

وتنقسم الى الموهه والدويان والقبلان ولكل منهم فروعه الخاصة .

الموهه :

أبرز شيوخ الموهه هو الشيخ بندر بن فيصل الدويش ، وفروعهم كما يلي :

البراعصة ـ شيخ السور (١٠٠ خيمة) .
الجبرا ـ شيخ ابو راس (٦٠ خيمة) .
الجهطان ـ شيخ الواصلي (٤٠ خيمة) .
الجدعان ـ شيخ الجديعي (١٠٠ خيمة) .
الخواطره ـ شيخ البييري .
الرخمان ـ (الجريبات) شيخ ابن جريبان (المحمد) شيخ ابو الصفرا (١٨٠ خيمة) .
الصعانين ـ شيخ ابن متعب (٨٠ خيمة) .

الدويان :

أبرز شيوخهم شيخ الفغم وتتكون مجموعة الدويان من فرعين رئيسيين لكل منهما مجموعة من العائلات القيادية ، وهي كما يلي :

الملاعبة ـ الشيخ ابن غنيمان (٣٠٠ خيمة) .

العائلات الرئيسية :

الغنيمان ، العميرة .
السعدون ، الغثيلات .
الفتاح ، الرواشدة .
المثاجيب .
الصهبا ـ شيخ الفغم .

العائلات الرئيسية :

عرفان ، الجماعين .
الدمانين ، الجريد .

الفغوا ، الجوافية .
الحجى الحديرات .
القبلان : أبرز شيوخهم ابن لامى ، وفيما يلي الفروع :
العراقيب ـ الشيخ المعرقب (خمسون خيمة) .
آل بو وزان ـ الشيخ ابن الرشدان (مائتى خيمة) .

العائلات الرئيسية :

المجالدة القشعان .
المرايسة .
العنة ـ الشيخ ابن الجغيثيم (مائة وخمسون خيمة) .

العلائلات الرئيسية :

الخريبيطات أبو شعيبين
اليحيي (يحيي) ـ الشيخ ابن شبلان (مائتى خيمة)
العائلات الرئيسية :
الشويرا
الشيابين

القعيمات ـ الشيخ ابن لامي (مائة خيمة) .
مجموع خيامهم : سبعمائة خيمة .

البريه :

وتنقسم مجموعة البريه المطيرية الى اولاد واصل وأولاد على وبني عبدالله .

اولاد واصل :

أبرز شيوخهم شيخ المريخي . وفيما يلي الفروع

الأفصح ـ شيخ الفاثي (عشرون خيمة) .
البرزان ـ شيخ ابن شويربات ، ابن حنايا (مائتى خيمة) .
الدياحين ـ شيخ المطارقة (مائتى خيمة) .
ابن جربوع (كويت) .
الهواميل ـ شيخ ابن دماخ (خمسون خيمة) .
المريخات ـ شيخ المريخي (ستون خيمة) .
العوارث ـ شيخ ابن الزويد (ثلاثون خيمة) .
العبية ـ شيخ ابن عشوان (سبعون خيمة) .
المحارسه ـ شيخ الهفتا (خمسون خيمة) .
الوساما ـ شيخ ابن محيليب (خمسون خيمة) .
ولأولاد واصل فروع أخرى في أواسط نجد ولا يعرف عنهم الكثير .

أولاد علي :

أبرزهم شيخ ابن مسابيس الذى يدعى سلالته من عنزه وفيما يلي الفروع :
السعران ـ شيخ ابن المسابيس (ثلاثمائة خيمة) .
العبادين ـ شيخ ابن الجهريمان (ستون خيمة) .
الحمادين ـ شيخ الحميداني (مئة وخمسون خيمة) .
السعدون ـ شيخ المقهوى (مئة خيمة) .
الشيالين ـ شيخ الموط (خمس وعشرون خيمة) .

الشذيلات ـ شيخ الديرى (تسعمائة وتسعون خيمة) .
الدويغانيمى ـ شيخ المكنسانى (أربعون خيمة) .
الحثلين ـ شيخ ابن طيران (ثلاثون خيمة) .

مجموع خيامهم : الف وسبعمائة خيمة تقريبا :

ولا يعرف الكثير عن هذه الفروع من حيث عددهم وقياداتهم لأنهم يجولون فى أراضي القصيم والحجاز وجنوب الدهناء والمناطق الغربية .

بنو عبدالله :

ينقسمون الى الفروع التالية :
الميمون ـ شيخ ابن قرناس .
ابن الشرار .
ابن الفدغان (ثمانمائة خيمة) .
آل صعب ـ شيخ ابن ثمنا (ستمائة خيمة) .

الثبان ـ شيخ ابن سقيان .
ابن جبرين (تسعمائة خيمة) .

ولا يعرف عنهم الا القليل من حيث عددهم وقياداتهم وفروعهم وتعيش القبيلة بأكملها فى أواسط نجد ويقال بأن عددهم كبير وخيامهم تعد بأربعة الاف خيمة على الأقل .

وتتجول مجموعات الدوشان والعلوة (مطير) وأولاد واصل ـ وهم فرع من (البرية) فى الشتاء فى منطقة تمتد من الحزام الرملي فى الدهناء جنوبا حتى الكويت شمالاً .. حول الجهة الشرقية من وادى الباطن . ولا يقتربون من مناطق قبائل العجمان والعوازم فى المنطقة الساحلية من مقاطعة الحسا . ويدعون ان افضل مناطق الآبار فى الصبيحية والطويل وحول الكويت تقع ضمن مراعيهم منذ قدم التاريخ . ويخيم هؤلاء جميعهم فى الصيف حول الآبار الشهيرة فى الأرطاوية والقاعية والحفر والبطين والصفاء والقرعة والوبره وقرية العليا وقرية السفلى .

ولقبيلة مطير تقاليد عريقة وتعتبر من أعظم وأنبل القبائل فى الجزيرة العربية ، وقد كانت أثناء حركة الاخوان أشد القبائل تعصبا لمذهب السلفية وكان ابناؤها أحسن مقاتلى ابن سعود ، وعندما تمردوا عليه عام ١٩٢٩/١٩٣٠ ظل حوالي نصف القبيلة مواليا له بقيادة ابن المصيص وابن شقير وغيرهما والنصف الآخر انقلب ضده بقيادة فيصل الدويش . وعندما أخمد ابن سعود تمرد الاخوان اعتقل فيصل الدويش وسجنه فى الرياض حيث مات هناك وصادر جمالهم (الشروف) مما ترك آثارا سيئة على العلاقة بينهم وبين الحاكم السعودى بالرغم من حسن معاملته لهم .

أبرز خصائص هذه القبيلة قدرتها على شن هجوم مفاجيء من قاعدة بعيدة . والمطيرى ـ عموما ـ شجاع وجسور وعنيد . وتربي القبيلة الخيول والجمال وعددا قليلا من الماعز ، ويملكون أشهر الخيول . وحتى عام ١٩٢٩ ـ ١٩٣٠ كان المتمردون يلقون فى الميدان حوالي ستمائة فارس .

تلبس الواحدة من نسائهم برقعا أسود ينسدل فوق وجهها بصورة جذابة . وتفخر نساؤهم بمجالسة الضيف متى تأكدن من هويته وأخلاقه .

أعداء قبيلة مطير قبائل شمر والظفير . وكانت العجمان أيضا معادية لمطير في السابق ولكنهما تحالفتا عام ١٩٢٩ - ١٩٣٠ وحصل تزاوج فيما بينهما .

العجمان :

تتكون قبيلة العجمان من عدد من الفروع وتتبع مشيخة الحثلين من فرع النجعة من معيض . وفيما يلي جميع فروع القبيلة وشيوخها وعدد خيامها :

العرجة - شيخ ابن رماح (٢١٠ خيام) .

الفروع : عرجه - مرجح - رزق .

الظعين - شيخ ابن جمعة وشيخ ابن الدمير (١٥٠ خيمة) .

الفروع : عمير - ظعين - حرضان .

الهادى - شيخ المتلقم (١٢٠ خيمة) .

الفروع : الهادى - وايل .

الهجان - شيخ محمد الصباح (خمسون خيمة) .

الهثلان - شيخ ابن سعدي وشيخ ابن زمامان (مئة وستون خيمة) .

الفروع :

الدهامشة - جاهل - مطلق - الرسان ، الشريث .

الحبيشي - شيخ غواف (مئة خيمة) .

الخويطر - شيخ الدمام ابن عظان (خمسون خيمة) .

المحفوظ - شيخ ابن مكراد (مائتى خيمة) .

الفروع : الدباسا - سفاح - محفوظ .

الحويلة (شيخ جنيفر ، وهو والد ساره زوجة فهد الحثلين) .

الحويلة -

المفلح - شيخ ابن دبلان (ستون خيمة) .

المعيظ - شيخ ابن حثلين (ثلاثمائة خيمة) .

الفروع :

حبيش - الكراه .

الفروع : الموبق - النجعة - الزيز - المغاطي .

المسرع - شيخ ابن عثين (تسعون خيمة) .

الرمه - شيخ ابن عكشان (تسعون خيمة) .

الشمير - شيخ ابن جنيفر وشيخ ابن خرصان (مائتا خيمة) .

الفروع : الحسين - الخضير .

الشواولة - شيخ ابن مفلح (مئة خيمة) .

الصفران - شيخ ابن المنيخير (مئة خيمة) .

السليمان - شيخ هيف ابن حجرف (الكويت) .

شيخ ابن عصيدان وشيخ ابن مسامح (الجزيرة العربية السعودية) مجموع خيامهم (مائتان وثلاثون خيمة) .

الفروع :

البغور - الدروان - الحمرا .

الحثاثا - القبوع - السليمان - الحجرف .

(بقي هذا الفرع من القبيلة مواليا للكويت لمدة طويلة تحت زعامة شيخ هيف ولذلك عين ابن سعود شيخين آخرين لقيادة القبيلة ، ولكن بقي هيف القائد الحقيقي في نظر القبيلة) وفي عام ١٩٢٧م كان للقبيلة شيخان ، خالد الحثلين (عينه ابن سعود) وراكان الحثلين (زعيم القبيلة) .

وتتجول القبيلة في الشتاء في مقاطعة

الحسا من حدود الكويت حتى اقاصي الجنوب في الهفوف . وفي الصيف يخيمون على طول وادي المياه في الحسا حيث وفرة المياه . وتوجد مخيمات القيادة في نطاع وغنوة والمليجة والصرار والعوينة في وسط الحسا . والعجمان الجنوبيون يخيمون حول مدينة الهفوف في الصيف ، ويجول فرع الحجرف ومجموعة من الهادي ـ الذين ظلوا لسنوات عديدة موالين لشيوخ الكويت ـ في أراضي الكويت ويخيمون في الجهراء في فصل الصيف .

وتزعم قبيلة العجمان أنها تستطيع أن تلقي في الميدان بما يزيد عن عشرة آلاف مقاتل الا ان هذا الزعم مبالغ فيه والحقيقة ان عدد مقاتليهم يتراوح ما بين ٥٨٠٠ و ٨٠٠٠ كحد أقصى . وأثناء الحروب يطلقون صرخات عديدة ولهم تقليد آخر يرفعون شعورهم فرق رؤوسهم ويعصبونها بشريطة حمراء .

ويزعمون أن أصولهم من نجران وتربطهم صلات قرابة بقبائل عديدة وخاصة قبيلة (مرة) عن طريق سلالتهم من جد مشترك (يام) . ويؤكدون على ان أبناء قبيلة مرة إخوة لهم بالدم وتهب القبيلتان لمساعدة بعضهما البعض اذا تعرضت اى منهما لعدوان ، والتقليد المتبع ان تبعث القبيلة رسولا على جمل يعقد حول عنقه شريطا احمر ويصرخ الرسول بأعلى صوته (عيال مرزوق) وهو نداء الحرب والنخوة لأبناء (يام) . وفي هذه الحالة تتحد القبيلتان في مواجهة العدو المشترك حتى ولو كانتا في حالة حرب وهو أمر عادى .

تهتم القبيلة بتربية الجمال والخيول وخيامهم لونها أسود أو بني وتوضع على رؤوس الأعمدة الجانبية والقواطع الداخلية شرائط بيضاء عريضة . وتغطي المرأة وجهها بغطاء من قماش لماع مغاير للبرقع الأسود الذي تلبسه نساء مطير والعوازم والرشايدة . والعجمي كالمطيرى كريم مع الغرباء تختلط نساؤه بالضيوف متى حسنت النوايا بينهم ، وأهم خصائص العجمان جديتهم في المعارك واخلاصهم لبعضهم البعض وميلهم للنكات وتجاذب أطراف الحديث . مذهبهم سني حنبلي ، وقد كانوا جميعا من الإخوان . وفي عام ١٩٢٩ ـ ١٩٣٠ تحالف حوالي نصف القبيلة مع قبيلة مطير ضد ابن سعود . وقد قام المتمردون من العجمان ـ الذين يخيمون على حدود الكويت ـ بعدة غزوات جريئة وناجحة ضد ابن سعود في الرياض والهفوف ليبرهنوا له على قدرتهم في شن الهجمات من مناطق بعيدة .

العدو الرئيسى لقبيلة العجمان قبيلة الظفير ويكنون عداء قديما لقبائل مطير وشمر والسبيع والسهول . كذلك يوجد عداء شديد بينهم وبين العوازم لأن العجمان يعتبرون العوازم جماعة هامشية الى أن جاء ابن سعود ومنحهم صفة القبيلة المستقلة .

قبيلة شمر :

تتبع الفروع التالية من قبيلة شمر ابن سعود ملك المملكة العربية السعودية :

مجموعة العبدة : شيوخهم الرئيسيون ابن علي وابن شريم وابن جبرين وابن عجيل .

مجموعة أسلم : (الصياح : شيخ مشعل ابن طواله وشيخ محمد الوجعان .

مجموعة السنجارة : شيخ رمال وشيخ ابن ثنيان .

(طمان) : شيخ مشعل ابن طميات .

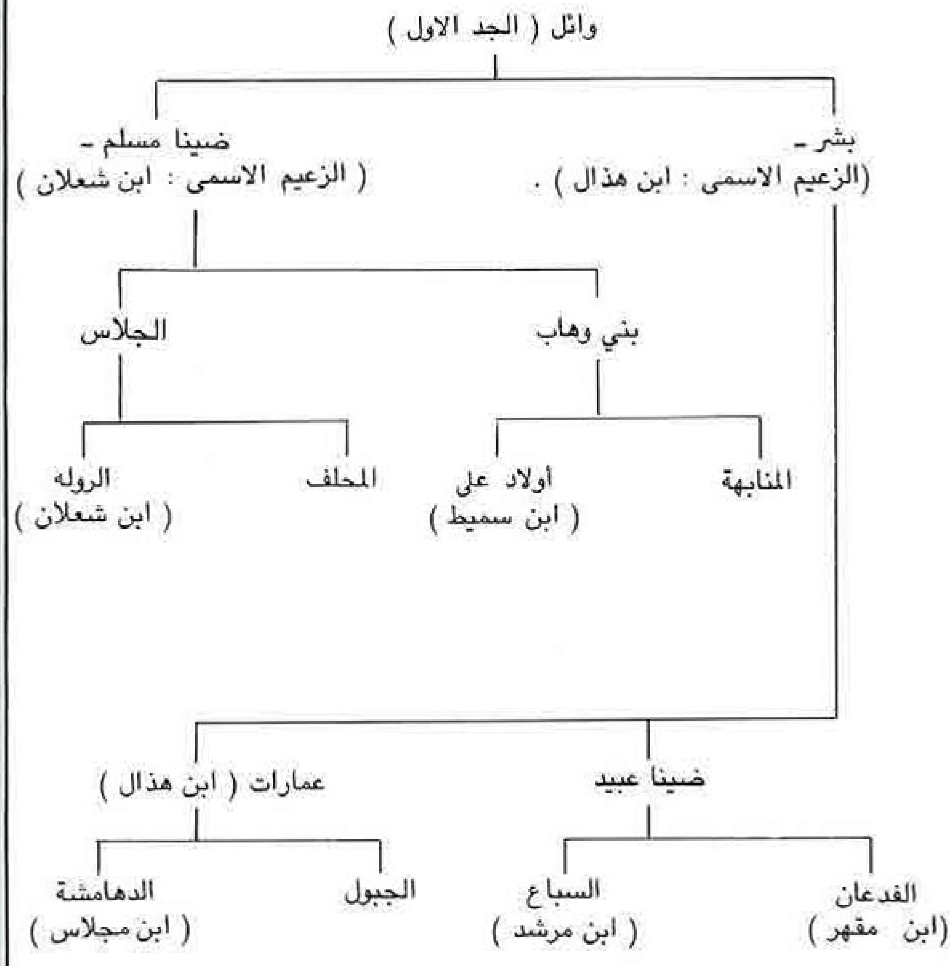
(طميات : شيخ ابن عياش وشيخ

متعب الرباع .

اما اكبر واهم عشيرة فى قبيلة شمر فهي عشيرة الجربا التى تقطن المناطق الواقعة بين بغداد والموصل على يسار ضفة نهر الفرات وهي موالية للعراق .

وتوجد روابط حميمة بين شمر جربا وشمر نجد (المذكورين أعلاه) وخاصة روابط النسب والتصاهر .

قبيلة عنزه : (الاصل والفروع الرئيسية).



وتزعم قبيلة اولاد سليمان بانهـا تنتسب الى وائل ولذلك يعتبرون أنفسهم من (عنزه) ولكن هناك شك فى ذلك .

تعتبر مدينة خيبر أول مركز لقبيلة عنزه . وحوالى عام ١٦٠٠ بعد الميلاد تحركت فروع عديدة منها باتجاه الشمال وقطنت الصحراء السورية حيث تقيم الآن . ثم توالت هجرات متتالية منهم على مدى مئة وثمانين عاما ، وقد دحرت هذه الموجات العنزية قبيلة شمر التى كانت تقيم فى الصحراء السورية ودفعتها عبر الفرات الى جنوب غرب الموصل حيث يقيمون الآن تحت اسم شمر جربا .

وقبيلة عنزة أعظم قبائل البدو من حيث القوة وعدد الجمال ، ويقال بأن عدد الذكور فى عنزة حوالى ٢٧،٠٠٠ ويملكون حوالي مليون جمل .

وفروع عنزه دائمة الاقتتال ولكنها تتحد فى مواجهة أى عدو أجنبي وتعادى كلا من مجموعة العمارات والإسبعه والفدعان يعادون الرولة ويتحدون ضدها . اما العدو التقليدى لقبيلة عنزة فهم قبيلة شمر سواء أكانوا فى الشمال او فى الجنوب ، وهو عداء ، قديم . كذلك بينهم وبين قبيلة الحويطات ، الذين يحدونهم من الجنوب الغربي فى المنطقة الواقعة بين الوجه وحدود عمان عداء قديم ولكن ليس بذلك المستوى الذى يقلق عنزه ، وبينهما مهادنات من وقت لآخر .

العلاقة بين آل سعود والصباح وآل خليفة كما يلى :

آل سعود ينحدرون من الرولة فرع المصاليخ ، والصباح من البجايدة من الجبول من العمارات (مع أن البعض يقول بأنهم من الدهامشة) وآل خليفة من الربع فرع الجبول .

قبيلة العوازم :

شيخ ابن جامع من الهدلان من القرعة . شيخ الرعيان هو ابن المانع .

وفيما يلى فروع هذه القبيلة القوية وشيوخها وعدد خيامها :

البريكات ـ شيخ راعي الفحما (ستون خيمة) .

الهدالين ـ شيخ ابن جامع (تسعون خيمة) .

الشقفا ـ شيخ الصفار (سبعون خيمة) .

العبيات ـ شيخ ابن مليحا (ستون خيمة) .

العليثات ـ شيخ ابن حجيلان (خمسون خيمة) .

العثيرما ـ شيخ متريم (اربعون خمية) .

الفغم ـ شيخ غياثى (اربعون خيمة) .

الجواسير ـ شيخ ابن خفرا (تسعون خيمة) .

المتاعبة ـ شيخ ابن مانع (مئة وخمسون خيمة) .

المحالبة ـ شيخ ابن شتلى (تسعون خيمة) .

المساحمة ـ شيخ ابن حبينه (مئة وعشرون خيمة) .

الموايقة ـ شيخ ابن ضب (سبعون خيمة) .

القراشا ـ شيخ ابن جندل (مئة خيمة) .

الصوابر ـ شيخ ابن دريع (مئة وستون خيمة) .

الشواويخ ـ شيخ الصواغ (أربعون خيمة) .

الترما ـ شيخ ابن رميح (مئة وأربعون خيمة) .

والى جانب هؤلاء هناك عدة فروع لهذه القبيلة يعيشون فى الكويت كصيادين .. الخ وليس لهم شيخ بارز .

وتقطن العوازم الزاوية الشمالية الشرقية من الجزيرة العربية (الكويت والحسا) . من مدينة الكويت وحتى رأس بديه جنوبا . وفى الشتاء يتجولون فى المنطقة الواقعة الى الغرب والشمال الغربي من الجهراء وحتى وادى الباطن فى الكويت . وفى الصيف تخيم مختلف فروع القبيلة حول الماء فى منطقة الكويت المحايدة وفي منطقة السودا إلى الجنوب حيث يكثر الماء والمرعى أفضل مواقع التخييم عرق وما حولها .

وتستطيع العوازم أن تجند حوالى ٤٠٠٠ مقاتل بخلاف من يعيشون فى الكويت وضواحيها . وتتمتع القبيلة بسمعة حسنة بين البدو من حيث قدرتها الدفاعية ولكنها ضعيفة من حيث الهجوم وربما يعود ذلك إلى عدم امتلاكها للخيول وانحصارها في منطقة محدودة على الساحل .

قبائل المنتفق والصلبة

إن دراستنا لقبائل الكويت ونجد لن تكون متكاملة بدون الإشارة إلى الهجرات السنوية الضخمة التي تقوم بها قبائل الرعاة في إتحاد المنتفق الذين يقع موطنهم في المنطقة الواقعة ما بين السماوة وبحيرة الحمار على نهر الفرات . وتتكون قبائل الرعاة من الفروع التي تربي الأغنام في المجموعات الرئيسية الثلاث التي تشكل إتحاد المنتفق وهؤلاء ينتقلون على الحمير ، وهي وسيلة نقل ملائمة لمن يملكون قطعانا من الغنم تنتقل ببطء . ويدل وجود قطيع كبير من الحمير على أن الرعيان يقومون بهجرتهم السنوية . معظم رعيان المنتفق ينحدرون من أصل عربي معتبر ويتزاوج بعضهم مع أحسن قبائل العراق ولكن لا يصاهرهم البدوي القح (بدو الجزيرة العربية) .

ومع بداية فصل المطر يبدأ هؤلاء الرعيان بالتحرك نحو الجنوب وتنضم إليهم قبيلة بني هاشم التي تقطن المنطقة الواقعة الى الجنوب الشرقي من السماوة والزبيرية ، وهي قبيلة من الرعيان ، والزوبع والرفيعات وهما من أصل شمري . وما أن ينزل المطر في الصحراء الجنوبية حتى يشد الركاب هؤلاء الرعيان باتجاه الجنوب حيث ترعى مواشيهم الأعشاب التي انبثقت ويرتوون من مياه البحيرات التي لا تجف لبضعة أسابيع وخاصة تلك الواقعة شمال شرق الجزيرة العربية . وعندما يصلون إلى وادي الباطن ينقسمون إلى مجموعتين ، مجموعة تتجه إلى الكويت عبر المنطقة المحايدة وما دونها (مع أن أقصى حد يصلون إليه في سنوات القفار هو الجهراء في الكويت) وتتجه المجموعة الأخرى نحو الغرب الى (طوال) آبار الظفير و(طوال) المطير أو ينتشرون في منطقة الهجرة التي تقع على جانبي الحدود العراقية مع الجزيرة العربية .

وهؤلاء الرعيان غير محبوبين من قبل بدو الصحراء الأقحاح . ومع هذا فإن البدو يرحبون بالرعيان عند قدومهم كل عام حيث يجلبون معهم اللحم الضأن بأسعار زهيدة والسمن الجيد والصوف الذي يلزمهم لخيامهم وجلود الغنم .

وأثناء شهري شباط وآذار تكون قبائل الرعيان قد انتشرت في كل المنطقة الواقعة جنوب وغرب الكويت ومن أجمل مظاهر الحياة في الكويت في ذلك الوقت هو مشاهدة طوابير فتيات الرعيان اللواتي

يتابعن طريقهن على الدروب المعرجة إلى المدينة ضاحكات فرحات . وعادة ما يكون برفقة هؤلاء الفتيات قطيع من البغال الصغيرة المحملة إلى أخمص

أقدامها بقرب اللبن والصوف والحطب لبيعها في الكويت : وفي المساء يشترين بأثمانها الطعام والألبسة الزاهية وغير ذلك ويعدن بها إلى بيوتهن . وتسافر البنات بدون رجالهن الذين يظلون في خيامهم أو يرعون الماشية . وبخلاف نساء الكويت فهؤلاء سافرات الوجوه ولما كان معظمهن جميلات ففي الحال يتجمع الشبان حولهن حيث يعرضن مبيعاتهن . وهن ماهرات ويحصلن على ما يحتجن إليه بالمستوى والجودة التي يبعن بها حاجياتهن . وتحمل الأمهات أطفالهن إما على ظهورهن أو في أكياس جلدية يلقين بها فوق ظهور البغال وتبدو للعيان وجوه الأطفال الصغيرة تحدق من فوق حافة الكيس الواسع .

ومثل رجالهن يتميزن بالحيوية والنشاط ، وقلما يمتطين البغال . وعندما يزرن الكويت يمشين على الأقدام من عشرة إلى خمسة عشر ميلا يوميا . وفي المساء عندما يعدن إلى بيوتهن يمشين من ستة إلى سبعة أميال خارج المدينة : فإذا حل الظلام ينمن على جوانب الطريق ثم يتابعن مسيرتهن عند الفجر بدون أن يعتريهن أي خوف أو خشية . والمرأة العراقية من المنتفق أو المعدان (وهم العرب المتجولون الذين يعيشون في المثلث المشكل من مدن كربلاء على الفرات والعمارة على نهر دجلة والبصرة) موشومة بوشم خاص يدل على قبيلتها .

وخيام الرعيان لا تنصب متقاربة وإنما فرادى أو اثنتين كل واحدة على مرأى من الخيمة المجاورة . وهذا يمكن الراعي من النهوض لمساعدة جاره إذا دعت الضرورة . وهكذا فإن الخيام تنتشر في منطقة كبيرة من الصحراء إلى أبعد ما يصل إليه النظر إما على شكل فرادى أو اثنتين أو ثلاثا ، ولهذا الإنتشار الواسع فوائد صحية كما أنه يعطي المواشي مساحة أكبر للرعي . أما إذا نشبت حرب أو حتى أشيع عن قيام حرب فيقترب هؤلاء الرعيان . بعضهم إلى البعض حيث يتمركزون في منطقة واحدة أو يشدون الرحال للعودة إلى موطنهم .

وتأتي عودة قبائل الرعيان إلى العراق مع نهاية شهر أبريل أو أوائل شهر مايو حيث يقل المطر وتجف الصحراء فيعودون بمواشيهم إلى الفرات بعد أن يبيعوا الصوف والزبد والحليب ويشتروا بأثمانها الأرز والسكر والقهوة والملابس والهدايا لنسائهم وبناتهم . وهكذا فإن عودتهم إلى الفرات مبعث سعادة لأهاليهم وذويهم . ويقدم الرعيان الأغنام الصغيرة كهدايا للحاكم في الكويت والجزيرة العربية لضمان حسن معاملتهم : وهذا التقليد يسمى (ذبيحة ومنيحة)* وكان أول من قام به هو شبيب السعدون - في القرن السادس عشر عندما ركز السعدون وهم سادة المنتفق - أنفسهم في العراق .

وتعني تقدمة «ذبيحة ومنيحة» ، «أنا خادمكم المطيع طالما أنا في بلدكم» . وعادة ما تكون نصف دزينة من الأغنام الصغيرة : وكثيرا ما يرفض الحاكم هذه العطية فتعاد الى صاحبها . وهناك تقليد أخر يسمى «منيحة» وهو أن يهب شخص يملك قطعانا كثيرة من الغنم شاة أو نعجة إلى جار أو صديق فقير الحال يستفيد من

حليبها وتظل عنده إلى أن يجف حليبها فتعاد بعد ذلك إلى صاحبها .

وهناك نوع آخر من الضريبة يسمى «خوة» وهو عبارة عن تأمين يدفعه الغرباء عندما يدخلون أراضي قبائل أخرى . فمثلا يدفع الراعي من المنتفق خوة إلى شيخ بني حرب إذا دخل أرضهم في الجزيرة العربية . وتكون الخوة عبارة عن بضعة أغنام وسمن . وهذه الضريبة متفق عليها وفي مقابلها يتمتع الغريب بالحماية . ويدفع الزائر من تلقاء نفسه زكاة إذا شعر بالخطر والحاجة إلى حماية قوية .

ويعني رحيل الرعيان السنوي خسارة كبيرة للكويت ويتطلع شباب الكويت لعودة الرعيان في العام التالي بشوق ولهفة لمشاهدة الوجوه الضاحكة من بنات المنتفق ذوات العيون الجميلة والذقون الموشومة على طريق (الجهراء ـ الكويت) اللاتي يمزحن ويضحكن مع كل عابر سبيل ومعنوياتهن عالية ويختلفن في ذلك عن جيرانهن من المعدان .

أما قبائل الصلبة فتوجد في النصف الشمالي من الجزيرة العربية وفي جنوب العراق ، وبالتحديد على خط يمتد شرقا وغربا عبر المدينة والرياض في الجنوب إلى خط يمتد من حلب وحتى الموصل في الشمال . وتربطهم تقاليد مشتركة بالصليبيين ومن المؤكد أن عددا كبيرا من الصليبيين قد جلبوا كعبيد إلى الصحراء العربية أثر إنهزامهم في حروب عديدة . ومن المفترض أن يكون الصلبة الحاليون أحفاد هؤلاء الصليبيين . ومن الدلائل على ذلك أن علامة القبيلة هي الصليب وأثناء احتفالاتهم يقومون بتقليد غريب فيرفعون صليبا مصنوعا من قطعتين من الخشب على شكل شعار الصليبيين . ومن الممكن جدا أن يكون اسم القبيلة نفسه مشتق من كلمة (صليب) ، كما أن أشكالهم وملامحهم ليست عربية .

معظم القبائل التي تعيش في هذه المنطقة تشتمل على جالية من الصلبة نظرا لما يتمتع به هؤلاء من معرفة خارقة لمصادر المياه في الأرض التي يعيشون فيها . وهذه المعرفة تعطيهم معرفة قيمة كبيرةلدى القبيلة التي تحميهم لما لها من فائدة كبيرة أثناء الحروب أو الغزوات الطويلة . وكثيرا ما تأخذ القبيلة الغازية مجموعة من «الصلبة» كمرشدين لمرافقتها أثناء الغزو . وكذلك كثيرا ما تشتمل حاشية الشيخ على مجموعة منهم لمعرفتهم المميزة بأماكن تواجد الغزلان والنعام .

يوجد رئيس لكل جالية من الصلبة ؛ ولهم شيوخهم حيث يشكلون قوة بين القبائل العربية الكبيرة ويملك بعضهم قطعانا كبيرة من الأغنام والجمال . ورجال الصلبة بشكل عام تعساء يميلون إلى التملق والتزلف ويستعملون في المخاطبة عبارات الرجاء والتودد . رجالهم ونساؤهم فوق المعدل الجمالي العادي وخاصة النساء تكثر نسبة البنات الجميلات جدا بينهن . قلما تلبس المرأة من الصلبة الحجاب أو الملفع . وربما لهذا السبب يعتقد العرب أن نساء الصلبة لهن القوة على صب عين الشر التي كثيرا ما أدت إلى موت وهرب عدد كبير من الشبان البدو الذين كانوا يقعون ضحية جمالهن لأن أي عربي يتزوج من امرأة صلبية يتعرض للقتل من قبل عشيرته .

والصلبة محبون للرقص وأول شيء

يفعلونه في أي عيد أو حفل زواج هو تنظيم رقصة : فيرقص الرجال والنساء معا مما يعتبره العرب أمرا مخزيا . وقد شاهدت مثل هذا الرقص عام ١٩٣٤ في مخيم للصلبة داخل بوابة نايف في الكويت بمناسبة طهور أحد الأطفال ؛ ويجري الإحتفال خلال الأيام الثلاثة التي تسبق الطهور ويبلغ الرقص ذروته في اليوم الثالث .

وفوق الخيمة يغطى صليب عادي بنصف ثوب امرأة وهي علامة على أن الرقص سيجري على قدم وساق ، يقدم الحفلة ويرأسها رجل كبير عادة ما يكون أبو الطفل الذي تم طهوره يدخل الحلقة التي شكلها أبناء الصلبه رجالا ونساء ، وغيرهم من المتفرجين فيلوح بسيف حول رأسه ويدعو الرجال والنساء لمشاركته ويدور عدة دورات حول الدائرة البشرية ثم يصوب الجميع أنظارهم نحو خيمة مجاورة تخرج منها شابة جميلة تلبس ثيابا بهيجة وتندفع الى داخل الحلقة مكشوفة الرأس والوجه ويغطي الوشم ذقنها ورقبتها ويتمايل شعرها الطويل الكثيف مع النسيم ، وظهور الفتاة يعطي الاشارة لزوجها أو أخيها فينطلق الى الحلقة ويعانق الفتاة ويطبع على شفتيها قبلة خفيفة .

بعد ذلك تعطى الفتاة خيزرانة ويبدأ الرجل بالرقص قبالتها فيقترب حينا ويبتعد حينا آخر مطلقا في تلك الأثناء صرخات المرح والهرج وفي اللحظة التى يبدأ فيها الرقص يتشكل كورس من نساء الصلبة يصفقن ويطلقن صرخات متقطعة .

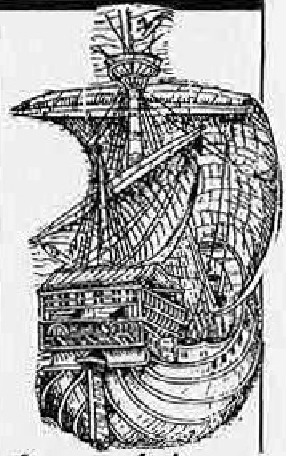
ويستمر الرجال والنساء معا بتقديم الرقصات المماثلة ، وليس هناك ما يعيب في سلوك الراقصين الاعندما يقوم الرجل الكبير ويرقص بسيفه عدة مرات خلف شريكته بطريقة مثيرة .

وتقوم الفتاة أثناء الرقص بالايماء لشريكها بالاقتراب منها ، فيمتنع في البدء متظاهرا بالمحب الخجول ولكن سرعان ما يستسلم لسحر وفتنة محبوبته فيبدأ بالاقتراب منهامظهراً اعجابه ومحبته في كل حركة . بعد ذلك تبدأ الفتاة بالدلال والتمنع بعد أن حصلت على مبتغاها فاذا ما تقدم المعجب منها أو حاول لمسها ضربته بعصاة ضربة خفيفة وأجبرته على الابتعاد .

ويرقص حامل السيف أحيانا على قدم واحدة ثم على الأخرى وفجأة يرقص على القدمين بحركات الى أعلى وأخرى الى أسفل وكان قدميه مصنوعتان من المطاط . وترقص الفتاة مثل معظم البدويات على قاع أقدامها فتقفز إلى أعلى ثم إلى أسفل وتخطو إلى الأمام ثم الى الوراء قبالة رجلها وتهز رأسها بعنف محافظة بنفس الوقت على تقدم خطوتها باتجاه الرجل وتلوح بضفائرها على الجانبين . ولا تبتسم أثناء الرقص ويظل فمها مغلقا بحزم وبين الفينة والأخرى تضع يدها فوق أنفها وفمها . وتنتهي الرقصة باندفاع شقيق الفتاة الى داخل الحلقة فيغطى رأسها ووجهها بطرف ثوبها ويأخذها الى الداخل .

يتبع

التأثير البرتغالي على اقتصاد



إن قضية التأثير البرتغالى على الشرق لا تزال تبحث وتناقش ولا يزال المؤرخون والباحثون الغربيون والشرقيون ينقسمون حول مسألة التأثير الى مدرستين ، الاولى تمجد صنع البرتغاليين فى اكتشاف رأس الرجاء الصالح وإقامة أمبراطورية برتغالية امتدت من الخليج العربي وشرقي افريقيا غربا الى بحر الصين شرقا واحتكارهم الفعال لتجارة اسيا الداخلية ، بينما الثانية تعتبر أن الانجاز الوحيد للبرتغاليين هو اكتشافهم لرأس الرجاء الصالح ، وأن البرتغاليين فشلوا فى التأثير على الشرق كفشلهم فى احتكار التجارة الآسيوية بشتى طرقها البحرية . فى هذه الورقة نتطرق الى ابراز التأثير البرتغالي لا على المحيط الهندي بأكمله بل على الخليج العربي كجزء من أهم أجزائه ووحدة من أهم وحداته الاقتصادية ، ونثبت من خلالها أن التواجد البرتغالي فى فترة القرن السادس عشر كان له تأثير كبير على اقتصاد منطقة الخليج العربى .



منطقة الخليج العربي

في القرن السادس عشر

الدكتور خالد الخليفة

ففشل البرتغاليين فى احتكار تجارة التوابل بين الشرق والغرب واقامة امبراطورية بحرية فى المحيط الهندى لا يعني أنهم فشلوا كذلك في احكام قبضتهم على الخليج ، فتوافر السلع الشرقية وخاصة التوابل فى موانىء البحر المتوسط وعدم تأثر تجارة البندقية وحلب والاسكندرية لا يعني أن مياه الخليج العربي ساهمت فى تدفق هذه السلع الى البحر المتوسط . أن الأدلة التي نستند عليها لإثبات أن الخليج أعفي من تجارة الشرق والغرب هي ان الطرق البرية القديمة استعادت أهميتها ، فعلى سبيل المثال فإن خط الهند ـ افغانستان ـ ايران ـ سوريا استعاد أهميته بعد تعطل لقرون فمدن كقندهار نمت وازدهرت فى القرن السادس عشر بعد أن كانت خرابا . ان جميع الاحصائيات التجارية المتوفرة لموانىء البحر المتوسط تثبت ان



تسرب السلع الشرقية عن طريق البحر الاحمر قد ساهم مباشرة في تزويد موانىء البحر المتوسط بالسلع الشرقية . فهذه الادلة وغيرها تثبت ان البرتغاليين لم يحكموا قبضتهم على منطقة بحر العرب ولكنهم استطاعوا أن يسيطروا سيطرة تامة على الملاحة والتجارة في الخليج العربي .

وفضلا عن ذلك فان القواد البرتغاليين في منطقة الخليج العربي اشتغلوا بالتجارة واحتكروا تجارة السلع المربحة كاللؤلؤ والخيول والتوابل ، كما فرض البرتغاليون نظام الرخص الملاحية (Cartaz) على السفن العربية ومنعوها من الإتجار في السلع المحتكرة وتعمدوا احراق هذه السفن اذا ما اكتشف أنها لا تحمل رخصاً ملاحية فدمروا بذلك حركة الملاحة والتجارة العربية في الخليج العربي ، تلك الحركة التي كان لها نشاط كبير في مختلف العصور التي مرت بها المنطقة .

لقد ساهم العرب منذ أقدم العصور مساهمة بارزة في رسم الخطوط التجارية في المحيط الهندى ، فالاكتشافات الاثريه من اختام ومواد اخرى تدل على ان الاتصال التجاري البحري بالهند كان معروفا في الالف الثالث قبل الميلاد . وان حركه الاتصال هذه كانت مستمره عامره ، كما ان بعض المدن الاثرية في الخليج كدلمون (البحرين) وماجان (عمان) كانت من اشهر مراسى السفن في تلك الفترة . حيث كانت تقصدها السفن القادمة من العراق في طريقها الى الهند وبالعكس .[1] وهي محمله بالمعادن والاخشاب والعطور وغيرها من السلع النفيسة[2] .

وفي العصر الاسلامي تتجلى اهم مظاهر التجارة العربية في المحيط الهندي في مظهرين اثنين : الاول ، توسع الملاحه العربية والابحار مباشرة الى الصين ، والثانى بروز مراكز تجارية ذات صيت عالمي كسيراف والابله وبعدهما هرمز .

أولا : توسع الملاحة العربية .

إذا كان التاريخ القديم قد أوضح النشاط الملاحي العربي في شمال غرب المحيط الهندي ، فإن تاريخ الحقبة الاسلامية يثبت استخدام العرب لأطول الطرق البحرية في العالم في تلك الفترة . فالعرب هم أول من استخدم الطريق البحري الممتد من الخليج حتى كانتون في الصين ، والذى يعتبر اول طريق بحري استعمله الانسان بشكل منتظم قبل التوسع الاوروبي والكشوف الجغرافية . ففي الفترة من (١٣٢هـ ـ ٤١٦هـ) نشطت العلاقات الدبلوماسية والتجارية بين الخلافة العباسية والامبراطورية الصينية ، وزاد من ذلك النشاط اهتمام الخلافة العباسية ـ كما تذكر المصادر الصينية بتكثيف السفارات العباسية الى الصين ، تلك السفارات التى حملت الهدايا الثمينة الى امبراطور الصين والتى كان من ضمنها ثلاثون جوادا عربيا . وبهذا استطاعت الدولة العباسية توثيق العلاقات مع الصين ، فاصبحت العلاقة شبه متواصلة بين الطرفين ، تربطهما روابط شبيهة بالمعاهدات التجارية التى تتضمن ما يشبه الامتيازات للتجار العرب . كما استطاعت الدولة العباسية حماية الطرق التجارية المؤدية الى الشرق الاقصى[3] .

ومن هنا يتبين لنا ان التاريخ الملاحى للعرب في الفترة الاسلامية تميز باتساع الخطوط البحرية المؤدية الى الصين ،

ولكن ذلك لم يحدث الا بعد ان استطاع العرب السيطرة على منطقة بحر العرب والسواحل الغربية للهند ، وتمرسوا بالملاحة البحرية فى الجزء الادنى من المحيط للوطن العربى ، كما ساعدت الفتوحات الاسلامية (٩٢هـ ٤١٦هـ) - التى خلفت حكاما عربا فى بلاد السند والهند - على نشاط الملاحة العربية فى تلك المناطق ودعمت التجارة العربية فيها[٤] . هذا النمو المتزايد للملاحة العربية جعل البحرية العربية تبحث لها عن موانىء جديدة للتجارة فكانت النتيجة هى المغامرة والابحار الى بلاد الصين مباشرة . ومما تجدر الاشارة اليه هنا قبل الانتقال الى المظهر الثاني ان نميز بين النشاط الملاحى لعرب الخليج ونشاط عرب البحر الاحمر لنتبين أهمية الخليج العربي التجارية فى الفترة الاسلامية .

لقد كانت منطقة الخليج العربي وعلى رأسها العراق منطقة مضطربة منذ أواخر عصر الراشدين وحتى نهاية العصر الاموى بسبب قيام الحركات والثورات المناهضة للامويين فى جميع اقاليم الخليج العربى ، ففى العراق اندلعت حركات موالية للعلويين واخرى موالية للخوارج وثالثة زبيرية ورابعة اقليمية عراقية ، وفي البحرين (الساحل الشرقي لشبه الجزيرة العربية) نشطت حركة الخوارج وسرعان ما دب الشقاق بين صفوف خوارج البحرين مما زاد الاوضاع سوءا ، وفى عمان بدأت الدعوة الاباضية فى النمو ، وفي الأحواز انتشرت حركات الخوارج وحركات قبلية أخرى ، هذه الحركات والثورات التى كانت تنتشر حول مياة الخليج جعلت الدولة الاموية تنظر الى الخليج كمنطقة معادية للسلطة المركزية مما جعلها تنتهج حيالها سياسة الردع والتى منها حصر السلطة فى الخليج في يد والى البصرة الذى بدوره عين ولاة أشداء ومخلصين للدولة الاموية ، فبدت شدة الولاة وقسوتهم على اقاليم الخليج من أهم مظاهر تاريخ هذه المنطقة فى العصر الاموى ، كما ان الدولة الاموية انتهجت سياسة الفتوح الاسلامية فى الشرق لتشغل سكان المنطقة بهذه الفتوح ، وبهذا استطاعت الدولة الاموية إضافة بدء الفتوح الاسلامية فى الهند لرصيدها[٥] . ورغم ان هذه الفتوح افادت التجارة والملاحة العربية فيما بعد الا ان الخليج العربي أنذاك عاش جوا من التوتر بسبب الحملات العسكرية والحروب العربية الهندية ، لذا انتقل مركز الصدارة والنشاط البحري فى شمال غرب المحيط الهندي الى عرب البحر الاحمر ، فأستعادت موانىء البحر الاحمر خاصة عدن وجدة ازدهارها بعد ركود تجاري لفترة طويلة[٦] .

أما العباسيون فقد اختلفت رؤيتهم للخليج العربي تماما عن منهج الامويين . وكما ذكرنا سابقا فان العصر العباسي تميز بتنشيط البحرية العربية فى المحيط وخاصة العلاقات التجارية مع الصين . ومن اهم العوامل التى ساعدت العباسيين على تبني الرؤية الجديدة انتقال مركز السلطة (العاصمة) الى العراق ، ولم يحدث ذلك صدفة ، وانما تتبين الحقيقة من قول المنصور عن اختياره لبغداد عاصمة لدولته « هذه دجلة ، ليس بيننا وبين الصين شيء[٧] .

وفي الفترة الممتدة بين سقوط الدولة العباسية (بداية القرن الخامس الهجري/ الحادى عشر الميلادى)

ووصول البرتغاليين إلى منطقة الخليج مع بداية القرن السادس عشر، وبرغم الازمات السياسية التي واجهتها منطقة الخليج ـ شهدت المنطقة ظهور مراكز تجارية هامة كقيس وهرمز التي لعبت دورا هاما في التجارة بين الشرق والغرب.

ثانيا : المراكز التجارية في الخليج :

في الفترة الممتدة من بداية ضعف الدولة العباسية ثم سقوطها حتى وصول البرتغاليين شهدت منطقة الخليج العربى ظهور مراكز تجارية ذات صيت عالمي، منها سيراف ثم قيس، والابلة ثم البصرة، وهرمز وعمان والبحرين وغيرها، على ان المقارنة بين هذه الموانيء في الاحوال الطبيعية توضح لنا حقائق رئيسية عن التركيب الاقتصادى لمنطقة الخليج العربى. فهذه المراكز يمكن ان تقسم الى مجموعتين اقتصاديتين، الاولى مجموعة سيراف وهرمز والتى تعتبر ظاهرة غير طبيعية لعدم توافر اساسيات الاحوال الطبيعية ـ الاقتصادية فيها. اما الثانية فهي ظاهرة طبيعية لتوافر العوامل الاساسية فيها كالثروات الطبيعية ووقوعها كمنافذ لطرق تجارية هامة مما جعلها تتصف بأنها موانيء، والبصرة وعمان والبحرين تعتبر افضل الامثلة لذلك.

كانت سيراف هي المركز التجاري الرئيسي في منطقة الخليج في الفترة العباسية الثانية، ويصفها المؤرخون العرب بأنها من أهم مدن العالم التجارية ومعبر التجارة العباسية مع الهند والصين وشرق افريقيا(٨) ويبدو ان السيرافيين كانوا أهم عنصر في نجاح وشهرة سيراف، فيذكر المسعودي ان السيرافيين يقطعون بحر الصين والهند والسند والزنج واليمن والقلزم والحبشة، ويقرر، بأن اكثر ملاحي المحيط الهندي من سيراف وعمان.(٩).

كما أسس جماعة من سيراف اكثر من مركز تجاري على الشاطىء الشرقي لأفريقيا من بينها مقديشيو وبرادة وكلوة.(١٠) ومما يعزز ذلك ان طبيعة سيراف قاحلة جرداء وخير وصف لذلك نجده عند الحموي الذي يذكر انه ليس بها سوى الابنية، ولا يوجد فيها ماكول ولا مشروب، الا ما يحمل اليها من البلدان؟ وليس بها زرع ولا ضرع ..(١١).

اما هرمز فظروفها مشابهة لسيراف. أنشئت مع بداية القرن الرابع عشر وفي خلال فترة وجيزة أصبحت مركزا تجاريا عالميا وحلقة اتصال تجاري بين الشرق والغرب وملتقى السلع الشرقية بالأوروبية(١٢) ان وصف الرحالة الاوربيين لهرمز والذى يعتبره بعض المؤرخين مبالغا فيه يبرز لنا عظمة هرمز ومكانتها التجارية قبيل وصول البرتغاليين الى المنطقة، فيذكر فارثيما (Varthema) الذى زارها في عام ١٥٠٣م. انها جد جميلة .. وتكثر بها الابنية .. وفي بعض الاحيان يرسو في مينائها اكثر من ثلاثمائة سفينة ذات اشكال مختلفة قادمة اليها من مختلف بلاد العالم، ويقيم بها وبصفة دائمة حوالي أربعمائة تاجر ووكيل من جنسيات مختلفة يتاجرون في السلع المختلفة كالحرير واللؤلؤ والاحجار الكريمة والتوابل ..(١٣) وهناك الكثير من الرحالة الأوروبيين الذين اسهبوا في وصف جمال هرمز وأبنيتها المتميزة وثراء أهلها الفاحش ومستوى معيشتهم المتقدم(١٤)

ولعل المثل الايطالي السائر اذا كان العالم خاتما فإن هرمز جوهرته .(١٥) اكبر دليل على مكانة هرمز التجارية في العالم انذاك . ولكن ما يدعو للغرابة هو أن هرمز ، كسيراف ، جزيرة جرداء خالية من الزراعة وارضها ملحية سبخة وتندر بها المياه ، ويصف احد الكراملة مناخها قائلا ان حرارتها ممزوجة برطوبة عالية ، وتخلو لياليها من نسمة ريح ، مما يجعل مناخها أشد ما يمكن تحمله في بقاع العالم(١٦) ومما لاشك فيه إن هرمز لم تنتج شيئا يذكر في التبادل التجاري حالها حال سيراف ، وإن معظم الرحالة الأوربيين يجزمون أن موقعها هو سر ازدهارها . الا أن الفرق بين سيراف وهرمز هو أن تجار وبحارة سيراف كانوا أكثر نشاطا في العلاقات الخارجية من أهالي هرمز ، فبينما توسع السيرافيون في بحر العرب والمحيط ركـز الهرامـزة نشاطهم على مياه الخليج العربي . ولكن عنصر الفرد لم يخل من هرمز فقد نشأت على ايدي تجار هاجروا اليها من مراكزهم التجارية على الساحل الشرقي للخليج بسبب غارات التتار ثم اعتداءات بدو فارس ، واستطاعوا في فترة وجيزة انشاء هذا الميناء العظيم على الجزيرة المقابلة للساحل(١٧) .

اما المجموعة الثانية من هذه المراكز فتختلف عن مجموعة سيراف وهرمز في كونها تتمتع بظروف طبيعية أفضل ، فعلى سبيل المثال تتمتع البصرة بانتاج زراعي وفير وبخاصة التمور التي تعتبر اهم المنتجات ، ولكن اهم مايميز البصرة هو موقعها الاستراتيجي فهي تقع في اخر المطاف لسفن المحيط الهندي التي تفرغ بضائعها لتنقل عبر الصحراء الى البحر المتوسط ، لذا تميزت البصرة بكونها ميناء الى جانب كونها مركزا تجاريا او سوقا لتبادل السلع كهرمز وسيراف . بل وربما كان البصريون يمارسون التجارة ، في سيراف وهرمز حيث ينقلون السلع الشرقية الى بغداد وحلب . أما البحرين فقد كانت ميزتها تكمن في لؤلؤها الناصع البياض ، ثم تحولت هذه الجزر الى مركز توزيع للبضائع في المنطقة الشرقية من شبه الجزيرة العربية ، أما عمان فقد كان لها دور مزدوج فهي تتميز بموقعها على مدخل الخليج حيث يلتقي بحر العرب ومياه الخليج . كما انها تتمتع بالطبيعة الخصبة وعلاوة على ذلك فإن العمانيين يعتبرون بحارة المحيط الهندي (كما يسميهم المسعودي) ولهذا تحولت عمان الى سوق رائجة . أن هذه الظروف والاحوال الطبيعية التي تميزت بها هذه الموانيء جعلتها تحافظ على استمرار دورها عبر العصور على عكس سيراف وهرمز . فالبصرة وعمان والبحرين قامت بهذا الدور في فترة العصور القديمة والإسلامية وقبل وأثناء الوجود البرتغالي وبعده حتى القرن التاسع عشر ، إلا أنها لم تحصل على شهرة هرمز العالمية التي تحدث عنها أهل البندقية .

من خلال عرضنا للمراكز التجارية في الخليج وبخاصة هرمز وسيراف يمكننا إستنتاج ما يلي ، أولا : للعنصر البشري دور هام في أهمية الخليج الاستراتيجية ، فمن خلال النشاط الملاحي للسكان استطاعت المنطقة أن تجـذب الخط التجاري بين الشرق والغرب كما خرج السـيرافيون والعمـانيون الى المحيط وانشأوا كيانات سياسية . في شرقي أفريقيا ودعموا تجارتهم في الهند وجنوب شرق آسيا ، واستطاع الهرامزة أن يصنعوا من جزيرة قاحلة اجمل وأنشط

المدن التجارية في العالم أنذاك . هذا ولا يمكننا إغفال تأثير الظروف السياسية المساعدة لذلك . ثانياً : ان اقتصاد المنطقة وازدهارها اعتمد اعتماداً اساسياً على التجارة . واذا كانت صادرات المنطقة لم تعادل كفة وارداتها في الميزان التجاري - فاللؤلؤ والتمور والحرير الايراني وبعض المصنوعات الخفيفة لم تعادل قائمة السلع القادمة من الهند والصين وجنوب شرقي أسيا وشرقي أفريقيا - فإن عرب الخليج استطاعوا من خلال نشاطهم التجاري الخارجي أن يأتوا بالمعادن النفيسة وخاصة الذهب من شرقي أفريقيا ، ولا شك أن الدور الأهم هو ما قام به تجار البحر المتوسط لتغطية الفرق في الميزان التجاري عن طريق شرائهم للسلع الشرقية في موانيء الخليج .

نشاط البرتغاليين في الخليج العربي

إن الفترة التي وصل فيها البرتغاليون الى الشرق - نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر - تعتبر من احرج الفترات للباحثين والمتخصصين في العلاقات بين الغرب والشرق (وبخاصة المحيط الهندي) . فبينما كانت دول وممالك الشرق تعاني من الركود العام في اوضاعها السياسية والاقتصادية والتقنية كانت الدول الاوربية في تطور سريع على الرغم من أن أنظمتها كانت لا تزال متخلفة نسبيا عن الدول الشرقية . فعلى سبيل المثال تأثرت دول في المنطقة العربية تأثراً كبيراً في النواحي الإقتصادية والسياسية والتقنية منذ ضعف الدولة العباسية حتى مجيء البرتغاليين ، فتأثرت تجارة المنطقة بسبب الثورات ضد الدولة العباسية واضطربت الخطوط التجارية فتارة تنشط منطقة الخليج العربي وتارة أخرى يسيطر البحر الاحمر على هذه الخطوط وفي أحيان أخرى تنشط الطرق التجارية البرية . ومن الناحية السياسية نجد أنه بالرغم من ضعف مركز العباسيين ثم سقوط دولتهم ، فقد نشأت كيانات سياسية كالقرامطة والمماليك والصفويين فيما بعد ، واستطاعت هذه الكيانات الصمود ضد الكثير من الاعتداءات الخارجية كما استطاعت ان تغير تنظيم التجارة والحياة الاقتصادية . لكنها في ميدان العلوم والتطور التقني شهدت في هذه الفترة جمودا واضحا بالمقارنة مع عصر الدولة الاموية والعباسية الأولى . ومع ذلك فإن المنطقة العربية ظلت محافظة على ثرائها ومكانتها بين الشرق والغرب .

اما بالنسبة للبرتغاليين فيصعب تحديد قوتهم العسكرية في مواجهة القوى الاخرى سواء أكان ذلك في المحيط الهندي أم في البحر المتوسط ، فقد هزم البرتغاليون هزائم نكراء في معارك مختلفة طوال فترة القرنين الخامس عشر والسادس عشر .[١٨] ومن أهم الهزائم التى لحقت بهم في البحر المتوسط هزيمتهم في المغرب العربي في موقعة طنجة في عام ١٤٣٧م[١٩] وهزائمهم أمام العثمانيين في عدة مواقع في المحيط الهندي والخليج العربي .[٢٠] ومع كل ذلك واصل البرتغاليون سيطرتهم على الشرق - وان لم تكن سيطرة كاملة على المحيط الهندي - مما جعل كثيراً من الباحثين يعزون الانتصارات البرتغالية الى تفكك القوى السياسية في آسيا . أما من الناحية الاقتصادية فلم يصل

البرتغاليون إلى المحيط الهندي دون عناء أو خبرة ، بل لقد ظلوا طوال فترة القرن الخامس عشر يتمرسون على إنشاء المستعمرات وإدارتها .

في عام ١٤٤٨ انشأ البرتغاليون قلعة وحامية في جزيرة ارقوبيم بالقرب من السنغال ومن هذه الجزيرة اخذوا يمارسون تجارة الرقيق والذهب حتى أصبحت البرتغال مركزا رئيسا لتجارة الرق في البحر المتوسط .[٢١] ويبدو ان البرتغاليين ظلوا طوال النصف الثاني من القرن الخامس عشر منهمكين في بناء القلاع على الساحل الغربي لأفريقيا وفي تنظيم التجارة هناك وخاصة المتعلقة باستيراد الذهب الذي راحوا يتوغلون في البحث عنه جنوبا .[٢٢] .

وعندما وصل البرتغاليون إلى المحيط الهندي سارعوا إلى تطبيق خبرتهم وادارتهم المكتسبة في سواحل غرب أفريقيا ، فبناء القلاع والحاميات والاعتماد على القوة البحرية دون التوغل الى الداخل واحتكار التجارة والروح الصليبية كل هذا اكتسبه البرتغاليون وطبقوه طوال فترة القرن الخامس عشر في غرب افريقيا ولكن الفرق بين الساحل الغربي لأفريقيا والمحيط الهندي هو أن المحيط بحر واسع تميز بتمرس تجارى وملاحي أكثر تعقيدا ، كما أن المنافسين في المحيط سواء من الناحية التجارية او العسكرية اقوى بكثير من الوضع شبه البدائي في غربي أفريقيا ، ومما لاشك فيه ان اهم ما تميز به الاستعمار البرتغالى هو سياسة السعي لإحتكار التجارة الاوروبية الأسيوية (Euro-Asian Trade) التى تطورت لتشمل السيطرة على تجارة اسيا الداخلية (بين مختلف الموانيء والبلدان الأسيوية ـ Country Trade) والنزعة الصليبية التى جثمت بثقلها على المسلمين في سياسة البرتغاليين .

ولا شك ان رحلة فاسكودى جاما (De Gama) في عام ١٤٩٧ إلى المحيط الهندى كانت رحلة استكشافية ـ قام بها دي جاما بعد فشل بارثلوميو دياز (Bar-tolomeu Dias) في العبور الى الجهة الاخرى من افريقيا ولكنها وضعت القواعد الاساسية للاهداف البرتغالية فى الشرق ، الهدف الاول يكمن في القضاء على الوساطة العربية بين اوروبا والمناطق الاسيوية المنتجة للتوابل والعقاقير والعطور وغيرها وبذلك يتمكن البرتغاليون من تحويل البرتغال الى مركز تجارى ومالي وموزع رئيسى للسلع الشرقية فى اوروبا . ومن ناحية اخرى ضرب الدولة العثمانية في عقر خزانتها . اما الهدف الثاني فيتمثل فى اكتساح الاراضى الاسلامية وفرض الديانة الكاثوليكية عليها ويوضح ذلك القرارات البابوية التى كانت تمنح الملوك البرتغاليين حق جمع الجباية وبعض الامتيازات المالية الاخرى لتشجيعهم على الاستمرار فى محاربة الاسلام والمسلمين وغزو اراضيهم ، لذا فإن السيطرة على الاراضى غير المسيحية عامة والإسلامية منها بخاصة اعتبرت واجبا دينياً بالنسبة للبرتغاليين فى المحيط الهندى .

وفي الخليج العربي بدات القوات البرتغالية تطبيق سياستها في السيطرة على الخليج لمنع تدفق السلع الشرقية عبر الخليج وخاصة بعد فشلهم فى الاستيلاء على عدن فى عام ١٥٠٧ والاكتفاء بأحتلال سوقطرة ، واحتلال مسقط وصور وقريات ومطرح وهرمز والبحرين ، واتباع سياسة احراق

السفن العربية الراسية وتدمير الموانىء (ما عدا تلك التى خطط البرتغاليون فيما بعد لاستغلالها)، والقرصنة ضد السفن العربية فى الخليج او المحيط ومصادرة بضائعها وقتل ربابنتها وملاحيها واغراقها ، وغير ذلك من التصرفات التى توضح هدف البرتغاليين فى الخليج وهو التخلص من النشاط التجاري والملاحي العربي .

لم تستمر تلك السياسة البرتغالية أكثر من نصف عقد من الزمان ، يتبين ذلك من المراسلات التي كانت تتم بين القواد البرتغاليين فى الخليج والملك فى البرتغال ونائب الملك فى جوا اذ انه سرعان ما ادخلت تعديلات مهمة على تلك السياسة بعد ان تبين للقواد ان العلاقة بين آسيا والعالم العربي علاقة عريقة وأن إغلاق البحر فى وجه التجارة العربية ـ الآسيوية قد يؤدي الى تنشيط الطرق البرية التى لا يمكن للبرتغاليين التحكم فيها . ولذا لم يمض العقدان الاولان من القرن السادس عشر حتى قرر البرتغاليون عدم اغلاق الخليج تماما في وجه الملاحة العربية ، بل اتبعوا سياسة فرض الوساطة البرتغالية عليها تفاديا لاتصالهم بالمناطق المنتجة بريا . وعمل البرتغاليون على أن تكون هرمز قاعدة لامتصاص سلع الجزيرة العربية والعراق والشام وتوزيع سلع الهند والشرق الاقصى على موانىء الخليج . وفى رسالة بعث بها حاكم هرمز الى الملك البرتغالي فى عام ١٥١٤ ذكر الحاكم بأنه يعلم ان البصرة تقوم بتزويد العالم العربى وفارس والدولة العثمانية بالتوابل وغيرها من السلع الشرقية ولكنه لا يعتقد ان فى ذلك تهديدا للمصالح التجارية البرتغالية ما دامت الكميات المحصل عليها محدودة لا تسمح بوصولها الى اوروبا . كما يذكر الحاكم انه سمح للسفن العربية بالتجارة شريطة حصولها على تصريح بمزاولة التجارة من الحاميات البرتغالية وشريطة الاتجار (في منطقة الخليج) مع هرمز وحدها .[٢٣]

ان أهم الموارد الطبيعية التى لفتت انتباه القائد البرتغالي افونسو دالبوكيرك نائب ملك البرتغال فى الهند لؤلؤ الخليج خاصة فى المياه المحيطة بجزر البحرين ، لذا كتب البوكيرك الى الملك البرتغالى بعد شهور قليلة من احتلاله هرمز يذكر رغبته فى احتلال البحرين والسيطرة عليها سيطرة مطلقة . وفى رسالة اخرى ذكر انه يتمنى ان ينتزع اسم محمد (الاسلام) من البحرين وذلك لأن هذه الجزر منطقة غنية جدا حيث يكثر بها اللؤلؤ ...[٢٤] وفى عام ١٥١٤ عاود البوكيرك اتصاله بالملك البرتغالى حول اللؤلؤ فى الخليج وذكر ان لؤلؤ البحرين يرسل الى هرمز وجوا فى الهند وأن التجار المسلمين فى البحرين يحتكرون تجارة اللؤلؤ وانهم يكسبون ارباحا طائلة من هذه التجارة واختتم البوكيرك رسالته : « إن البحرين جوهرة لا يمكن تركها فى ايدي المسلمين »[٢٥] وفى عام ١٥٢١م أجيز للبوكيرك احتلال البحرين فاحتلها وعين حاكما برتغاليا لادارة ومراقبة صيد وتجارة اللؤلؤ . وفى ظل الفساد الذى عم الحاميات والقلاع البرتغالية فى الشرق بشكل عام ، وربما فى الخليج بشكل خاص . وبسبب عمل القواد البرتغاليين لحسابهم الخاص ، بدأ انتاج اللؤلؤ فى جزر البحرين يتأثر بشكل كبير ، فقد كتب الرحالة البرتغالى بيدرو تكسيرا (Teixeira, B.) فى رحلاته التى بدأها فى عام ١٦٠٤م أن قيمة اللؤلؤ الذي تصدره

البحرين تبلغ حوالى ٥٠,٠٠٠ دوكات وهناك ما لا يقل عن ١٠٠,٠٠٠ دوكات من اللؤلؤ يهرب من قبل البحارة العرب وذلك خوفا من بطش القائد (الحاكم) البرتغالي الذى قد يصادر ما يستهويه من كميات[٢٦] ولا شك أن تلك السيطرة قللت من دخل اللؤلؤ على أهالى المنطقة خاصة وأن هذه الحرفة اشتغل بها اكثر من ٣٠,٠٠٠ عامل كانوا يستخدمون ما لا يقل عن ٤,٥٠٠ سفينة ومما لا شك فيه ايضا ، ان هذا الامر ادى الى خفض مستوى دخل الفرد والمعيشة بشكل عام[٢٧] .

اما السلعة الاخرى التى حاول البرتغاليون السيطرة عليها ، وتم لهم ما أرادوه خلال النصف الاول من القرن السادس عشر فهي تجارة الخيول العربية . فعندما احتل البوكيرك جوا (Goa) على الساحل الشرقي لشبه القارة الهندية ، اكتشف ان التجارة في الخيول تحتل المرتبة الثانية بعد التوابل من حيث الاهمية ، وأن مصدر هذه الخيول هو الخليج العربى - ويذكر احد الرحالة : ان أفضل الخيول في الشرق هى الخيول العربية التى تستخدم لاغراض الحرب والتدريب وتليها الخيول الفارسية ، اما الخيول التى تنتجها منطقة كوجرات في الهند فليس لها أهمية تذكر من حيث التجارة ، كما اكتشف البوكيرك ان الخيول القادمة من الخليج تشكل اكثر من نصف عائدات جوا الجمركية (بسبب ارتفاع اثمانها والرسوم الجمركية المفروضة عليها) وأن جوا وحدها تستورد ما لا يقل عن ألف جواد من تلك الخيول سنويا . لذا فرض البوكيرك احتكار هذه السلعة في محاولة لتركيز التجارة فيها ، فمنع أياً من السفن الأسيوية من الاتجاه الى أى ميناء عدا جوا اذا ما كان على ظهرها ولو فرس واحدة . ولقد نجح البوكيرك في هذا الاحتكار ، ففي عام ١٥١٤م كانت عائدات جوا الجمركية من الخيول تقدر بحوالى ٥٠٠٠ كروسادوس وارتفعت في ١٥٢٣م الى ١٨,٠٠٠ ، وفي الاربعينات وصلت الى ٦٥,٠٠٠ الا انها هبطت بشكل حاد في النصف الثاني من القرن نفسه وذلك بسبب القانون الملكى البرتغالي الجديد الذي يحرم بيع الخيول لعبدة الأوثان والمسلمين باعتبار ان الخيل آلات حربية[٢٨] أن سياسة البرتغاليين تجاه تجارة الخيول سواء أكان ذلك في مرحلتها الاحتكارية أم التحريمية أثرت كثيرا على تجارة العرب بشكل عام فقد كانت هذه الخيول تأتى من البصرة والساحل الشرقي لشبه الجزيرة العربية عن طريق البحرين لتلتقى في هرمز ، وفي هرمز يستغل القواد البرتغاليون قانون الاحتكار ليفرضوا شراءها بالاسعار التى تلائمهم[٢٩] ولا شك ان قانون التحريم أصبح مبررا لذلك .

ولم يحصل البرتغاليون في الخليج على مورد بحري آخر للسيطرة عليه فركزوا على التجارة الداخلية سواء بين موانىء الخليج بعضها والبعض أو بينها وبين موانىء المحيط الهندى ، لقد تعددت أشكال السيطرة البرتغالية على التجارة ، وحددها الاستاذ بيرسون (M.N. Pearson) فيما يلى ، أولا : احتكار تجارة التوابل الى أوربا ، ثانيا : احتكار التجارة بين بعض موانىء اسيا (وهذا ما يمكن أن نطلق عليه تجارة آسيا الداخلية - Country Trade) ثالثا : السيطرة ثم توجيه التجارة في المحيط

الهندي وفرض الضرائب على هذه التجارة وأخيراً : التجارة الخاصة أو الشخصية لكل برتغالي يعيش في الشرق .(٣٠) .

ولا شك ان بيرسون يعني تلك السيطرة التي فرضها البرتغاليون على تجارة المحيط الهندي بأكمله ولكنها لم تطبق حقيقة الا في منطقة الخليج . وكما ذكرنا سلفا فان البرتغاليين ادركوا انهم لن يتمكنوا من احتكار التجارة دون القضاء على النشاط الملاحي والتجارى العربى لهذا اتبعوا السياسة التعسفية تجاه السفن والموانىء العربية وسنذكر أبعاد ذلك وتأثيره على الملاحة العربية فيما بعد .

اما بالنسبة لاحتكار التجارة بين موانىء آسيا (تجارة آسيا الداخلية) فكما ذكرنا فإن البرتغاليين احتكروا التجارة في الخيول وتدخلوا في تجارة اللؤلؤ ، الا أن الاهم من ذلك هو تكثيف نشاطهم التجاري بين موانىء آسيا ومحاولة احتكارهم لهذه التجارة . لقد أدرك البرتغاليون ان التجارة بين آسيا وأوربا ما هي الا جزء من التجارة في آسيا ، وان تجارة البرتغال المعتمدة على الاستيراد والتصدير لآسيا لا تشكل الا جزءا من التجارة الاوربية - الآسيوية (Euro – Asian Trade) كما أن الارباح التي تدرها التجارة داخل المحيط الهندي اكثر بكثير من تلك الارباح التي تجنى من التجارة بين أوربا وآسيا . لأن الارباح التي تجنيها رحلة تجارية من البرتغال الى الشرق لا تزيد على ٣٣,٠٠٠ كروسادوس ذهابا وايابا بينما الرحلة الواحدة من جوا الى اليابان مارة ببعض الموانىء تدر ربحاً يقدر بحوالى ٩٢,٠٠٠ كروسادوس(٣١) لهذا كثف البرتغاليون نشاطهم التجارى في آسيا سواء عن طريق الاحتكار الملكى أو بيع التراخيص للتجارة الخاصة كما أن هناك جانبا هاما وهو التجارة غير المشروعة التى ادارها القواد البرتغاليون دون تصريح من الحكومة .

ولتحقيق الاحتكار البرتغالى للتجارة بشكليها . الآسيوية - أوربية والآسيوية كان لا بد من ايجاد نظام للمراقبة والسيطرة ، لهذا ابتدع البرتغاليون نظام (Cartaz) أو الرخص الملاحية . وعندما شعر البرتغاليون في الخمسينات باستمرار تدفق السلع الشرقية عبر البحر الاحمر الى موانىء البحر المتوسط وقدرة السفن العربية على ايجاد طريقها ابتدع البرتغاليون نظام (Cafilas) ، القافلة (ويعنى الابحار في شكل قوافل بحرية وتحت الحماية البرتغالية . وقد وصل عدد السفن في هذه القوافل إلى اكثر من مائتى سفينة)(٣٢) .

ونظام الرخص (Cartaz) كان يعتبر من أهم مصادر الدخل للخزانة الملكية ، كما أن أهميته تكمن في توجيه التجارة الى الموانىء البرتغالية ومراقبة التجارة في الشرق ، فبموجب هذا النظام كان يتحتم على كل سفينة آسيوية الحصول على جواز عن طريق دفع ضريبة معينة في احد الموانىء أو المواقع البرتغالية ، ويحدد في كل تصريح أو رخصة الموانىء التى يحق للسفينة دخولها والسلع التى يسمح لها بحملها . ويحق للسفن البرتغالية تفتيش اى سفينة آسيوية واذا ما اكتشف ان اية سفينة لا تحمل هذا التصريح يكون عقابها كالتالى : اذا كان من بين المخالفين برتغاليون او سفن برتغالية (تجارة خاصة) فإن المرسوم الملكى يقضي بمصادرة جميع املاكهم ويفصلون من

الخدمة اذا كانوا من موظفي الحكومة ، أما اذا كانوا من المسلمين فانه يتم مصادرة جميع املاكهم بما فيها سفنهم (تدمير السفن) وسجنهم ويعاملون معاملة سيئة . هذا من الناحية القانونية ولكن التطبيق كان يختلف تماماً ، فالمسلمون عندما كانوا يكتشفون مخالفين فإنهم كانوا يقتلون ف الحال .(٣٣) .

والحقيقة ان نظام القافلة لم يطبق في الخليج بل استخدم بين اقليم كوجرات ف الهند وموانيء شرق افريقيا واليمن ، لكن نظام الرخص الملاحية كان من أهم ما شهدته منطقة الخليج حيث اعتمد البرتغاليون اعتمادا أساسيا على التجارة والملاحة ف ازدهارها مركزين نشاطهم الملاحي على شرقي افريقيا والساحل الغربي لشبه القارة الهندية التي استطاع البرتغاليون السيطرة عليها بقلاعهم وسفنهم وأنظمتهم الادارية ، فمنعوا أو على الاقل حدوا من التعامل التجاري العربي مع تلك الموانيء .

واذا كانت الأنظمة الادارية البرتغالية المبتدعة قدحدت من نشاط عرب الخليج التجارى والملاحى ، فان الفساد وسوء استغلال صلاحيات القواد والبيروقراطيين البرتغاليين في الشرق عامة وفي الخليج بشكل خاص اضافة الى طغيان النزعة الصليبية والغطرسة الارستقراطية البرتغالية قد زاد من عتمة تلك السيطرة . لقد كان الربح السريع هدف جميع البيروقراطيين البرتغاليين . وتذكر وثائق الكراملة الكاثوليك ف الخليج الكثير من حوادث التفسخ والجشع الادارى ف الحاميات البرتغالية ، في عام ١٦٠٧م كتب كرملي هرمز شاكيا الى مسئوليه : « ان قائد هرمز (حاكم هرمز البرتغالى) يجبر التجار القادمين الى هرمز (عربا أو غيرهم) بالقوة على بيع سلعهم له وشراء السلع التى يعرضها عليهم بنفسه والتى لا يرغبون ف شرائها ناهيك عن الاسعار المرتفعة التى يحددها والتى عادة ما تكون مرتفعة عن معدل سعرها ف السوق بما لا يقل عن ستين ف المائة . فعلى سبيل المثال ، عندما يصل التاجر (الآسيوى) الى هرمز ومعه ١٠٠٠ سكودى لشراء قماش (القماش الاوربى من نوع -Cloth) يأخذ القائد البرتغالى النقود لشراء القماش ويسلمة بدلا منه توابل وبضائع لا يرغب ذلك التاجر في شرائها ولكن باستخدام التهديد يضطر التاجر لقبول هذه السلع ، التى لن يستطيع بيعها ف بلاده . حتى بأسعار أدنى بكثير مما تساوى ف سوق هرمز نفسها . ولعدم تحمل بعض التجار هذا الظلم فانهم كانوا يقومون بحرق البضائع التي أجبروا على شرائها أمام القلعة البرتغالية ، كما أن القواد كانوا يصادرون الخيول القادمة من الخليج والتى أتى بها التجار لبيعها ف هرمز ، وبعد فترة يدفع القواد البرتغاليون ما يحلو لهم لهؤلاء التجار - وكان أقل بكثير من سعر السوق ..(٣٤) ويواصل الكرملي رسالته فيذكر بأن ذلك التصرف يعتبر عاراً على المسيحية .

واذا كان ذلك رأى الكراملة في الادارة البرتغالية لهرمز مع أن هؤلاء الكراملة كانوا يتسلمون مساعدات مالية من الحاميات مع مساعدتهم كذلك ف نشاطهم التنصيرى وحمايتهم ف الشرق ككل ، فلا بد أن الاوضاع ف المعاقل البرتغالية ف الخليج والشرق بشكل عام كانت أسوأ بكثير من ذلك . فكما ذكرنا

سابقا فإن قتل المسلمين كان مباحاً بالرغم من أن القانون لا يذكره صراحة .

التأثير البرتغالي وأبعاده :

استطاع كثير من المؤرخين خلال العقود الثلاثة الماضية اثبات ان البرتغاليين فشلوا في جميع خططهم للسيطرة على التجارة في المحيط الهندي ، وأن نجاحهم الوحيد يكمن في اكتشاف راس الرجاء الصالح . فلم ينجح البرتغاليون في احتكار التجارة الشرقية ولم يتحقق حلمهم في تحويل البرتغال الى الموزع الوحيد للتوابل الشرقية في اوربا ، كما أنهم لم يزيدوا من حجم التجارة بين القارتين ولم يضيفوا اليها سلعاً جديدة ، ولم يوفقوا في ايقاف النزيف الذى كانت تعاني منه أوربا من جراء التجارة مع آسيا . ولم يحدث البرتغاليون اى اثر فعال في التجارة الآسيوية بل اتبعوا النمط الآسيوى للتجارة والاهم من ذلك كله هو أنهم فشلوا في توجيه التجارة الآسيوية والسيطرة على الملاحة في المحيط الهندى ..[٣٥] .

ولكن اذا كان البرتغاليون قد فشلوا في السيطرة على التجارة والملاحة في المحيط الهندي ، كما أثبت هؤلاء المؤرخون ، فانهم نجحوا في السيطرة التامة على منطقة الخليج العربي ، ورغم أننا نعتبر الخليج العربى وحدة اقتصادية وحلقة من أهم الحلقات الاقتصادية للمحيط الهندى فإنه ـ وفى ظروف الاستعمار البرتغالى ـ اختلف وضعه وسقط فى يد السيطرة البرتغالية التامة .

أن الدليل الوحيد الذي يستند اليه المؤرخون ـ ولعل المفكر والمؤرخ بروديل (Brudel) من اهم هؤلاء المؤرخين ـ فى قضية الاحتكار البرتغالى هو وصول التوابل والسلع الشرقية الاخرى الى موانىء البحر المتوسط دون الوساطة البرتغالية ، ولا بد لنا هنا من التطرق لبعض الامثلة . فبعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح اتخذت الحكومة البرتغالية بعض الاجراءات لتحقيق عمل الاحتكار ، ففى عام ١٥٠٤ تم اعلان احتكار التجارة في التوابل للتاج البرتغالي وحدد الملك سعرا رسميا واحدا لبيع الفلفل . وفي العقود الثلاثة الاولى من ذلك القرن نجحت لشبونة فى عملية الاحتكار واخذت السفن البرتغالية ذاتها توزع التوابل على موانىء البحر المتوسط ، ولما شعر البنادقة بالضيق الاقتصادى توجه فريق من مجلس شيوخ البندقية فى عام ١٥٢٧ الى لشبونة ليعرض على ملك البرتغال شراء كل التوابل القادمة الى لشبونة من الهند ، بمعني ان يصبحوا وكلاء البرتغاليين فى البحر المتوسط ، الا ان طلبهم رفض . ومع بداية العقد الرابع من القرن بدأت الوثائق والرسائل التجارية الخاصة تثبت لنا ان التوابل اخذت تصل الى البحر المتوسط بكميات تجارية ، وفى عام ١٥٤٠م ظهر تأثير التوابل القادمة عن طريق الموانىء العربية فى البحر المتوسط على اسعار التوابل المستوردة عن طريق البرتغال .

وفى عام ١٥٥٤م اشترى تجار البندقية حوالى ٣٠٠ طن توابل من الاسكندرية وقيل في حينها إنها تمثل حوالي نصف مبيعات مصر . ومع بداية العقد السادس ذكر أحد المراقبين البرتغاليين أن حركة بيع وشراء التوابل فى مصر تتراوح بين ١٢٥٠ و ١٥٠٠ طن سنويا . وفى عام ١٦٦٥ ذكر سفير البندقية فى القاهرة أن ١٠٠٠ طن من الفلفل وصلت الى جدة ومن المتوقع ان تصل الى القاهرة

والاسكندرية قريبا .[٣٦] وفي نفس العام اشارت مصادر التجار البنادقة في القاهرة الى وصول ثلاث سفن من أجه ، وذكرت انه وصلت الى جدة خمس سفن من سومطرة وعشرون سفينة أخرى من مختلف موانىء الهند وانه من المتوقع وصول سفينتين اخريين من اجه ذواتي حمولات كبيرة . وفي عام ١٥٦٦ بلغت حمولة السفن من الفلفل التى افرغت في جدة حوالى ٢٤٠٠٠ كانتر . وتذكر مصادر العقد الثامن من ذلك القرن ان ما لا يقل عن أربعين سفينة من ذوات الحجم الكبير تدخل البحر الاحمر محملة بالتوابل . هذه الاحصائيات وغيرها جعلت بروديل (Brudel) يحدد على اقل تقدير كمية التوابل التى تصل الى البحر المتوسط عن طريق البحر الاحمر بما يتراوح بين ٣٠٠٠٠ و ٤٠٠٠٠ كوينتال ، مما يعني ان هذه الكمية وحدها تعادل الكمية التى تصل الى البرتغال عن طريق راس الرجاء الصالح[٣٧] .

ولا شك ان هذه الادلة القاطعة عن وصول البضائع عن طريق البحر الاحمر الى البحر المتوسط تدل ايضا على ان البرتغاليين فشلوا في اغلاق البحر الاحمر في وجه السفن والتجارة الاسيوية ، سواء أكانت هذه السفن عربية أم هندية ـ فقد استطاعت هذه السفن تحاشي المواقع والسفن البرتغالية كي تقوم بتسريب البضائع الى موانىء البحر المتوسط . ولكن ذلك الوضع لا يمكن تطبيقه على منطقة الخليج العربي ويخطىء كثير من المؤرخين عندما يجزمون بأن وضع الخليج العربى مشابه من هذه الناحية للوضع في البحر الاحمر معتمدين على وصول بعض السلع الى حلب في بلاد الشام[٣٨] ولابد لنا هنا من عرض وتحليل بعض الامثلة حول هذا الامر .

تشير المراسلات بين تجار حلب انه في عام ١٥٧٩ تم شحن سفينتين كبيرتين من سفن البندقية بالسلع من طرابلس الى الشام . وتشير رسالة اخرى من تاجر حلبي يؤكد فيها وصول قافلة تبلغ ٢٠٠ حمل بعير من الحرير و٢٥٠ حملا من التوابل يصحبها تجار فرس ومسيحيون . وفي نفس العام ايضاً أعلن قنصل البندقية في الشام عن سفر سفينتين كبيرتين بندقيتين (أخريين) مشحونتين بالتوابل والحرير ومتجهتين الى البندقية .

وفي عام ١٥٨٣ يصف احد التجار المراقبين طرابلس الشام وحلب بأنهما مدينتان مكتظتان بالتجار المسيحيين ، وان هناك تجارة ذات حجم كبير ونشاط واسع بين بغداد وحلب . اما بالنسبة للبصرة فيذكر انه شاهد حوالى ٢٥ غراباً تركياً راسية في الميناء وان جميع هذه السفن ذات حمولات تتراوح بين ٤٠ و ٦٠ طنا وهي تأتى للبصرة من هرمز محملة بمختلف انواع السلع الهندية التى تشمل التوابل والعقاقير والنيلة وأقمشة كاليكوت ..[٣٩] .

ليس هناك ادني شك في وصول السلع الشرقية الى حلب فجميع هذه الادلة تؤكدان حلب وطرابلس في الشام ، والاسكندرية والقاهرة في مصر ، والبندقية في ايطاليا ، وربما جميع موانىء البحر المتوسط لم تتأثر بالاحتكار البرتغالي للسلع الشرقية (اذا كان ذلك الاحتكار ناجحاً) . ولكن وصول السلع الى حلب وطرابلس الشام الذي يعتبره المؤرخون دليلا على فشل البرتغاليين في

السيطرة والتحكم في مياه الخليج العربي هو دليل لا يمكن الاعتماد عليه وذلك لما يلي :

اولاً : إن وصول السلع الشرقية الى حلب لا يعني أنها وصلت عن طريق الخليج العربي فهناك ادلة أخرى قاطعة على ان الطرق التجارية البرية القديمة استعادت نشاطها في تلك الفترة بسبب السيطرة والتسعف البرتغالي في الخليج .

فيذكر التاجر (الوكيل) الانجليزى ستيل (Steele) في التقرير الذي رفعه الى مجلس ادارة شركته ـ شركة الهند الشرقية الانجليزية ـ في عام ١٦١٥ أن قندهار بدأت تزدهر وتتوسع الى درجة ان ضواحيها الجديدة تعد أكبر من المدينة نفسها ويجعل السبب الرئيسي لأزدهارها انتعاش الخط التجارى المار من الهند الى فارس . في ذلك الوقت وربما لسنوات مضت كان كل تجار الهند يتجمعون في لاهور لشراء بضائع بمبالغ ضخمة ويكونون قوافل لعبور جبال قندهار الى فارس . وتتكون هذه القوافل من اثنى عشر الى اربعة عشر الف جمل محملة حمولة كاملة ، وهذا العدد اكثر بكثير مما كانت عليه القوافل التى تسلك نفس الخط في السابق حيث انها لم تكن تزيد على ثلاثة آلاف جمل وكانت البقية تسلك طريق البحر الى هرمز . وتؤكد رسالة برتغالية لأحد الكرامله (من هرمز الى اسبانيا) على تحول التجارة الى الطرق البرية بدلا من هرمز ، فيذكر ان الظروف الصعبة التى عانى منها التجار في هرمز كانت السبب الرئيسي لبحثهم عن طريق جديد فأستخدموا الخط التجارى من لاهور والمار بقندهار الى فارس ويقترح هذا الكرملي تحسين معاملة التجار في هرمز والسماح لهم بنقل بضائعهم على السفن البرتغالية الى هرمز او اى ميناء من الموانىء البرتغالية .. لأنه بهذا يمكن اعادتهم للتجارة مع هرمز .. وتذكر المصادر الاخرى بأن الفرس ، وخاصة الشاه عباس ، شجعوا التجار الهنود وغيرهم على استخدام هذا الطريق ، وتشير مصادر برتغالية في هرمز ـ في محاولة لتبرير سبب قلة عائدات هرمز الجمركية ـ إلى تجارة البحر المتوسط من البرتغال وسوريا قائلة ان السفن الكبيرة التى تأتى من موانىء الهند كانت تدفع ضرائب جمركية تقدر بحوالى ٤٥٠٠٠ باردوس ولكنها في السنوات الاخيرة لا تدفع الا ما يتراوح بين ٧٠٠٠ الى ١٠٠٠٠ باردوس وذلك لقلة ما تحمله من بضائع .(٤٢) .

والحقيقة ان احتكار الملوك الصفويين لتجارة الحرير في فارس جعلهم يشجعون تحول الخطوط التجارية ويدعمون تنشيط طريق قندهار ، فأعطى التجار التسهيلات وعبدت الطرق بين المدن الفارسية وبنيت بيوت الراحة للتجار والمسافرين على الطرق البرية . وقد ساعد وجود هذه الطرق التى ربطت اطول طريق تجارى في التاريخ ـ طريق الحرير الذي يبدأ من الصين وينتهى في بلاد الشام ـ ما قام به التجار والملوك الصفويون من استخدام لهذا الطريق والعمل على جعله طريقاً آمناً ، وكان ذلك في الحقيقة ضربه اقتصادية للحاميات البرتغالية في الخليج .

ويعتبر الشاه عباس من أشهر الملوك الصفويين الذين اهتموا بالاصلاحات في القطاع التجارى ، ولا شك أن اهتمام الملوك الصفويين يرجع الى احتكارهم لتجارة الحرير الإيراني . فقد جرت العادة على ان تكون تجارة الحرير في

فارس احتكارا ملكياً . فيقوم موظفو الحكومة بشراء الحرير من منتجي المناطق الشمالية ليتم تصديره للخارج (بلاد الشام و الهند او روسيا) بواسطة عمال او تجار الملك الذين كان أغلبهم من الأرمن .[41] . واذا ما دققنا في قائمة السلع القادمة الى حلب أو طرابلس من الشرق لوجدنا ان الحرير الإيراني يشكل معظمها ، وهذا يعني ان هذه السلع لم تمر عن طريق البصرة بل عن الطريق التجارى البرى بين فارس والعراق ، فمن المنطقي ان تجار الحرير لم يتجهوا الى جنوب فارس ليمروا بهرمز ويدفعوا ضرائب للبرتغاليين ثم يشحن الحرير الى البصرة .

الدليل الآخر على نشاط الطرق التجارية البرية هو انشاء الشركة الموسكوفية - الانجليزية ، التى تخصصت في التجارة مع فارس عبر الاراضي الروسية وبحر قزوين . ففي بداية الخمسينات من القرن السادس عشر وعندما وصلت المعلومات الى لندن عن توفر البضائع الهندية في شمالى فارس الى جانب الحرير الايراني وأن هذه المنطقة تستهلك الاقمشة الصوفية ، أرسلت بعثات لتقوم بدراسة للطريق عبر بحر قزوين[42] . وفي عام ١٥٦١ أعلن عن قيام الشركة المسكوفية الانجليزية ، التى قامت برحلة تجارية ناجحة في تلك السنة ، ثم تلتها عدة رحلات ناجحة على الرغم من الحجم المحدود لتلك التجارة بشكل عام ، ولكنها درت الكثير من الارباح على التجار المساهمين في هذه الشركة . ولا شك انه كان في مخيلة هؤلاء التجار أنهم سيستطيعون امتصاص التجارة . وفي بداية الثمانينات بدأت مفاوضات جادة بين الانجليز والاتراك للاتفاق على تحويل تجارة التوابل الى بحر قزوين على طريق البحر الأسود .[43] .

إن نشاط ملوك الفرس ومحاولة التجار الانجليز لدليل على أن الخطوط التجارية البرية نشطت مع بداية النصف الثاني من القرن السادس عشر ولعل توفر التوابل في شمال ايران يعتبر دليلا آخر على وصول هذه السلع عن طريق بري بين الهند وفارس .

ثانيا : ان نصيحة قائد هرمز بعد الاستيلاء على الجزيرة الى الملك البرتغالي في عام ١٥١٤ والتى تشير بالسماح بمرور بعض السلع عبر هرمز الى البصرة لتحاشي تنشيط الخطوط البرية القديمة تعتبر من أهم القرارات التى اتخذها البرتغاليون في ادارة المنطقة ، لهذا نجد بعض الرحالة الذين وصلوا إلى الخليج في تلك الفترة يتحدثون عن توافر السلع الهندية في البصرة ، كما أن هناك نسبة محدودة من السفن العربية التى استطاعت التهرب من الرقابة البرتغالية والتجار الذين استطاعوا تهريب بعض البضائع عبر هرمز عن طريق تقديم الرشاوى للقواد البرتغاليين .

لكن هذه الاساليب لا تقنع الباحث عن استمرار تدفق السلع عبر البصرة ، فالفساد الاداري البرتغالى كان له ايجابياته وسلبياته للتجار العرب وغيرهم من تجار الشرق والقواد البرتغاليون لم يسمحوا للتجار بمرور السلع الا بعد دفع الرشاوي الباهظة التى كانت ترفع أسعار هذه السلع الى ما نسبته ستين في المائة .

ثالثا : ان ما يوجد لدينا من أدلة حول مرور السلع عبر البصرة لا يبدأ تاريخها الا مع العقد الثامن من القرن لسادس عشر ، وهذا يعني ان البرتغاليين سيطروا

على الخليج لفترة قاربت الثمانين عاما ، وتشكل هذه الفترة اكثر من خمسة وسبعين في المائة من فترة الاستعمار البرتغالي للخليج العربي .

رابعا : لا شك ان الرحالة الاوربيين الذين مروا بهرمز خلال القرن السادس عشر دهشوا لازدهار التجارة بها ولكن ، ذلك لا يعني ان هرمز لم تتأثر تجاريا فإن ما شاهده هؤلاء الرحالة لم يبلغ الا ربع ما كانت عليه تجارة هرمز . ويذكر احد الكراملة في هرمز . ان تجارة هرمز اخذت في تدهور مستمر وأن اكثر التجار المحليين توقفوا على المجيء لهذه المدينة حتى صارت تجارتها لا تمثل الا ثلث ما كانت عليه سابقا ، ويرجع السبب في ذلك الى بطش القائد (الحاكم) البرتغالي في هرمز.[44] فلا ريب ان الفساد الاداري وجشع وقسوة القواد البرتغاليين كانت السبب الرئيسي وراء تدهور هرمز ثم سقوطها في عام ١٦٢٢ . ويواصل الكرملي حديثه .. ان سقوط هرمز في ايدى الانجليز (والمسلمين) يعتبر عقابا من الاله على خطايانا في معاملة الناس.[45] ولا شك ان الكرملي يعني بذلك القواد البرتغاليين الذين توالوا على حكم هرمز .

خامسا : ان ابعاد التأثير البرتغالي لا تكمن في فترة الاستعمار البرتغالي لمنطقة الخليج بل تمتد الى ما بعد خروج البرتغاليين من المنطقة ، وعلى الرغم من اتساع هذا الموضوع وحجمه فإننا سنحاول تحديد ذلك في الامور التالية :

١ - إن قضية تدهور هرمز ثم سقوطها في يد الشاه عباس بالتحالف مع الانجليز في عام ١٦٢٢ يعتبر حدثا هاما في مجرى التاريخ الاقتصادي للمنطقة لدرجة ان الاستاذ ستينسكارد (Steensgard) جعله عنوان اطروحته للتاريخ الاقتصادي لمنطقة المحيط الهندي بأكمله . فبعد الاستيلاء على هرمز أمر الشاه عباس بتدمير المدينة وهدم القلعة معلنا نهاية هرمز . ثم بنى ميناء جديدا على الساحل الايراني لكي يتسنى له السيطرة واطلق عليه « بندر عباس »وامر بنقل النشاط التجاري اليه . ولا شك ان الشاه عباس نجح في مخططه فالميناء الجديد بدأ يعمل بنشاط جعله يزدهر في خلال فترة وجيزة وبخاصة ان الشاه أعطى امتيازات تجارية للانجليز والهولنديين لممارسة التجارة في فارس كما انه اصلح الطرق المؤدية الى « بندر عباس » وبني عليها استراحات للمسافرين ونقاط حراسة الا ان نجاح « بندر عباس » يختلف كثيرا عن نجاح هرمز ، وذلك لأن هرمز كانت مركزا تجاريا بحريا تحدث عنه تجار العالم كله سواء في البندقية او في الصين ، اما بندر عباس فيعتبر من أهم موانيء المنطقة ولكنه لم يحظ بما حظيت به هرمز ، وفي الحقيقة فإن هرمز ومن قبلها سيراف وقيس تعتبر ظاهرة لم تتكرر بعد الاحتلال البرتغالي للمنطقة مما يدل على ان النشاط التجاري قد سلك نمطاً آخر يختلف عن النمط الذي تحدثنا عنه في الجزء الاول من هذه الدراسة في الفترة الممتدة بين سقوط الدولة العباسية والاستعمار البرتغالي .

٢ - إن تدهور الملاحة العربية يعتبر من أهم التأثيرات البرتغالية على المنطقة كما ذكرنا سابقا لأن البرتغاليين انتهجوا سياسة ذات نزعة صليبية وحشدوا عداءهم كله ضد العرب دون غيرهم من شعوب اسيا . فالبرتغاليون لم يعارضوا تطور الملاحة الهندية - ربما يكون هذا هو

السبب في تسرب البضائع الهندية عبر البحر الاحمر ـ سواء أكانت للمسلمين أم الهندوس ولم يتعرضوا لسفنهم طالما دفعت الضرائب لهم ، ولكنهم ركزوا على استئصال الملاحة العربية من المحيط الهندي ، ولهذا عندما بدأ العرب في استعادة مركزهم مع بداية القرن السابع عشر وجدوا أن هناك ملاحة هندية نشطة حلت محلهم على الرغم من أن عرب الخليج استطاعوا استعادة معظم ما فقدوه مع نهاية القرن السابع عشر لكنهم لم يتمكنوا من الهيمنة على منطقة بحر العرب : فبعد خروج البرتغاليين وجد عرب الخليج أنهم فقدوا الكثير من النشاط الملاحي الذي استولت عليه السفن الهندية وخاصة في منطقة كوجرات التي ملك أحد تجارها أكثر من خمسين سفينة وقيل ان عدد السفن المسجلة لدى الوكيل الانجليزي فقط كانت اكثر من الف سفينة .(٤٦) كما ان البحر الاحمر في القرنين السابع عشر والثامن عشر جذب اكبر عدد من السفن الهندية ، ولعل ذلك كان سببا في اعلان الادارة العثمانية في العراق عن التخفيض الحاد للرسوم الجمركية من ٨ و ١٠ في المائة الى واحد في المائة فقط مع نهاية القرن السابع عشر .(٤٧) ولهذا فإن بحرية الخليج العربي لم تتمكن من استعادة مكانتها بعد الاحتلال البرتغالي .

٢ ـ أن قضية تأثير رأس الرجاء الصالح على التجارة الآسيوية ـ الاوربية تناولها كثير من المؤرخين وأثبتوا أن نسبة ما كان ينقل من السلع عبر الطريق البحرى الجديد « رأس الرجاء الصالح » لم يتعد ٤٨٪ (ثمانية وأربعين في المائة) من اجمالي التجارة بين أوربا وموانيء المحيط الهندي ، بل ان هذه النسبة في أغلب الاحيان تراوحت بين الاربعين والخمسة والأربعين في المائة(٤٨) . ولكن اكتشاف رأس الرجاء الصالح واستخدامه كطريق تجاري وتأثيره على ممرات التدفق التجاري (الخليج والبحر الاحمر) لم يقتصر على فترة الاستعمار البرتغالي بل ظل يواصل تأثيره في القرون التالية . فالاستعمار الهولندي والانجليزي في الشرق كثف من نشاطه التجاري عن طريق رأس الرجاء الصالح ، لقد كان من اهم الأسباب التي أدت الى فشل البرتغاليين في زيادة تلك النسبة هو التكلفة العسكرية التي كانت مرتفعة جداً مما أدي الى ارتفاع اسعار السلع المستوردة عن طريق البرتغال ، فأدى ذلك الى تنشيط الطرق الاخرى القديمة وهي طريق البحر الاحمر والطرق البرية ، لكن القوى الاوربية الاخرى ، الهولندية والانجليزية ، استطاعت أن تخفض تلك التكلفة بالمقارنة بعصر البرتغاليين رغم انها لم تصل الى الحد المطلوب لتصبح اسعار السلع المستوردة عبر رأس الرجاء الصالح اقل من منافسيها .

لذا فإن تأثير طريق رأس الرجاء الصالح ظل مستمرا وربما يكون ذلك هو السبب في عدم ظهور مدن تجارية مثل هرمز وسيراف مرة اخرى بعد خروج البرتغاليين من المنطقة .

الخلاصة :

بعد ذلك العرض المفصل الذي قدمناه يمكن ان نلخص التأثير البرتغالي على الميدان الاقتصادي في منطقة الخليج العربي ، وتركز هذا الامر في ناحيتين :

الاولى : التأثير المباشر على الحياة

الاقتصادية في منطقة الخليج العربي اثناء هيمنتهم واستعمارهم لها (١٥٠٧ ـ ١٦٢٢م) ، وقد رأينا ان احتكار التجارة الاسيوية الاوربية لم يكن هو السبب الرئيسي لهذا التأثير ، ولكن كانت هناك أسباب عديدة متداخلة أدت الى تدهور الاوضاع الاقتصادية في المنطقة ، ومن أهم تلك الاسباب : أن الاحتكار التجارى كانت توجهه وتحدد مسارة في ميدان التطبيق تلك النزعات الصليبية البغيضة ، وإن فساد القواد البرتغاليين وسع هذا الاحتكار ليشمل التجارة والقرصنة الملاحية والضرائب الخاصة .

ولقد أدت هذه الاسباب الى تنحية الملاحة العربية الاسلامية جانبا ، وتقليص التجارة العربية في المنطقة ، وتدهور المدن التجارية الهامة مثل هرمز التى انتهى امرها قبل عام ١٦٢٢م . ومحاربة العقيدة الاسلامية ونشر النصرانية .

الثانية : مدى التأثير البرتغالي والآثار التى خلفها البرتغاليون في التاريخ الاقتصادي للمنطقة ، وقد لفتت هذه الدراسة النظر ، الى أن أهم تلك الآثار هى : أن ظاهرة ازدهار المراكز التجارية على غرار هرمز وسيراف .. الخ لم تتكرر في منطقة الخليج بعد خروج البرتغاليين منها ، وأن أهمية المنطقة كوسيط تجارى لنقل البضائع بين الشرق والغرب قد تضاءلت وانزوت خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر . وأن الملاحة الخليجية فقدت الجزء الأكبر من نشاطها في المحيط الهندى ، ولم تستطع ان تسترجع الا جزءا يسيرا منه . وقد أدت تلك العوامل الى :

١ ـ تغيير النمط التجاري لمنطقة الخليج العربي .

٢ ـ استمرار تطور منطقة البحر الاحمر ، وطريق رأس الرجاء الصالح على حساب منطقة الخليج العربى .

وأخيرا ، لا بد من الإشارة هنا الى أن أبعاد التأثير البرتغالي ومداه على الشرق عامة وعلى منطقة الخليج خاصة يعتبر من الموضوعات الخصبة التى تحتاج الى توجيه الدراسة إليها في الأبحاث والرسائل العلمية .

الدكتور خالد الخليفة
استاذ تاريخ الخليج العربى الحديث المساعد ـ جامعة البحرين

الهوامش

١ ـ د . جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام (بغداد ، ١٩٧٦م) جـ ١ ، ص ٥٥٦ .
٢ ـ نفس المصدر : ص ٥٦٥ .
٣ ـ رمزية عبدالوهاب الخيرو : تجارة الخليج العربي وأثرها في الحياة الاقتصادية في منطقة الخليج العربي والعراق منذ صدر الاسلام حتى نهاية القرن الرابع الهجري (بغداد ـ ١٩٨٧م) ص١٢٢ ـ ١٢٥ .
٤ ـ د . أحمد الساداتي : تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية ، (القاهرة ـ الألف كتاب ـ ١٥٨) جـ ٢ ، ص ١١٨ .
٥ ـ د . فاروق عمر : الخليج العربي في العصور الاسلامية (دبي ـ ١٩٨٣) ، ص ٦٧ ـ ١٢٧ ، ايضاد . رمزية خيرو ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٢١ ـ ١٣١ .
٦ ـ د . محمد كريم ابراهيم : عدن ، دراسة في أحوالها السياسية والاقتصادية (٤٧٦ ـ ٦٢٦هـ/ ١٠٨٣ ـ ١٢٢٨م) منشورات مركز دراسات الخليج العربي ، جامعة البصرة ، ١٩٨٥ ، ص ٢٧٦ ـ ٢٧٧ .
٧ ـ ابو جعفر محمد بن جرير الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ١٠ اجزاء (القاهرة ـ ١٩٦٢م) جـ ٣ ، ص ٢٧٢ .
٨ ـ ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ١٠ أجزاء (القاهرة ـ ١٩٠٦ أعيد استنساخه) جـ ٣ ، ص ٢٩٥ .
٩ ـ د . رمزية ، ص ١٤٤ .
١٠ـ السلوه في أخبار كلوه (لمؤلف مجهول) حققه محمد علي الصليبي ، اصدار وزارة التراث القومي والثقافة ، ١٩٨٥ ، سلطنة عمان ، ص ٢٧ ـ ٢٩ . انظر ايضا ، أحمد حمود المعمري : عمان وشرقي افريقيا ، وزارة التراث ـ سلطنة عمان . ١٩٧٩ ص ٤٤ ـ ٤٥ .
١١ـ الحموي ، معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص ٢٩٤ .
١٢ـ د . مصطفى عقيل الخطيب : التنافس الدولي في الخليج العربي ، ١٦٢٢ ـ ١٧٦٣م (بيروت ١٩٨١) ص ١٨ .
١٣ـ Wilson, Sir A.T., "The Persian Gulf" London, 1928, P. 106.
١٤ـ Ibid, PP. 140 - 8
١٥ـ A Chronicle of the Carmelites in Persia, (London, 1949) P.1040.
١٦ـ Ibid, P. 10401
١٧ـ د . مصطفى عقيل ، ص ١٦ . استخدامنا لكلمة «بدو» هنا للدلالة على وجود قبائل عربية في اقليم فارس على الساحل الايراني .

١٨ـ لمراجعة احدث ما كتب حول القوة العسكرية البرتغالية انظر :
د . عبدالامير محمد امين : نظرة جديدة للانجازات السياسية والعسكرية والتجارية البرتغالية في آسيا . دراسة في عوامل تدهور الامبراطورية البرتغالية وانحلالها ـ في دراسات مجلة علمية متخصصة تصدر عن الجامعة الاردنية ، ١٥/٧ عام ١٩٨٨ . ص ٢٦٧ ـ ٢٩٢ .

١٩ـ Davis, Ralph., "The Rise of the Atlantic Economies", (London 1973) P.4 – 5.

٢٠ـ د . مصطفى عقيل ، ص ٣٠ ـ ٣٧ .

٢١ـ Davis, Op.cit., P.6-7

٢٢ـ Vilar, Pierre. "A History of Gold and Money, 1450–1920 (Translated into English by Judith White) Published in English in 1976 (London) P. 53

٢٣ـ د . أحمد ابو شرب : مساهمة الوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ الغزو البرتغالي لسواحل المغرب والبحر الاحمر والخليج العربي ، مجلة الوثيقة الصادرة عن مركز الوثائق التاريخية بدولة البحرين ، العدد العاشر ـ السنة الخامسة ـ ١٩٨٧ ، ص ١٧٤ ـ ١٧٥ .

٢٤ـ أحمد ابو شرب : مساهمة المصادر والوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ البحرين خلال النصف الأول من القرن السادس عشر ، مجلة الوثيقة الصادرة عن مركز الوثائق التاريخية بدولة البحرين ، العدد الرابع ، ١٩٨٤م ، ص ١٢١ .

٢٥ـ د . علي ابا حسين وب .ك . ناراين : وثائق تاريخية عن صيد اللؤلؤ في البحرين ، مجلة الوثيقة الصادرة عن مركز الوثائق التاريخية بدولة البحرين ، العدد ١٠ ، ١٩٨٧ ، ص ١١٦ .

٢٦ـ نفس المصدر .

٢٧ـ نفس المصدر ، ١١٨ .

٢٨ـ Pearson, M.N., "The New Cambridge History of India: The Protuguese in India. "Cambridge, 1987 PP, 49–50.

٢٩ـ Carmelites, Op. Cit. 102

٣٠ـ Pearson, Op. Cit., P. 39

٣١ـ Correia – Afonso, J., Indo–Portuguese History, Sources and Problems., ed., Oxford Univ. Press.Bombay. 1981, P.101.

٣٢ـ Pearson. Op. Cit., PP. 38-9

٣٣ـ Correia – Afonse, OP. Cit. P. 101.
انظر ايضا : د . عبدالامير امين . مصدر سابق ذكره . ص ٢٨٢ .

٣٤ـ Carmelites, OP. Cit. P. 102

٣٥ـ Van Leur, "Indonesian Trade and Society" (The Hague-1955). Brudel, F. "The Mediterranean World in the Age of Philip, Trans. reprinted, London–1985. Steensgard, Niels, "The Asian Trade Re-

volution of the 17th Century (London–1984).

٣٦- Brudel, Op. Cit See chapter III : The Pepper trade.

٣٧- Boxer, C.R. Portuguese Conquest and Commerce in South Asia. London 1985. pp. 415–22.

٣٨- خوري ، الوثيقة ص ١٣٧ . انظر ايضا Steensgard p. 103

٣٩- نفس المصدر ، ص ٣٧ .

٤٠- Brudei, Op.Cit., see chapter III : The Pepper Trade

٤١- Keyvani, M "The Iranian Caravansarais during the Safavid period, "Ph.D Thesis– University of London–1981 P.74

٤٢- ابراهيم خوري : توسع الدولة العثمانية في الخليج العربي ، مجلة الوثيقة الصادرة عن مركز الوثائق التاريخية بدولة البحرين ، العدد الخامس عشر ١٩٨٩م . ص ٣٧ .

٤٣- Brudel, Op. Cit.,

٤٤- Carmelite, Op.Cit. P. 1040

٤٥- Ibid, P. 267.

٤٦- د . خالد الخليفة : دور العرب في مركز سورات التجاري في القرن الثامن عشر ، دراسة مقدمة للندوة الثالثة بقسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة القاهرة المنعقدة في الفترة من ٣ ـ ٥ أبريل ١٩٨٩م . ص ٧ .

٤٧- K.K. Alkhalifa, "Conflict and Commerce : The English East India Company Factories in the Gulf, 1700–1747, "(University of Essex, 1988) P.36

٤٨- Kriedte, Peter, "Peasants, Landlords and Merchant Capitalists : Europe in the World Economy, 1500–1800 (London–1983) P44.

السفن التجارية

بين القرن الثالث عشر



العربيّة والهنديّة

والقرن السّادس عشر

الدكتور طارق نافع الحمداني



مما لا ينكر أن الناس ، منذ الأزمنة القديمة ، كانوا يسافرون برا وبحرا ، وكان الأخير غاية في الصعوبة والخطورة ، لأن البحر كان غامضا مليئا بالمخاطر ، اذ كانت السفن صغيرة الحجم ، ولم تكن مزودة بما هي عليه اليوم من آلات علمية ، ومع ذلك فقد كان الناس يسافرون ، ولم يكن السفر لمجرد التسلية ، انما كانت تحدوهم في ذلك دوافع كثيرة أهمها روح المغامرة والرغبة في الاتجار .

ومع أن النشاط الملاحي والتجاري ـ العربي الهندي ـ في المحيط الهندي قد وصل ذروته قبل وصول البرتغاليين في مطلع القرن السادس عشر ، الا أن معلوماتنا عن السفن العربية والهندية قليلة جدا ، سواء ما يتعلق بطريقة بنائها ، أو الأنواع المستخدمة منها ، وأحجامها وأشكالها . وعلى ذلك فإن الباحث لا يجد أمامه غير الاستعانة بكتب الرحلات ، سواء أكانت عربية أم أوروبية ، للافادة منها في وصف السفن وأنواعها . ولكن هذه المعلومات لا تقدم لنا سجلا تاريخيا متسلسلا لتطور صناعة السفن العربية ـ الهندية . كتلك التى كانت تقدمها لنا المصادر العربية في عصور الازدهار الاسلامية حتى القرن الثالث عشر الميلادي ، غير انها بدون شك ضرورية لرسم طبيعة السفن المستخدمة حتى مجيء البرتغاليين ، بخاصة وان أنماط السفن العربية

والهندية لم تكن قد تغيرت كثيرات قبل ذلك الحدث [١] وعلى ذلك فان روايات ماركو بولو ، وابن بطوطة ، وجوفاني دي كونتي ، وفير تومانوس وفارثيما ، تشكل مادة لا يمكن الاستغناء عنها بأي شكل من الأشكال ، لما تقدمه من معلومات عن بناء السفن العربية والهندية وأنواعها . فملاحظات ابن بطوطة - كما تقول هاو - ووصفه للسفن وهي تغدو وتروح على موانيء المحيط الهندي يجعلها تنبض بالحياة ونحن نقرأ عن «الجنوك يخدم في الواحدة منها ألف رجل ، منهم ستمائة من البحارة واربعمائة من المقاتلة ويجتمع على المجداف الواحد من عشرة الى خمسة عشر رجلا» . [٢] ولا تقل معلومات ماركو بولو ودي كونتي ، وفارثيما أهمية لما ذكروه من أوصاف للسفن التى شاهدوها في فترات مختلفة ، وفي موانيء الخليج العربي والهند .

وتشير الأمثلة الواردة في هذه الكتب وغيرها انه كان للعرب نشاط بحري وتجاري واسع في غربي المحيط الهندي ، كما هو الشأن بالنسبة للهنود ، حيث استخدم الطرفان الطرق البحرية الموصلة بين موانيء الخليج العربي وموانيء شبه القارة الهندية ، وذلك عن طريق السفن التى ابتناها الاثنان لأغراض تجارية . ولما كانت الطرق البحرية هي المسالك التى تتبعها السفن في مسارها بين الموانيء ، لذلك فقد ارتأينا أولا تتبع هذه الطرق ومساراتها ، والمخاطر التى تتعرض لها السفن في أثناء مسيرها ، على أن نفرد دراسة خاصة لبناء السفن العربية والهندية وأنواعها .

١ - طرق الملاحة البحرية في الخليج العربي والمحيط الهندي

أ - الطرق البحرية قبل وصول البرتغاليين ومخاطرها .

استخدم التجار العرب عددا من الطرق البحرية التى عرفها العالم فيما بعد ، وهي الطرق التى اعتاد سكان الخليج العربي ارتيادها سواء في الماضي البعيد أو في الأزمنة الحديثة - للوصول الى الموانيء الغربية في شبه القارة الهندية ، وقد شاركهم في ذلك التجار الهنود ، حيث

تظهر أسماؤهم كثيرا سواء في أخبار الرحلات البحرية أو في بناء السفن وصناعتها . وعلى امتداد العصور كان نمو الخبرات الملاحية وتطور المصالح التجارية يسيران جنبا الى جنب . ففي الوقت الذى كانت فيه التوابل والاقمشة وأسواق الهند الحافلة بمختلف الأصناف هي الوجهة الأساسية للعرب ، فقد وجد الهنود ضالتهم في الخيول العربية والبلح في المناطق العربية ، فتبادل الطرفان هذه البضائع والسلع وغيرها عبر الطرق البحرية الممتدة بينهما (٣) .

وتعددت الطرق التى استخدمها العرب والهنود في رحلاتهم البحرية اذ تشير الدلائل الى ان الملاحين الأوائل لم يكونوا يبتعدون كثيرا عن السواحل ويسيرون في ظروف جوية ملائمة . ومعنى هذا ان رحلاتهم البحرية ما بين الخليج العربي وسواحل الهند الغربية كانت تستغرق وقتا طويلا . ويسمى ابن ماجد هذا النوع من الرحلات (بديرة المُلّ) أو الديرة الأصليةالتى تساير فيها السفينة البرّ ، ولا تخالف ذلك الا في ظروف خارجة عن ارادة الملاح كتغير الرياح أو فساد الابرة (٤) .

يبدأ هذا الطريق عادة من البصرة أو سيراف ، وتمر فيه السفن بعدد من الجزر الواقعة على الساحل الشرقي للخليج العربي مثل جزيرة خرج وجزيرة لارك ثم جزيرة قيس ، حتى تصل الى هرمز ، ومن هناك تقلع السفن الى ثارا - وهي الحد الفاصل بين فارس والسند . وتواصل مسيرتها من هناك الى الديبل من أرض السند ، ثم تتجه الى كجرات (٥) .

ومع أن هذا الطريق يحقق سيرا آمنا للرحلات البحرية في المراحل المبكرة ، الا انه أصبحت هناك حاجة ماسة - بمرور الزمن - لطرق أقصر في المياه العميقة منها في الطريق الساحلي الطويل . ويبدو ان امتداد هذا الطريق قد بدأ للمرة الأولى ما بين الأقسام الجنوبية الشرقية من الجزيرة العربية والساحل المقابل في فارس وبلوخستان ، حيث أصبح بالامكان خلال يوم أو يومين قطع هذه المسافة . وأصبح الانطلاق بصورة أكثر بواسطة هذا الخط الملاحي من موانيء معلومة في الجزيرة العربية حتى غدا الأمر شيئا اعتياديا بواسطة السفن الكبيرة عندما تكون الرياح الموسمية ملائمة للسفر الى الهند .(٦) وتسمى هذه الرحلة عند ابن بطوطة (بديرة المطلق) ، وفيها تقطع السفينة الطريق البحري مباشرة من ميناء على احد السواحل الى ميناء آخر على ساحل يقابله (٧) .

وفي هذه الرحلة تقلع السفن - في

الغالب ـ من احد الموانىء على الخليج العربي ، أو هرمز أو مسقط أو ظفار ثم تتجه مباشرة نحو موانيء الهند الغربية ، وتستغرق الرحلة عبر هذا الطريق مدة شهر كامل ، يقول ابن بطولة في ذلك : ويقطع البحر فيما بينها (أي ظفار) وبين الهند مع مساعدة الريح في شهر كامل ، وقد قطعته مرة من قالقوط في بلاد الهند الى ظفار في ثمانية وعشرين يوما بالريح ، ولم ينقطع لنا جري بالليل ولا بالنهار» .[٨] ويذكر ريسلر ان رحلة العودة من شبه الجزيرة العربية الى الهند كانت تستغرق هذا الوقت نفسه تقريبا ، ولكن كان على الملاحين العرب أن ينتظروا الرياح الموسمية .[٩]

ومما تجدر الاشارة اليه ان الرحلات الأولى اذا كانت قد تمت على هدي نجوم معينة معروفة الا ان استخدام الطرق الملاحية المباشرة بين الخليج والهند أخذ يتطلب معرفة كبيرة بعلم الفلك ، وقد تطور هذا العلم ، فضلا عن تطور الآلات والمرشدات البحرية مما ساعد في سرعة الحركة وأمنها عبر هذه الطرق قبل وصول البرتغاليين الى مياه المحيط الهندي .

وتطلبت الرحلة عبر الطرق البحرية معرفة دقيقة بأوقات هبوب الرياح الموسمية . ذلك لأن هذه الرياح تهب في أوقات منتظمة من السنة ويتبدل اتجاهها في المحيط الهندي دوريا كل ستة أشهر تقريبا ، ولكن الملاحين العرب والهنود استطاعوا الافادة من هذا التبدل في الاتجاه فضبطوا أوقات ذهابهم وايابهم مع دفع الرياح الى الجهة المقصودة .

وتبعا لاختلاف هبوب الرياح الموسمية فان السفن العربية التى تغادر الى الهند كانت تستعين بالرياح الموسمية الجنوبية الغربية ، المسماة عند ابن ماجد بريح الكوس أو الدبور ، حيث تصل الى سواحل الهند خلال اسبوعين تقريبا . وقد كان على هذه السفن أن تغادر سواحل الهند قبل أواخر حزيران ، وهو الوقت الذى تبلغ فيه الرياح الموسمية الجنوبية الغربية أقل حدتها . وفي الأحوال العادية قد يتسع الوقت أمامها لتغادر قبل ذلك بوقت طويل أي في شهري آذار أو نيسان ،[١٠] وعلى هذا فان ساحل المليبار يعد من المناطق الخطرة في الفترة ما بين مارس حتى نهاية ايلول ، وهذا يعني ان هناك ميزة للسفن القادمة من الموانيء العربية ، فموسم رحلاتها أطول ، وهذا ما جعل العرب يتغلبون على الطرق التجاريةفي المحيط الهندي زمنا طويلا .

ومن الجدير بالذكر ان السفن العربية كانت تقوم برحلتين أو أكثر ذهابا وايابا من الخليج العربي الى الهند خلال موسم واحد اذ يقول ابن ماجد في كتابه الفوائد : «وقد يسافر المركب في السنة مرتين من ظفار الى الهنـد ، ومن قلهـات ومسكت (مسقط) ، يمكن أن يسافر مرتين وثلاثا وأربعا وخمس مرات لكجرات ، اذا لم يلبث في البنادر» .[١١] .

وينطبق الأمر ذاته على السفن القادمة من الهند الى الخليج العربي اذ كان بامكان ملاحيها القيام باكثر من رحلة واحدة ويعتقد ابن ماجد أن هناك ثلاثة أوقات مناسبة للسفر ما بين الهند والخليج العـربي ، وعكس ذلك فإن الرحلة تعد من قبيل الجهل والمغامرة حيث يقول :

«والذى يخرج من الهند في المائة ، فهو حازم ، والذى يخرج فى مائة وعشر ، فلا بأس به ، والذى يخرج في مائة وعشرين ، فغير متمكن التمكن الكلي ، والذى يسافر في مـائة وثلاثين ، فجاهل ، مقامر ، غـير مجرب»[١٢] .

على ان الرحلات على الطرق البحرية لم تكن معظمها آمنة ، بل ثمة أكثر من صعوبة تتخللها في أثناء سيرها من الخليج العربي الى الهند ، ولعل أبرزها هجمات القراصنة الذين انتشروا في مناطق واسعة من مياه السند والهند . التى كانت الظروف الجوية المتقلبة سببا لسيرة السفن أقرب ما يكون الى الساحل ، فضلا عن وجود الشعاب المختلفة التى جعلت هذا الساحل صالحا لأن يكون قاعدة للقرصنة .[١٣] ويعرف هؤلاء القراصنة باسم «الميد والكرج» ، ويسكنون بلاد السند ، ولهم وجود كبير في خليجي كتشن وكاثيوار Kathiawar . ولأجل تفادي خطرهم فقد كانت السفن تتزود بالمياه والمؤن في مينائي صحار ومسقط ، ثم تتخذ الطريق البحرى المباشر الى الهند وربما يعود التحول من الطريق الساحلي الى هذا الطريق ، الى خطر قراصنة الميد والكرج .

كان القراصنة يستخدمون سفنا تسير بالمجاديف لمهاجمة سفن التجار والاستيلاء على بضائعهم ، وهذه السفن قد تكون أسرع من أية سفينة تعتمد على الشراع وحده . ويحدثنا فارتومانوس ، الذى زار الهند عام ١٥٠٣ ، عن هذه السفن فيقول :

«ولديهم نوع واحد من القوارب مصنوع من قطعة خشبية واحدة ، يشبه الحوض ، طويل جدا ، حاد وضيق ، وفي هذا النوع من القوارب فـانهم يستخـدمـون الأشرعـة والمجاديف ، وبهذا يعد هذا النوع من القوارب أكثر سرعة من قواربنا المسمـاة بـ (كـالي Calleys) ،

ويستخدم القراصنة هذه السفن كثيرا ، ولعل من أفضل أنواع سفنهم تلك التى تبنى في جزيرة تدعى Porcai ، ليست بعيدة عن كاليكوت» (١٤)

يستخدم القراصنة الميد أساليب خاصة في مهاجمة السفن التجارية، اذ كانوا يضربون نطاقا واسعا حول السفينة، التى يريدون مهاجمتها، ويستخدمون الاشارات بالنار والدخان، حتى يوقعوا بها، ولعل خير من يصف لنا هذه العملية هو ماركو بولو، الذي يتحدث بتفصيل عن قراصنة كوجرات :

«ويكثر فيها (أى كوجرات) القراصنة، الذين يطوفون كل عام في هذه البحار بأكثر من مائة مركب صغير ويستولون على جميع السفن التجارية التى تمر بذلك الطريق وينهبونها، وهم يأخذون معهم الى البحر زوجاتهم وأطفالهم من جميع الاعمار، فيظلون في صحبتهم اثناء موسم تطوافهم الصيفي كله. ولكي لا تفلت منهم سفينة واحدة، فانهم يلقون مراسي سفنهم، مع جعل المسافة بين الواحدة والاخرى خمسة أميال، وبهذا تشغل عشرون سفينة متسعا مداه مائة ميل. فاذا ظهرت سفينة تجارية امام واحدة منها، اعطيت اشارة بالنار أو الدخان، فتقترب مراكبهم كلها بعضها من بعض، وتستولي على السفينة وهي تحاول المرور. ولا ينزل بأشخاص الملاحين أى أذى، ولكنهم ما ان يستولوا على السفن، حتى ينقلوهم الى الشاطيء، ناصحين اياهم، بالتزود بشحنة أخرى من البضائع وقد تكون - في حالة مرورهم بذلك الطريق مرة أخرى - وسيلة لاثراء أسريهم للمرة الثانية» (١٥)

على ان غارات القراصنة وهجماتهم لم يكن يرد عاديتها الا المقاتلة الموجودين فوق ظهر السفينة، أو الاساطيل التى شكلت لحماية السفن التجارية، ولكنها لم تكن دائمة ومنظمة. اذ تطالعنا بعض الروايات عن وجود مجموعة من المقاتلين على ظهر السفن الهندية، ويذكر ذلك ابن بطوطة في معرض كلامه عن سلطان قندهار بالهند فيقول : «وكان ركوبي أنا في الجاكر - ضرب من السفن الهندية - وكان فيه خمسون راميا وخمسون من المقاتلة الجشية، وهم زعماء هذا البحر، واذا كان بالمركب أحدهم تحاماه لصوص الهنود وكفارهم». (١٦)

أشرف بعض الحكام الهنود على تنظيم سير السفن رسميا، وهذا ما قام به أحمد شاه الأول - أول سلاطين كوجرات - الذي تمكن عام ٨٣٤/١٤٣٠ من تكوين اسطول عدّ من أقوى الاساطيل في العالم انذاك، وكان يحرس المنطقة الممتدة من ساحل

الهند الى ساحل ميناء دابهول التابع لكجرات باسرها، وكانت موانيء الهند الغربية تقوم بمثل هذا العمل ايضا. [١٧] وتابعه في هذا العمل السلطان محمود الأول بيفرا، الذي يعد من اعظم ملوك كجرات (١٤٢٩ - ١٥١١)، حيث نظم اسطولا كبيرا وابقاه في الخدمة لاخضاع القراصنة الذين يتعرضون لموانئه أو يغزونها. [١٨]

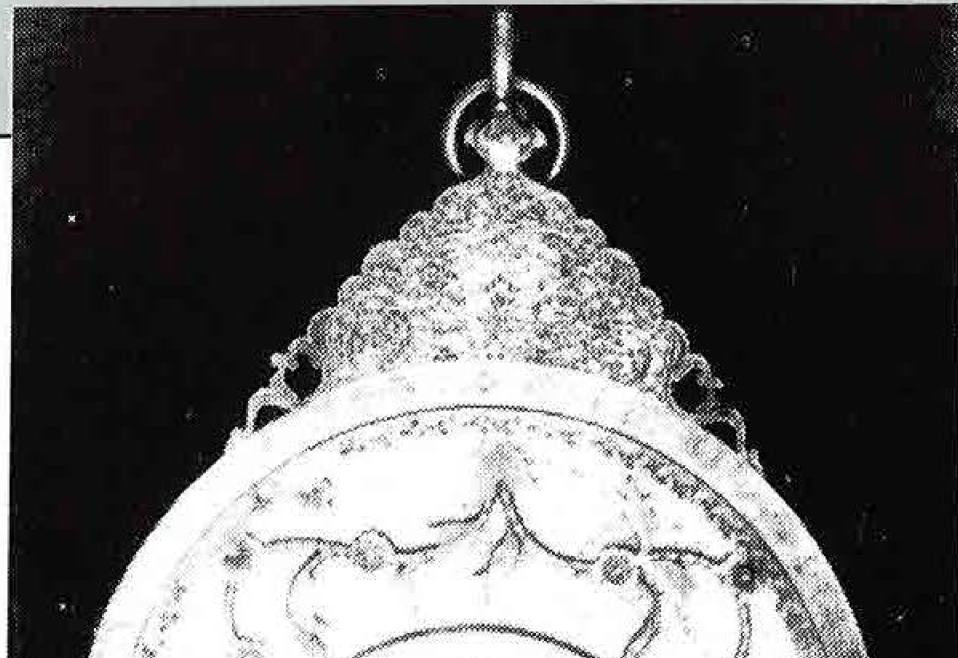
على ان الصراعات الداخلية في الممالك الهندية كانت مما يشجع أحيانا على عمليات القرصنة، ففي سنة ٧٩٦/١٤٩٠ أقدم السلطان محمد البهمني (نسبة الى منطقة بهمن) على قتل وزيره خوان جهان، فضعفت أحوال الحكومة المركزية، مما حدا ببهادر الكيلاني، من جانب الدكن، الى استغلال هذه الفرصة فاستولى على المناطق الساحلية، واعدّ اسطولا كبيرا بقصد ممارسة القرصنة البحرية، ودشن بالفعل هجماته بالاستيلاء على الموانيء الكوجراتية، ونجح في سلب عشرين سفينة تجارية هناك، وأدى ذلك الى تعطيل حركة ملاحة السفن ومرورها بالموانيء الكوجراتية تقريبا. ولما علم السلطان محمود الأول بيفرا - حاكم كوجرات - بعث بثلاثمائة سفينة حربية الى ميناء دابهول للقبض على بهادر الكيلاني، ومن ذلك نستطيع تخمين قوة هذا السلطان البحرية [١٩]

وهناك نوع آخر من المخاطر كان يواجه السفن التجارية ويفوق احيانا الصعاب التى أشرنا اليها، فالمسافة الهائلة التى كانت تقطعها السفينة من الخليج العربي الى الهند او الصين، تتخللها العواصف والشعاب والمضاحل، التى تشكل اخطارا دائمة، اذ كانت الاعاصير المصاحبة للرياح خطرا أعظم تأثيرا مما أصبح عليه الحال في عصر البخار، فالسفن تتأثر مباشرة بتغير الفصول، والرياح الموسمية التى تجلب الامطار والزوابع العاتية، كما كانت هناك اعاصير متتالية تتبع اتجاه الرياح الموسمية. بيد ان تقدم علم الفلك والجغرافيا وازدياد معلومات ربابنة السفن عن الملاحة في المحيط الهندي مكن من تذليل تلك الصعوبات، وانتظم سير السفن وقت هبوب الرياح الموسمية. [٢٠]

ب - الملاحون العرب والهنود وارشاداتهم البحرية

١ - الربابنة العرب وارشاداتهم

أسس العرب - كما أسلفنا - شبكة من الطرق التجارية، وخرج من بينهم رجال اشتهروا بكفاءتهم الملاحية، ولم يكن التفوق التجاري الذي تمتعوا به قبل وصول البرتغاليين، الا حصيلة



الخبرات الملاحية التى تراكمت لديهم خلال قرون طويلة. ذلك ان الرحلات البحرية كانت تحتاج الى معرفة تامة بأوقات هبوب الرياح الموسمية، ويتحتم على أصحاب السفن ان يكونوا على دراية بأوقات هبوبها، والا عرضوا أنفسهم وغيرهم للخطر، بينما كان من شروط الملاحة البحرية ان يكون قائد السفينة قادرا على ايصالها سالمة الى غايتها، دون ان يلحق أى ضرر بالمسافرين وحمولة السفينة. (٢١)

لقد طور العرب معلوماتهم البحرية ودأبوا على استخدام الخرائط الدقيقة عن معظم السواحل الشرقية، وذلك بفضل تقدم علمي الفلك والجغرافيا، كما كان لهم الفضل في ادخال الادوات البحرية كالاسطرلاب، التى هيأت أمام السفن ظروفا أسهل للقيام بسفراتها وتفادي الكثير من الصعوبات البحرية.

عرض الملاحون العرب خبراتهم البحرية الطويلة في دفاتر الارشادات (المسماة بالراهماني)، التى حوت - عدا الجداول الفلكية وخطوط العرض - معلومات عن الرياح والسواحل والشعاب، وكل ما يحتاج اليه الربابنة في رحلاتهم. ومن أشهر هذا النوع من الكتب في نهاية القرن الخامس عشر (رهماني أحمد بن ماجد)، الذي اعتمد فيه على خبرته الخاصة وخبرة أبيه وجدّه لسنين طويلة في الخليج العربي والمحيط الهندي.

وعلى الرغم من ان الربابنة العرب قد وضعوا عددا غير قليل من كتب الارشادات البحرية قبل أحمد بن ماجد، وبالذات محمد بن شاذان وسهل بن ابان وليث بن كهلان، الذين سماهم ابن ماجد بالليوث الثلاثة، نسبة الى ليث بن كهلان، الا ان هذه الكتب، كما وصفها ابن ماجد، ليست الا جمعا للمعلومات، وان خبرات اصحابها لا تتجاوز الخليج العربي الا قليلا، «وهم مؤلفون لا مصنفون، ولم يركبوا البحر الا من سيراف الى برّ مكران» (٢٢)

وكان في زمانهم من المعالمة المشهورين عبدالعزيز بن أحمد المغربي، وموسى القندراني، وميمون بن خليل، حيث يقول عنهم ابن ماجد..

«وكان اكثر علمهم في صفات البرور ومجاراتهم والبلد ومسايرات البرور واكثرها من تحت الريح (أى شرق سيلان)، وبرّ الصين وقد اندرست تلك البنادر والمدن وتنكرت اسماؤها، ولم نستفد في زماننا هذا (القرن الخامس عشر الميلادي). شيئا له صحة كعلومنا وتجاربنا واختراعاتنا التى في كتابنا هذا، لانها مصححة، مجربة، وليس على التجريب شيء أحسن منه.(٢٣)

ويستدل من نص أحمد بن ماجد، ان معلوماته جاءت نتيجة خبرة ابيه وجده، فضلا عما اضافه هو من خبرته الشخصية التى استمدها من عمله ربانا سنين عدة، وهذا ما جعل اشاراته مختلفة عما كتبه السابقون حيث يقول : «ولما اطلعت على تأليفهم، ورأيته ضعيفا بلا قيد، ولا له صحة كلية، ولا تهذيب، هذبت ما صح منه وذكرت الاختراعات التى اخترعتها وصممتها وجربتها عاما بعد عام» (٢٤) وفضلا عن ذلك، فإن صفات المدن والموانىء التى جاءت في

كتب الارشادات البحرية السابقة، لم يعد لها قيمة في ايامه، لان تلك المدن والموانىء قد اندرست ولم يعد لها وجود في القرن الخامس عشر، وبهذا تكون المعلومات الجديدة التي قدمها ابن ماجد في (ارشاداته) ذات فائدة كبيرة لمن عاصروه أو أتوا بعده.

وليس من شك أن أهم كتاب لهذا المعلم المشهور هو كتاب (الفوائد)، اذ نجد فيه صورة موجزة للمعرفة السائدة عن الملاحة نظريا وعمليا، كما يتعرض فيه للملاحة والطرق البحرية في المحيط الهندي، بل انه يحذر في الفصل السادس منه المعلم من علل البحر واخطاره او عدم تأكده من الطريق الذي يسلكه فيقول :

«واعلم ان للمجرى (أى الخط الملاحي)، عللا فاحذر منه، أولها نوم المعلم، وحط الجاه في الليل في مكان، وفي النهار في مكان غيره، وذلك مما يطول الطريق،، ويحسب المعلم انه يجري في مجري، وهو يجري في غيره من قلة معرفته..» (٢٥)

وكانت تلك هي الطريقة التي تعرض فيها ابن ماجد للرياح الموسمية، محددا بدايتها في كلا الاتجاهين، وهي دقيقة ومفصلة، بل انها افضل ما يمكن ان نتوقعه من ملاحي ذلك العصر، كما يقول فران (٢٦). وعلى ذلك فانه بينما يعطي الاوقات المناسبة للسفر ما بين الخليج العربي والهند ذهابا وإيابا، فانه يحذر في الوقت نفسه من السفر في المواسم الضيقة، وقد خص ذلك كله في الفائدة الحادية عشرة. (٢٧) ولما كانت مواعيد السفر تتغير وفقا لتأخير دورة الكرة الارضية، فقد نبه ابن ماجد الملاحين الى ذلك بقوله : «وأما المواسم الاولى التي كان عليها اباؤنا واجدادنا، فقد تغيرت.. فقد قيل ان الموسم يتأخر في كل مائة سنة درجة واحدة.. فينبغي على الانسان ان يتأمل في كسور المواسم والارياح والاوقات ومعرفته في الموسم.. (٢٨)

ولم ينس ابن ماجد في ارشاداته التعرض للسفينة، حيث ذكر كثيرا من التعليمات التي يجب توفرها قبل ان يقدم ربانها على السير بها في البحر. فقد اعتبر من شروط ركوب البحر ان يعرض ربانها آلات السفينة وما تحتاج اليه، «وان يكمل جميع آلات السفينة، وينظر في احصان السفينة وآلاتها ورجالها وحبالها وعددها، ولا يشحنها الا العادة» (٢٩)

وفصل ابن ماجد في الفائدة الثامنة، تعليمات أخرى لربان السفينة، وذلك بأن يعاين السفينة قبل اقلاعها، وان يطلع على كل خلل فيها، وان يعالجه في وقته قبل ان يستفحل أمره.

ويقول : «فان قصرت في شىء من ذلك، فلا تلو من الا نفسك.. وان فعلت



جميع ما امرتك به، واخطأت، فعلى اللوم حيّا وميتـا» [٣٠] ولكن من الملاحظ ان ابن ماجد قد أكد كثيرا على ضرورة تفقد المعلم نصب الحقة (بيت الابرة أو السمكة أو سمكة الحقة كما يسميها ابن ماجد) وتجليسها قبل السفر لتفادي الانحراف عن الاتجاه الصحيح بسبب خلل في نجارة المركب فهو يقول في ذلك : «وجلس الحقة في مكانها، وتفقد كل التفقد أول يوم من نصب الحقة، لأن شيئا في المراكب يكون في نجارته خلل، فيبعدك عن مجراك، فاستدرك الأمر بأوله» [٣١]

وهكذا نلاحظ ان تجارب ابن ماجد وخبراته الملاحية قد جعلته يقدم التعليمات لربابنة السفن وهي بمثابة

القوانين، التى جعل الوقوع فيها مما يستوجب وضع اللوم عليه، وهو أمر يدل على غاية الثقة بالمعلومات والارشادات التى ذكرها.

وبعد هذا يحق لنا ان نتساءل عما اذا كانت معلومات ابن ماجد وارشاداته الملاحية ذات فائدة لمعاصريه أو لمن جاءوا بعده ؟

وقبل الاجابة على هذا السؤال لابد من الاشارة الى ان معلومات ابن ماجد لم تكن موجهة الى عامة الناس، كما ظن شوموفسكي [٣٢]، وانما كانت موجهة الى معالمة البحر، الذين كان بامكانهم الافادة من معلوماته اكثر من افادة عامة الناس، اذ ذكر ابن ماجد في مقدمة كتابه (الفوائد) : ان اتقان علم البحر لمعرفة القبلة افضل من امتهان الملاحة. وانه لم يضع مؤلفاته - كما يقول تيبتز - للناس العاطلين والكسالى لكي يتبعوه [٣٣]

على أية حال، لما كانت المعلومات الملاحية تنتشر بين رجال البحر، وتنتقل من جيل الى آخر، عن طريق حفظ الاراجيز البحرية وروايتها، اكثر من انتشارها عن طريق المؤلفات النثرية، فقد صاغ ابن ماجد كثيرا من معلوماته البحرية وارشاداته في شكل قصائد واراجيز، مسجلا بذلك خبراته وخبرات من سبقه، ويعتقد تيبتز ان تصانيف ابن ماجد قد وضعت لتصحيح تأليف المتقدمين واضافة معلومات جديدة الى ما وضعه ابوه وجده وبقية الملاحين الآخرين. وعلى ذلك فان عمله هذا قد جاء جريا على تقاليد المعالمة الذين يتركون حصيلة تجاربهم الملاحية وخبراتهم الى الخلف مشافهة أو خطياً [٣٤].

لقد كانت معلومات ابن ماجد، بدون شك، محل فائدة كل الملاحين الذين عاصروه او جاءوا بعده، وذلك بدليل ما اشار اليه سيدى علي الريس في كتابه (المحيط)، الذي ألفه عام ١٥٥٤ استنادا الى معلومات ابن ماجد. ففي اثناء اقامة سيدى علي الريس في البصرة ابان تلك السنة، انتظارا لهبوب الرياح الموسمية، دأب على قراءة مؤلفات المعالمة القدامي والمتأخرين، وكان من بينها بطبيعة الحال مؤلفات أحمد بن ماجد، وسليمان المهري، كالفوائد والحاوية، وتحفة الفحول، والعمدة، والمنهاج وقلادة الشموس [٣٥] والمهم في الأمر ان سيدى علي الريس يظهر اعجابه بهذه المؤلفات، التى لا يمكن للمعالمة والرؤساء والبحارة، السير دونها حيث يقول : «والحق انه من الصعوبة بمكان ان يبحر المرء في المحيط الهندي دون الاستعانة بهذه الكتب». [٣٦] وعلى ذلك يصف سيدى علي الريس أحمد بن ماجد بانه «العمدة بين الملاحين، ومعلم بحر الهند. واجدر الناس بالثقة بين المحدثين في كتاب

الارشادات البحرية» (٣٧)

٢ ـ المعالمة الهنود ومعارفهم

على الرغم من ان المعلومات المسجلة لدينا عن المعالمة الهنود قليلة قياسا لما نعرفه عن الربابنة العرب، وبالذات أحمد بن ماجد، الا ان المام سكان المناطق الساحلية في الهند بشئون البحر، يدفعنا الى القول بأنهم كانوا ملمين بشئون الملاحة والتجارة البحرية بنفس الصورة التى كان عليها العرب، بخاصة وان سفنهم كانت تواصل السيّر فيما بين الهند وبلاد العرب. ولعل من الطريف الاشارة الى ان أحمد بن ماجد نفسه قد اشار الى افادته من المعالمة الهنود، وذلك اثناء حديثه عن جزر الفال الواقعة قبالة كاليكوت ويعدهم اعرف منه بها، حيث يقول :

هذا الأصح عن نواخيذ البلد
ووصفها فخذه عني بالسند(٣٨)

عرف خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر عدد من الملاحين الهنود الذين اشتهروا بخبراتهم البحرية من جهة، وصلاتهم مع بلاد العرب من جهة اخرى. ففي القرن الرابع عشر كان هناك الربان (ابراهيم) الذي عرف بسمعته الطيبة وصيته الذائع، وكان نفسه يمتلك عددا من السفن التجارية، وفي الوقت ذاته، وبالذات عام ١٣٢١/٧٢١ تولى منصب ربان البحر شخص يدعى (المعلم حسن)، الذي كان يسافر من نانديرـ التى تقع على مقربة من سورات ـ الى شبه جزيرة العرب .(٣٩)

وفي القرن الخامس عشر عرف الربان (اسماعيل نائته) الذي حصل على شهرة كبيرة، ومن أجل ذلك عرف (بملك البحر) (٤٠) وفي القرن ذاته، ظهر اسم ربان هندي آخر اسمه (موسى مندل الزنجي) الذي كان ماهرا في العلوم البحرية لعصره، وكانت سفنه تصل الى شبه جزيرة العرب (٤١) كما كان هناك المعلم (حيوه المهدي) الذي ذكره مؤلفه كتاب (ظفر الواله) على وجه خاص. وعاش في القرن التالي وكان يصاحب السفن الذاهبة من كجرات الى شبه الجزيرة العربية، وعرف في هذا القرن ايضا الربان المشهور محمد عيسى، الذي كان اتصاله بالسفن العربية اكيدا (٤٢).

لقد اظهر الرحالة الاوربيون اعجابهم بقدرات الملاحين الهنود، وذلك في خلال السفر معهم. فهذا فرير اودريك Friar Odoric، الذي عبر المحيط الهندي عام ١٣٢١، كان قد ركب على ظهر سفينة تحمل ٧٠٠ شخص، وهذا دليل قاطع، كما يقول اودريك، «على القدرة البحرية والكفاءة التى يتمتع بها الملاحون في كجرات ، الذين استطاعوا ان يوجهوا مثل هذه السفن الكبيرة»(٤٣)

وبالمثل، فقد ترك لنا عبدالرزاق السمرقندي، عام ١٤٤٢، رواية طريفة وهو يتحدث عن اهمية ميناء كاليكوت، حيث عدّ هذا الميناء واحدا من أهم مراكز تجمع السفن في تلك الفترة، واضاف قائلا : «تبحر السفن باستمرار من هذا الميناء الى مكة، وهي محملة في الغالب بالتوابل، وان سكان كاليكوت ملاحون مهرة. ولذلك فان القراصنة لا يجرؤون على مهاجمة سفن كاليكوت»(٤٤).

وهكذا يبرز لنا من هذه النصوص، ان الملاحين الهنود، كما هو الشأن بالنسبة للملاحين العرب، قد اعتادوا على ارتياد طرق المحيط الهندي، ويرجع هذا الى تمرنهم الطويل على سبر أغوارها ومعرفة مسالكها المختلفة.

٢ - السفن العربية والهندية وخصائص بنائها

أ - بناء السفن العربية

من الصعب على المرء وهو يدرس طريقة بناء السفن العربية ان يقدم تسلسلا تاريخيا لتطورها، ذلك لأن النصوص العربية لا تقدم لنا الا اشارات قليلة متناثرة عنها، ولهذا سنعتمد على بعض الاشارات المتفرقة الواردة في الكتب التاريخية وكتب الرحلات المدونة في القرون الى سبقت مجيء البرتغاليين الى المياه الشرقية، لرسم صورة ذلك التطور.

ومن الملاحظ انه لم يحدث هناك تغير جوهري في انماط صناعة السفن العربية، وانما ظلت تحافظ على انماطها لقرون عديدة. ولم تتأثر - بخاصة المراكب الصغيرة - الا قليلا، بالتغيرات التى حصلت بعد وصول البرتغاليين. ومع ذلك فان هناك بعض الخصائص العامة التى تميز السفن العربية عن غيرها ومن أبرزها :

١ - استخدام الألياف المصنوعة من القنب بدل المسامير في ربط اجزاء المركب بعضها ببعض.
٢ - امتداد الشراع من مقدمة السفينة الى مؤخرتها بدل الشراع العريض المربع.
٣ - تشابه طرفي المركب بحيث يبدو حاد الشكل في مقدمته ومؤخرته. (٤٥)

على ان المادة الاولى التى تدخل في بناء السفينة هي الخشب، وغالبا ما يتردد اسم خشب الساج او خشب جوز الهند،، وكلاهما متين لا يتشقق ولا يتغير شكله في الماء، وتنمو اشجارهما بصورة خاصة في بلاد الهند .(٤٦) وقد تصنع السفن ايضا من خشب (الساكون) الذي يتوفر غالبا في مليبار، وهذا الخشب ايضا ذو متانة كبيرة لا يؤثر عليه الماء الا قليلا ولا تصيبه الديدان بكثير من الضرر.(٤٧)

انتقلت بعض الاشجار الصالحة لصناعة السفن الى بعض مناطق الخليج العربي، بخاصة ظفار، التى انتقل اليها خشب النارجيل. اذ تحدث ابن بطوطة الذي زار المنطقة في القرن الرابع عشر عن هذه الاشجار في ظفار (٤٨) مما يدل على جلبه من الهند وزراعته في هذه المنطقة.

ولقد يبدو غريبا الا يشار في الكتابات الغربية الى وجود الاخشاب الصالحة لبناء السفن في المناطق العربية، بل على العكس من ذلك تردد هذه الكتابات ـ بخاصة تيم سفرن ـ ان بلاد العرب لم تنتج في يوم من الايام الاخشاب الضخمة الصالحة لبناء السفن، وان العرب كانوا يستوردون السفن الجاهزة والاخشاب من الهند وشرق افريقيا(٤٩) غير ان اشارة ابن بطوطة السالفة الذكر، وما اورده ابن جبير عن توافر خشب بناء السفن في اليمن، دلالة أخرى على نمو الاخشاب الصالحة لبناء السفن في بعض المناطق العربية(٥٠).

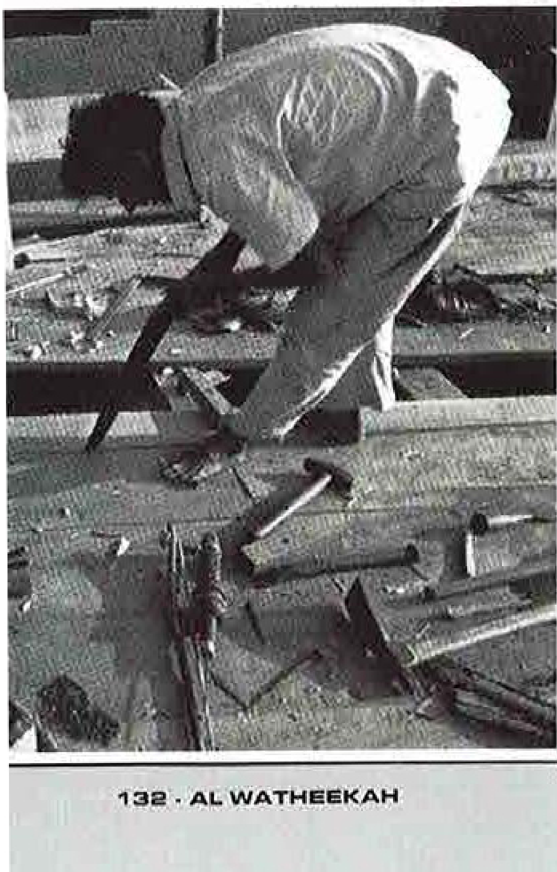
على ان هذا لا ينفى ان التجار العرب كانوا يستوردون مادة الخشب من الهند، وانما الصحيح انهم ظلوا يجلبون ما يحتاجون إليه منها عبر العصور، كما هو الشأن في استيرادهم لكميات كبيرة من البضائع عن طريق السفن الكبيرة لانها اقرب البلاد اليهم. والاهم من ذلك، ان التجار العرب، وكما يفهم من الاشارات التى أوردها ابو ظفر الندوي، كانوا يردون الهند ومعهم سفنهم التى يجلبونها معهم من شبه جزيرة العرب، لأن السفن التى كانت تصنع في الهند لم تكن موضع اغراء لهم، الا انهم بمرور الوقت اخذوا يعتادون على صناعة السفن الهندية، بخاصة في منطقة كهنبايت، التى اظهروا فيها نشاطا متزايدا(٥١)

اصبحت عملية بناء التجار العرب لسفنهم في الهند ظاهرة مألوفة في عصور الازدهار الاسلامية، بحيث ان الملاحين العرب ـ بخاصة القادمين من عمان ـ قد شقوا طريقهم الى جزر (لكا) و (محل) في سواحل الهند، وهناك صنعوا السفن التى كانوا يريدونها فشحنوها بالبضائع وعادوا

امكانية بنائها في تلك الموانىء ؟ وهذا ما أشار اليه مورلاند في بحثه الموسوم (السفن في المياه العربية حوالي عام ١٥٠٠م) حيث يقول : «تبنى السفن بصورة رئيسية، ان لم تكن محصورة، في سواحل الهند الغربية، وفي مناطق مختلفة من سورات الى كتشنى، ولم أجد أى رواية تشير الى ان سفنا اخرى، او غيرها من القوارب الساحلية تبنى في أماكن أخرى، سواء في الجزيرة العربية، أو في شرق افريقيا او البحر الأحمر»(٥٤).

الا أن الواضح ان السفن والمراكب، بخاصة المحلية الصغيرة،





بها الى أوطانهم(٥٢) ويؤكد راموسيو Ramusio أحد محققي رحلات ماركو بولو، «ان التجار العرب كانوا يبنون سفنهم في ساحل المليبار»(٥٣) وظلوا يفعلون ذلك في القرون التالية .

وكما نفى الكتاب الاوربيون عدم توافر الاخشاب الصالحة لبناء السفن في الموانىء العربية، فانهم نفوا ايضا



قد ظلت تبنى في الموانىء العربية، ولم تنقطع صناعتها في أى فترة من الفترات، حتى وان لم ترد الاشارات الخاصة بذلك، اذ كان بناء المراكب المحلية، جزءا من التراث البحري للموانىء العمانية (٥٥)

تبدأ عملية صنع هيكل السفينة بصورة بسيطة، وذلك بأن توضع قاعدة المركب أولا على الارض ثم تثبت فيها ألواح أفقية تشد الى كلا الجانبين والى بعضها البعض بخيط من الليف. وعلى الرغم من ان المصادر لا تتحدث عن بناء أطر أو اضلاع للمركب، الا



ان المراكب العاملة في المحيط الهندي لم تكن لتقوى على ذلك بدونها، وربما كانت تركب كما هو الحال اليوم بعد تثبيت الألواح في مواضعها (٥٦)

كانت حياكة السفن العربية ودرزها بواسطة الخيوط لا المسامير، قبل اقتحام الاوربيين للمياه الشرقية، هي الطريقة الشائعة، بحيث يندر الا يذكرها رحالة او سائح زار المنطقة،

لدرجة جعلت بوين Bowen يقول : «ان هذه الطريقة ظلت قائمة لمدة اربعة الاف سنة دون ان تتغير» (٥٧) وبغض النظر عن العصور القديمة، فان الرحالة الاوربيين والعرب الذين قدموا الى الخليج العربي والمحيط الهندي منذ القرن الثالث عشر وما بعده قد اشاروا اليها جميعا. فهذا ماركو بولو يصف لنا السفن المصنوعة في الخليج العربي، وهو يتحدث عن سفن هرمز بقوله :

«ان السفن التى تبنى في هرمز من أردأ الأنواع، كما انها خطرة على الملاحة، حيث تعرض التجار وغيرهم ممن يستخدمونها لاخطار جسيمة، وترجع عيوبها الى عدم استخدام المسامير في بنائها.. وعلى ذلك فان الالواح تثقب، بكل عناية ممكنة، بمثقاب حديدي، قرب حوافيها، وتدق فيها دبابيس او أوتاد خشبية، وبهذه الطريقة تثبت الألـواح (في مقدم السفينة ومؤخرها).. وبعد هذا تربط الألواح معا، أو بمعنى أدق تخاط معا، بنوع من الحبل المفتول يؤخذ من ليف جوز الهند.. وينقع الليف في الماء حتى تتعفن اجزاؤه اللينة، وتظل الخيوط او الفتل نظيفة، ومن هذه يصنعون الخيط المفتول اللازم لخياطة الألواح وهو يدوم طويلا تحت الماء» (٥٨)

ان دقة ملاحظات ماركو بولو جعلته يسلط الضوء على كثير من خصائص بناء السفن في الخليج العـربي، وابرزها استخدام الخيوط لا المسامير، واشارته الى الثقوب التى تجرى على أبعاد معينة قرب اطراف الالواح المتجاورة، وربطها بواسطة أوتـاد خشبية.

وتحدث ابن بطوطة عن السفن المخيطة في اكثر من مكان واحد، اذ ذكرها اثنـاء الحديث عن شجـر النارجيل في ظفار واليافه، حيث قال : «وهم يصنعون (أهل ظفار) حبالا يخيطون بها المراكب عوضـا عن مسـامير الحـديـد» (٥٩). وأشـار بتفصيل زائد الى طريقة صنع الياف جوز النارجيل وهو يتحدث عن جزائر ذيبة المهل ـ مقابل الطرف الجنوبي من شبه القارة الهندية ـ وقال : «وتصنع منه الحبال (أى النارجيل) لخياطة المراكب، وبهذه الحبال تخاط مراكب الهند واليمن» (٦٠)

كما وردت اشارات أخرى في كتاب الرحالة الاوربيين الذين زاروا الخليج العربي والهند في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، فهذا فرير اودريك الذي زار هرمز حوالى ١٣٢١، يصف لنا احدى السفن التى ركب على ظهرها وقال : «ان سفنهم مخاطة بخيوط القنب فقط، ولم اجد أى مسمار على الاطلاق» (٦١).

ولعل من التفاصيل التى تستحق الاهتمام ما ذكـره جون مـونتي

كورفينو، الذي كتب اثناء وصفه البحر العربي، قائلا : «ان سفنهم في تلك النواحى ضعيفة وسهلة الكسر، اذ ليس فيها لا حديد ولا جلفطة، بل انها تخاط بطريقة تشبه خياطة الملابس. ولهذا فاذا ما انقطعت الخيوط فان السفينة تنكسر وتنحل. وعلى ذلك فان عليهم استبدالها في كل سنة، اذا ما قصد استخدامها ثانية في البحر»(٦٢).

يتضح من هذا النص، ومن النصوص الاخرى السابقة، ان حياكة المراكب وخياطتها بالياف جوز الهند والقنب كانت أمراً عاماً في بناء السفن العربية والهندية . اما مسألة عدم وجود جلفطة، فيبدو ان بناة السفن كانوا يكتفون بسد ثقوبها باجزاء من عيدان النخيل تعرف باسم الدستر أو مسامير الخشب، ثم تطلى بزيت السمك لا القار، كما قال ماركو بولو .(٦٣)

لقد اثار بناء السفن العربية بهذه الصورة اهتمام الرحالة والباحثين الاوربيين القدامى والمحدثين، حتى ان تيم سفرن، صاحب كتاب (رحلة السندباد)، يعد ذلك : «تحديا صارخا .. ومشكلة كبرى يجب حلها .. اذ كيف تبنى السفينة دون استخدام مسمار واحد في بنائها» .(٦٤)

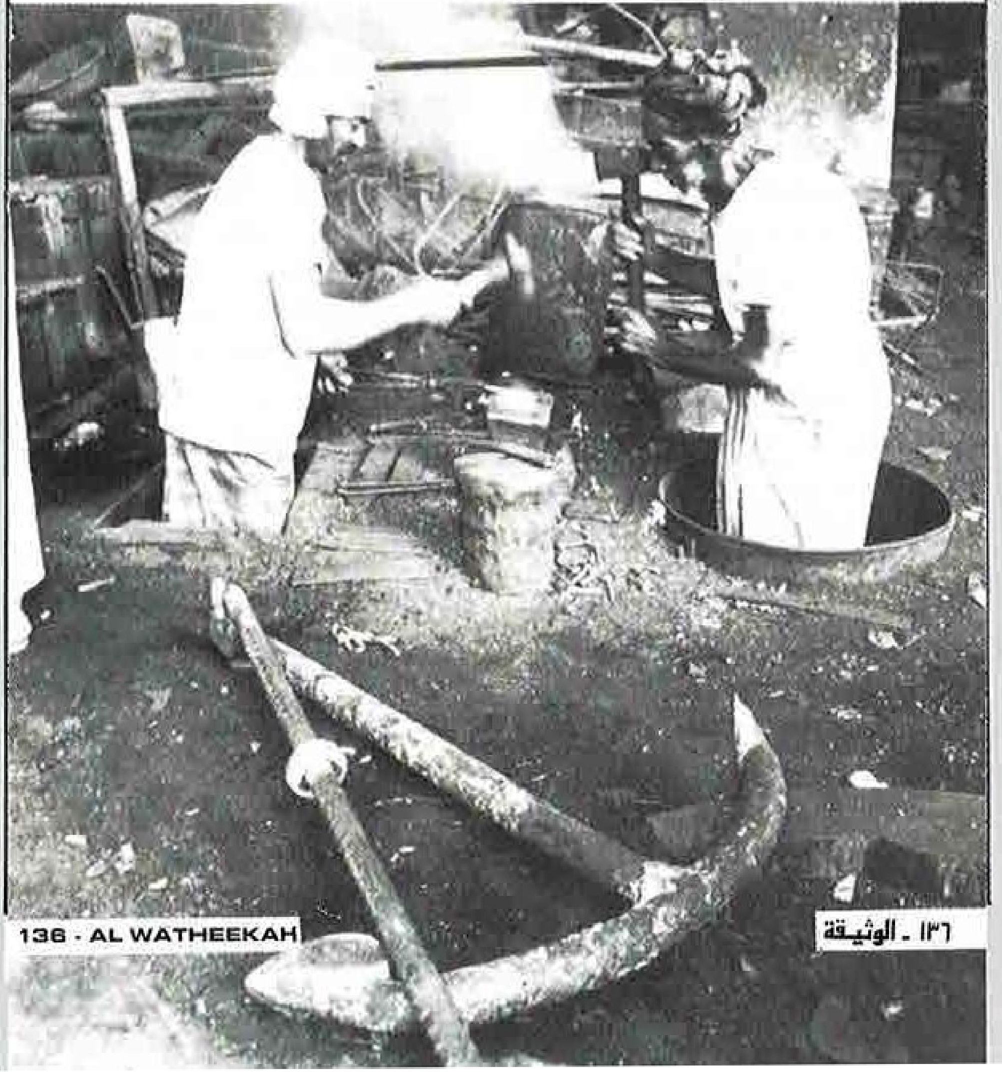
لقد حاول الرحالة والكتاب، في مختلف العصور، ان يجدوا تعليلات مقنعة لعدم استخدام المسامير في صناعة السفن . فقد اورد البعض، ومن بينهم الاستاذ ابوظفر الندوى، قصة وجود المغناطيس في البحر، الذى يجذب السفينة الى القاع فيغرقها .(٦٥) وهى قصة ليس لها اساس من الصحة . وربط البعض الاخر ذلك بمسألة معرفة المسامير واستخدامها . واذا دققنا في هذا الامر يمكن التوصل الى فرضيتين اساسيتين، الاولى، ان المسامير لم تكن معروفة، والثانية انها كانت معروفة ولكن استعمالها كان محدوداً، الا في حالات خاصة .

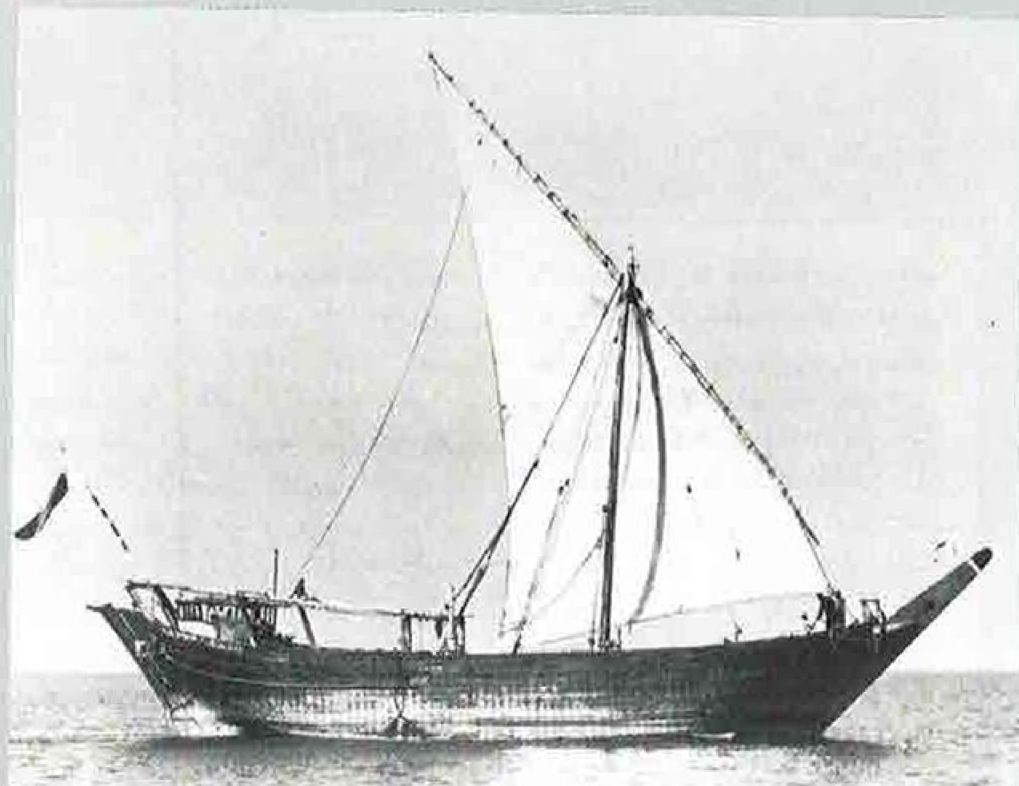
ويذهب مورلاند المذهب الأول، بقوله :«ان المساميروالحديد لم تكن معروفة في البحر العربي» .(٦٦) وقد بنى مورلاند استنتاجه هذا على عدم وجود اشارات تدل على ذلك. على ان أصحاب المذهب الثانى كثيرون، وهم يعتمدون في رأيهم على ان الحديد كان موجوداً في مناطق كثيرة من الهند والساحل الشرقي للخليج العربى، الا ان نفقات استخراجه وصهره عالية، مما يجعل استخدامه أقل وعلى نطاق ضيق، قياساً الى الخياطة بالالياف، التى كانت اقل كلفة واكثر توفرا .(٦٧)

ولعل أقرب تفسير لعدم استخدام المسامير ما ذكره الجغرافيون والرحالة العرب كالإدريسى وابن جبير وابن

بطوطة ، الذين قالوا بان السفن التى تستخدم الحبال في خياطتها اكثر مرونة من غيرها عند اصطدامها بالشعب المرجانية المنتشرة في البحر ، ولهذا فهى لا تنشطر عند اصطدامها بهذه الشعاب بل تنثنى وتشق طريقها بين الصعاب ، يقول ابن بطوطة وهو يتحدث عن السفن المخيطة في المحيط الهندى : «ذلك لأن البحر كثير الحجارة ، فإذا كان المركب مسمراً بمسامير الحديد صدم الحجارة فانكسر ، واذا كان مخيطاً بالحبال اعطى الرطوبة فلم ينكسر» .(٦٨)

ويتضح من المعلومات التى تركها لنا الرحالة الاوروبيون انه لم تكن هناك اسطح للسفن في أكثر الاحيان ، وان وجدت فإنها تكون محدودة المسافة ، فماركوبولو وهو يتحدث عن سفن هرمز يشير الى وجود سطح واحد .(٦٩) وان حمولتها كانت تغطى





بالجلود . اما جور دانوس Jor Danus (١٣٢١ ـ ١٣٣١) فقد اشار في روايته وهو يتحدث عن سفن مليبار ان السفن ليست مغطاة بظهر بل هي مفتوحة ولذلك يوجد هناك رجال يقذفون الماء الذى يتجمع باستمرار في داخل السفينة الى خارجها .(٧٠)

واشار الرحالة البرتغاليون الذين وصلوا داخل الشرق في مطلع القرن السادس عشر الى مثل هذه الاقوال ، ولكن من الصعب ان نتصور سفينة تحمل على متنها ما لا يقل عن اربعمائة شخص دون ان يكون لها سطح .

أما دفة السفينة فكانت الجانب ، وهي النوع الوحيد الذى عرف منذ القرن الثالث عشر ، اذ أشار ماركوبولو الى وجود «دفة واحدة للسفينة» ، ولعل المقصود بذلك هي دفة المؤخرة ، التى دخلت الاستعمال انذاك وكانت تحرك بجهاز التوجيه بواسطة الحبال على النحو الذى كان موجوداً في البتيل في القرن التاسع عشر ، والذى مازال موجوداً حتى يومنا هذا في مركبى البدن والبقارة العمانيين .(٧١) .

وكذلك عرفت المرساة (أو الانكر) . ولكن النوع المعروف لم تكن المرساة الحديدية ، كما قال ماركوبولو . وانما كانوا يستخدمون بدلاً عنها نوعا أخر من أجهزة الربط الأرضية، وتلك كانت اما حجراً غليظاً في وسطه ثقب للحبال أو حجراً من الرخام .(٧٢) .

بقى علينا ان نتحدث عن

الصوارى والاشرعة ، بخاصته المثلثة الشكل التى امتازت بهـا السفن العربية . فـالاشارات الاولى التى وردتنا عن القرن الثـالث عشر ، وبخاصة التى ذكرها مـاركوبـولو والرحالة الاخرون الذين اعقبوه ، تؤكـد وجود صـار واحد وشراع واحد .(٧٣) ، ولكن بما انه كانت ترد اشارات الى وجود الصارى الكبير (أو ما يسمى بالدقل الاكبر) ، فيعنى هذا ان السفن كانت تزود باكثر من صار واحد ، أو بالاحرى بصاريين ، كما هو الحـال في الانـواع الحـديثـة اليوم .(٧٤) .

كانت هذه السفن العربية بهذه الصورة تماما في القرن الخامس عشر ، ذات صـاريـين مـرتفعـين منحدرين نحو الامام ، وكل سارية تحمل شراعين مثلثى الشكل .(٧٥) . ولعل ما يؤكد لنا ذلك ان بعض الاشارات التى اوردها ابن ماجد في اراجيزه واشعاره تتحدث عن «سفينة بصاريين» ، ومن المتوقع أن العدد نفسه كان مستخدما «في السفن العربية على أيام سليمان المهرى .(٧٦)

كـانـت الصـوارى وقصبـات الاشرعـة ، شأنهـا شأن هيـاكل المراكب ، تصنع من خشب جوز الهند أو خشب الساج ، ولهذا فهى تمتاز بطولها ، الذى قد يصل لثلاثة أضعاف طـول السفينة ذاتهـا .(٧٧) أمـا بالنسبة للاشرعة فتصنع من سعف جوز الهند ، أو سعف النخيل ، أو من نسيج القطن . وقد أكد جون مونتى كورفينو هذه الاوصاف عند تحدثه عن سفن البحر العربى ، الا انه قال : ان اشرعتها مصنوعة من الحصران ، أو من ملابس بالية .(٧٨) ، وهو أمر لا يبـدو دقيقا بـالنسبة للنـاحية الاخيرة .

لم تتغير السفن العربية الكبيرة ، سواء من ناحية الشراع أو في بدن السفينـة ، الا قليلاً منـذ القرن الخامس عشر . فهى تحتوى في الغالب على ساريتين ، وكل سارية تحمل شراعين مثلثى الشكل ، والحـافة الامامية مشدودة شداً محكما بفناء طويل مرفوع بصورة مائلـة نحو الشراع .

يعد الشراع المثلث الشكل مساهمة خاصة للعرب في تطور صناعة السفن المعروفة انذاك في العالم . اذ انها تحتوى على شراع ذى كفاءة عالية وإن كفاءة اى شراع عندما تواجه السفينة الرياح يعتمد بشكل كبير على امتلاكها الحافة الامامية وعلى ربطها قدر الامكـان ، وهذه الكفـاءات كانت متوفرة في السفن المثلثة الشراع بواسطة عـارضة الشراع ، وعلـى ادوات الضبط البسيطة التى يوفرها الشراع والتى بالامكان ان تتغير لتلائم اى تغير في هبوب الرياح .(٧٩)

وعلى الرغم مما في السفن العربية مثلثة الشراع من مميزات ، فان فيها جانبين سلبيين هما : الاول . هو صعوبة التفاف الشراع حول السفينة ، اذ تعرف السفينة العربية بوجود جهاز يمد من مقدمة السفينة الى مؤخرتها ، يتغير وفقاً لأتجاه الرياح ، ولكن هناك ظروفاً معقدة وغير مريحة في اداء هذه العملية ، بخاصة وان ربان السفينة نفسه كان مسؤولاً عن تغيير اتجاهها . اما الجانب السلبي الاخر فهو حجم الساريه (الصارى) ووزنها . ذلك ان تصميم السفن المثلثة الشراع يقوم على اساس ان الشراع الواحد يمكن ان يحمل في سارية واحدة . وعلى ذلك فإن الاشرعة يجب ان تكون كبيرة وطويلة جداً ، وربما تبلغ ثلاثة اضعاف السفينة ، وعلى الرغم من هذه السلبيات كما يقول بارى Prry ، فإن السفن العربية بشكل عام ، «سهلة الاستعمال ومتينة وذات قيمة بحرية ، وان تلك التى استخدمت لعبور المحيط الهندى في القرن الخامس عشر قد صممت بصورة افضل من أى سفينة اوربية في القرن ذاته .(٨٠)

ب . صناعة السفن الهندية .

قد لا يكون المرء مخطئاً اذا ما ردد مقولة حورانى «بان الانماط التقليدية لبناء السفن لا تراعى دائماً الحدود بين البلاد ، والادلة التى تأتى من غربى الهند قد تضارع في الاهمية الادلة الواردة من الخليج العربى ومعنى هذا وجود كثير من التأثيرات .(٨١) الحضارية في بناء السفن بين دول حوض المحيط الهندى ، وبالذات الهند واقطار الخليج العربى ، تلك التأثيرات التى نلمسها في أكثر من جانب واحد ، وبالذات في مجال بناء السفن واشكالها .

ومما لا شك فيه ان الهند تعد باستمرار واحدة من أهم مصادر الاخشاب الصالحة لبناء السفن ، بخاصة خشب الساج الذى يتوافر بكميات هائلة فيها . الا ان ماركوبولو الذى زار هذه البلاد في القرن الثالث عشر ، وترك لنا معلومات تفصيلية جديرة بالملاحظة حول السفن الهندية ، يذكر «بان سفنهم مصنوعة من خشب التنوب» .(٨٢) ، وهو من الانواع التى لا تتوافر الا في المناطق الاستوائية في تلك البلاد التى يصعب الوصول اليها .

وعلى اية حال ، فان السفن الهندية لا تختلف كثيراً عن السفن العربية من حيث شد الواحها المزدوجة بعضها الى بعض شداً متيناً وطلائها بمادة شحمية من أجل سد الثقوب الناتجة عن ربطات الحبال المصنوعة من خيوط جوز الهند والقنب لئلا ينفذ منها

الماء . الا ان هناك بعض الاختلافات التى يطالعنا بها ماركوبولو عند وصفه للسفن الهندية حيث يقول :

«وجميع السفن منشأة بالواح مزدوجة ، اعنى ، ان لها طبقة اخرى من الالواح الواقعة الممدودة فوق فرشة الفلنكات (الالواح الغليظة التى يعشق بعضها في بعض ، بكل جزء من اجزاء السفينة ، ثم تقلفط هذه الالواح بالشاقة (الحبال البالية)من الداخل والخارج ، كما تثبت بالمسامير الحديدية . وهى لا تطلى بالقار ، لأن البلاد لا تنتج تلك المادة ، ولكى تكسى قيعان السفن بالتركيب التالى فيتناول الناس الجير الحي والقنب معاً ، يضيفون اليهما نوعاً من الزيت يحصلون عليه من شجرة معينة مكونين من المجموع ضرباً من المعجون ، يحتفظ بخواصه اللزجة بشكل اثبت ، كما انه مادة افضل من القار . (٨٣)

والناحية الاولى التى تسترعى الاهتمام في هذا النص هي مسألة استخدام المسامير الحديدية ، التى لم تكن مألوفة كثيراً في سفن المحيط الهندى . غير ان نصوصاً اخرى كثيرة وردت في مطلع القرن السادس عشر ، على لسان كل من فارتو مانوس وفارثيما ، تؤكد استخدام الهنود للمسامير الحديدية في صنع سفنهم ، حيث يقول فارتومانوس الذى زار الهند عام ١٥٠٢ . «وفي ربط سفنهم فانهم لا يضعون اى حبل ولكن يربطون الالواح الخشبية بصورة طبيعية ، بحيث انها تمنع دخول الماء فيها ، وعندئذ يطلون هذه الالواح بالزفت ، ويجعلونها بصورة اقوى عن طريق استخدام مسامير من الحديد .(٨٤) ويؤكد فارثيما ايضاً « بانهم كانوا يصنعون كميات كبيرة من المسامير الحديدية» .(٨٥)

وعلى الرغم من ذلك فان مسألة استخدام الهنود للمسامير الحديدية ، لا يمكن ايعازه الى التأثيرات البرتغالية وحدها ، طالما ان سكان المحيط الهندى حاولوا تقليد البرتغاليين في بناء سفنهم التى اظهرت تفوقاً ملحوظاً في بداية الامر ، وذلك بدليل ان الهنود كانوا يستخدمونها منذ القرن الثالث عشر .

وفي هذا الصدد يجدر بنا ألا نتوقع أن جميع السفن الهندية كانت مربوطة بالمسامير الحديدية ، ذلك لأن روايات اخرى تطالعنا بعدم استخدامها ، اذ يقول جوردانوس عند حديثه عن سفن مليبار : «ان سفن هذه المناطق الهندية هي من نوع رائع وذلك لأنه على الرغم من انها كبيرة جداً ، فانها لا تربط بأى نوع من الحديد (المسامير) ، ولكنها تخاط بالخيوط المعمولة من الالياف .(٨٦) ويؤكد ابن بطوطة هذه المسألة

أيضا ، وذلك من خلال حديثه عن سكان احدى الجزر الهندية الذين كانوا يفضلون استخدام السفن المخيطة على نظيرتها السفن المسمرة ، لأن الاخيرة عرضه للتحطم في حالة اصطدامها بالحجارة والشعاب المرجانية الموجودة في البحر .(٨٧)

واختلفت الروايات المتوافرة بين ايدينا عن وجود سطح للسفن الهندية وانعدامه ، فجوردانوس ، وفارتومانوس ، وفرثيما يؤكدون جميعاً بان السفن الهندية مفتوحة ، وغير مغطاة ، وهذا ما يجعلها عرضة لتسرب الماء الى الداخل .(٨٨)

الا ان روايات اخرى تؤكد وجود السطح ، حيث يقول ماركوبولو : «وللسفن (اى الهندية) سطح واحد يقسم الفراغ تحته الى حوالى ستين مقصورة صغيرة ، تقل أو تزيد تبعاً لحجم السفن ، وكل منها معد لنزول تاجر واحد» .(٨٩) وهذا ما يمكن استنتاجه ايضا من رواية نيقولا دى كونتى ، وهو احد البنادقة الذين عاشوا في الهند لمدة اربعين سنة ، وذلك في الجزء الاول من القرن الخامس عشر ، الذى اعطى تفصيلات مهمة في بناء السفن الهندية التى وصفها بأنها اشبه بالبيوت الكبيرة .(٩٠) ولا تعنى هذه الاوصاف اكثر من وجود سطح للسفينة يحميها من الامطار ومن رذاذ ماء البحر .

على ان هناك سفناً كبيرة من انواع مختلفة ، قسم منها يتميز بانه مسطح القاع ، كما هو الحال في سفن (تارنارى) الهندية ، وذلك من أجل تمكينها من الدخول في المناطق الضحلة .(٩١)

وتحدثت المصادر عن سفن مؤلفة من ثلاثة الواح خشبية ، وذلك لمقاومة العواصف التى تتعرض لها السفينة .(٩٢) ويشير ماركوبولو في القرن الثالث عشر الى هذه الحالة بقوله : «واذا احتاجت السفينة الى اصلاح ، بعد ان تقضى في رحله لها سنة أو أكثر ، فقد جرت العادة بكسائها بطبقة من الخشب تعلو



الواحها الاصلية ، مكونة طبقة ثالثة ، فتقلفط وتعمد بمادة عازلة بنفس طريقة معالجة الطبقات الاخرى ، ويتكرر ذلك كلما احتاجت الى اصلاح جديد حتى يبلغ عدد الطبقات ستا ، وبعدها تدخل في عداد عدم الصلاحية للخدمة وعدم الجدارة بالابحار .(٩٣)

وعلى خلاف السفن العربية المؤلفة من صار واحد وشراع واحد ، أو صاريين وشراعين ، فان السفن الهندية كانت مختلفة الاعداد ، وذلك تبعاً لحجمها . فقد اشار ماركوبولو الى احدى السفن الهندية المؤلفة من أربع ساريات لكل منها شراع واحد .(٩٤) واشار نيقولا دي كونتي ، الى سفينة هندية مؤلفة من «خمسة اشرعة ومثلها من الصواري» .(٩٥) ولكن يبدو ان أكثر السفن الهندية شيوعاً هي تلك المصنوعة من صاريين ، حيث يضعون فيها شراعاً واحداً ، واخر للاحتياط ، للافادة منه عند الابحار ، وعند الرغبة في الافادة من مجرى الرياح واتجاهها . وكانت الاشرعة مصنوعة في الغالب من القطن .(٩٦)

وعلى اية حال ، فقد تطورت صناعة السفن الهندية بشكل كبير ، بحيث انها غدت مهيأة لنقل الركاب والبضائع في ذات الوقت ، وهذا ما تعكسة اشارات ماركوبولو . كما ان هذه الاشارات تدل على ان هناك انواعا من السفن قد أصبحت تتطلب طاقماً مؤلفا من ثلاثمائة رجل ، والبعض الاخر مائتين وغيرها مائة وخمسين فقط ، حسب تفاوت حجمها كبراً وصغراً . كما ان هذه السفن كان بامكانها ان تحمل عدداً من السلال (زكائب الحصير الملوءة بالفلفل) يتراوح من خمسة آلاف الى ستة ، وهي حقيقة تشير الى مدى حمولة السفن الهندية .(٩٧)

وتصحب كل سفينة كبيرة من هذا النوع سفن اصغر تدعى بالباركات Barks وذلك لمساعدتها عند الحاجة . يقول ماركوبولو في ذلك :

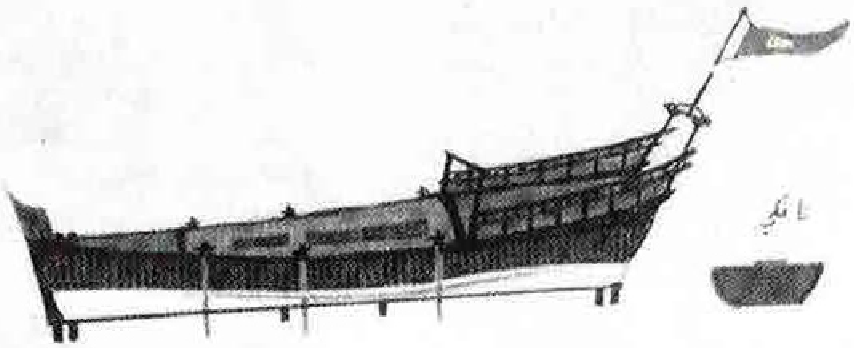
«وسفن الحجم الكبير تصحبها اثنتان أو ثلاث من الباركات Barks الكبيرة (أو سفن بثلاث ساريات سعتها الف سلة من الفلفل ، وعليها ملاحون عدتهم ستون أو ثمانون أو مائة . وكثيراً ما تستخدم هذه السفن الصغرى في سحب الكبرى ، متى استخدمت مجاديفها ، أو حتى متى كانت تستخدم الشراع شريطة ان تهب الرياح على جانب السفينة ، ولكن ليس من خلفها . وتحمل السفن معها ايضا عدداً من الزوارق الصغيرة يصل الى عشرة لكي تحمل المراسى الى حيث تلقى ، ولصيد السمك فضلاً عن مآرب اخرى ، وهي معلقة على جوانب السفن ، وتدلى الى الماء متى دعت الحاجة الى استخدامها» .(٩٨)

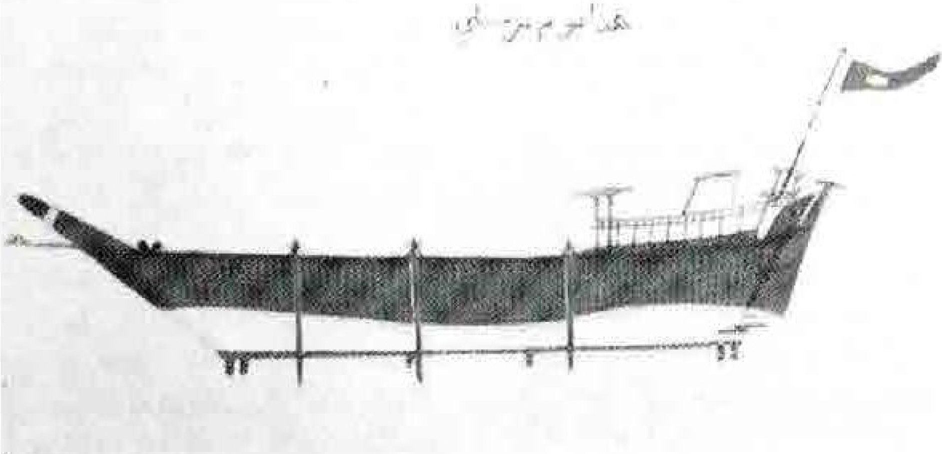
٣ ـ انواع السفن العربية والهندية .

أ ـ السفن العربية وطرزها .

شهدت منطقة المحيط الهندى والخليج العربى وجود عدة انواع من السفن ، الكبيرة والصغيرة ، وكما اختلفت انواعها فقد اختلفت اسماؤها من بلد الى اخر ، حتى ان انواع السفن على تلك الصورة يعد من الصعاب التى كانت تقابل ربابنة السفن والتجار فضلاً عن المسافرين .

وترجع الصعوبة في تصنيف السفن العربية لكون ان بعض الكتاب والملاحين العرب كانوا يذكرون اسماءها بصورة مجردة دون ان يحددوا نوعية السفينة . ولما كان حوض الخليج العربى والمحيط الهندى منطقة شاسعة جداً ، لذلك فان مسميات اخرى للسفينة ذاتها قد نجدها في مكان اخر ، وهذا ما يزيد من حالة الارباك في تلك المسميات والاصطلاحات .(٩٩) فعلى سبيل المثال ، فان (البلم) الذى تسمى به المراكب النهرية الصغيرة في العراق ، قد نجده في موانىء أخرى بأسم (ماشة) أو (جالبوت) .(١٠٠)



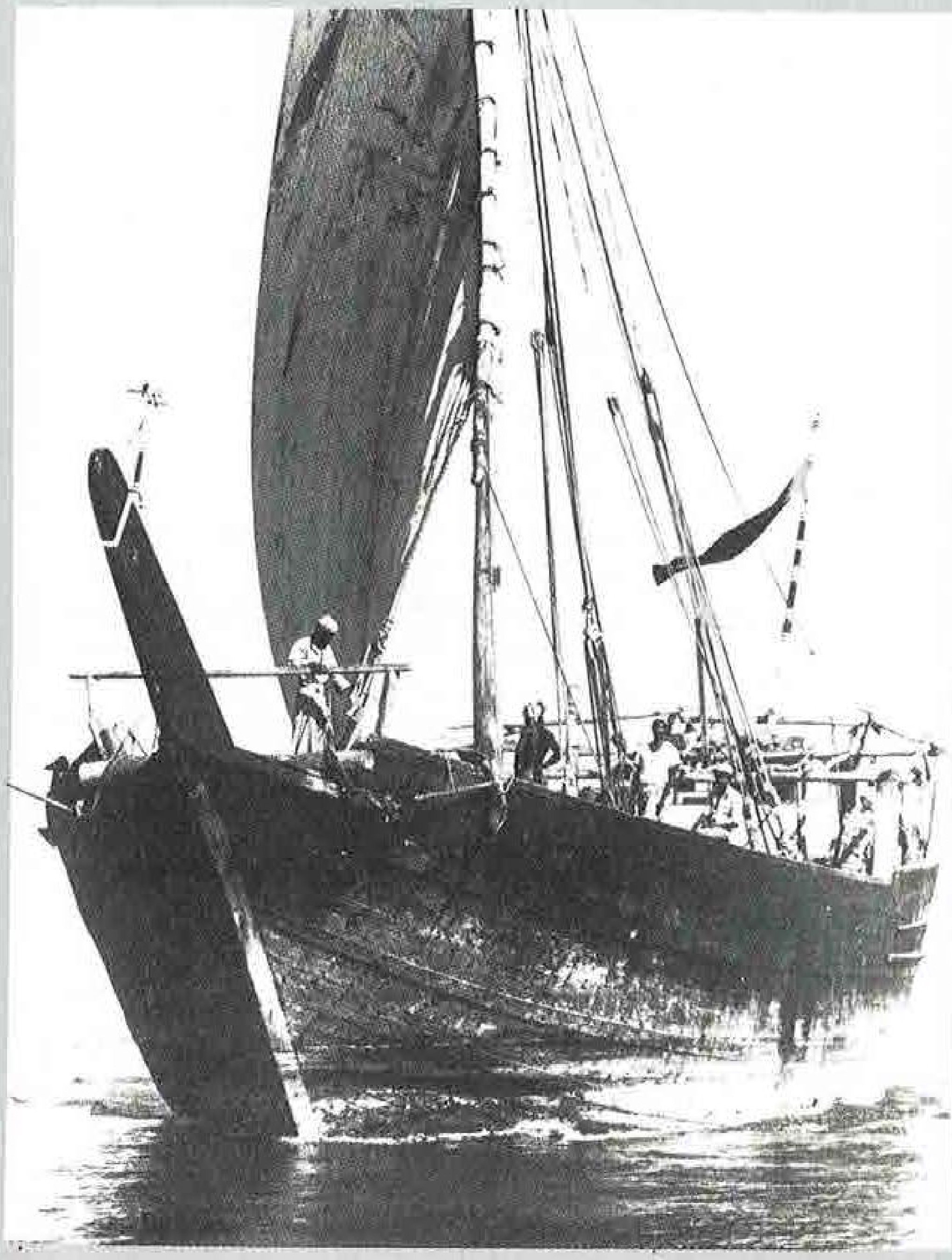


ومهما يكن من أمر ، فان شكل الهيكل كان اساساً في تقسيم السفن وتصنيفها كما هو الحال اليوم ، بخاصة وان السفن العربية كانت تبنى على اشكال الحيوانات كالغراب والبوم والبغلة وما الى ذلك ، وان اطرافها كانت حادة تشبه المنقار ، اما المركب والسفينة . فقد استخدمت بشكل اصطلاحات عامة تطلق على جنس السفينة . (١٠١) . وفي هذا البحث سوف يجرى التأكيد فقط على السفن التى كانت معروفة في الفترة ما بين القرنين الثالث عشر والسادس عشر ، دون التطرق الى ما يرد منها باسم سفينة أو مركب أو خشبة .

يعد (الغراب) المعروف بتجويفه وقعره العميق ، وغياب المؤخرة الطويلة الناتئة ، نموذجاً للسفينة العربية في القرن الخامس عشر وحتى الوقت الحاضر . (١٠٢)

ومع ان النصوص العربية لا تحتوى الا على اشارات قليلة متناثرة عن السفن العربية واشكالها ، فقد عثر تيم سفرن في

المصادر البرتغالية على صور لمراكب عربية تتميز بوجود رسم الهلال الاسلامى على اشرعتها وكان معظمها



من طراز (البوم) ، مما يدل على شهرتها ونشاطها ، وعلى ذلك تصبح (البوم) ، التى لها تاريخ ضارب في القدم ، ومصممة للابحار بالاشرعة ، ومعروفة بانها غاية في البساطة ، والاناقة ، نموذجاً آخر للمراكب التجارية قبل وصول البرتغاليين للخليج العربى .(١٠٣) وعندما تعرض هورنيل Hornell للحديث عن (البوم) ، فقد وصفها «بانها من اكثر انواع السفن العربية التجارية التى لم يطرأ عليها تغيير كبير» (١٠٤)

ان عراقة (البوم) واصالتها قد دفع برنس Prins للقول «ان البوم هى دائماً البوم ، وان الشيء ذاته يمكن ان يقال بالنسبة للبغلة» .(١٠٥) غير ان هذا التصميم يمكن ايضاحه بالقول ، بأن هناك بعض السمات العامة المميزة التى تجعلنا قادرين على التفريق بين كل من البوم والبغلة ، آخذين بنظر الاعتبار حوض السفينة لا اشرعتها . فاذا كانت السفينة محددة المؤخرة اطلق عليها اسم (بوم) ، واما اذا كانت عريضة ومقورة الوسط فتسمى (بغلة) ، نسبة الى اسم الحيوان المشهور المتولد من الحمار والفرس . (١٠٦)

ومن السفن التى عرفها الخليج العربى والمحيط الهندى (الداو) . ومع ان هذه الكلمة ليست عربية اصلاً ، وانما عرفت في اللغة السواحلية (داو) ، الا انها اصبحت معروفة في المحيط الهندى والخليج العربى ، واطلقت على السفن المتوسطة الحجم والصغيرة .(١٠٧)

ويعد هود لستون Hudd Iston الداو من افضل المراكب المحلية الصغيرة ، التى استخدمها العرب وبنوها في مناطق مختلفة من الخليج العربى والبحر الاحمر ، وذلك لأن اشرعتها المثلثة الكبيرة كانت ذات قدرة عالية على مواجهة العواصف مما يجعلها أفضل انواع المراكب لربابنة البحر ويبلغ حجم المركب الكبير بما يعادل ٨٥ قدما طولاً ، و ٢٠ قدما و ٩ انج عرضا ، و ١١ قدماً و ٦ أنج عمقا .(١٠٨)

والى جانب السفن الكبيرة ، فقد كان هناك عدد غير قليل من السفن المحلية الصغيرة ، التى يتردد اسماء البعض منها كثيراً . فالبتيل مثلاً ، وهو من القوارب الساحلية ذات النهايات المزدوجة ، يعرف بوصفه من مراكب الصيد المستخدمة في الموانيء العمانية .(١٠٩) ومثله يقال بالنسبة (للبدن) ، الذى هو من المراكب الصغيرة المعروفة بحوضها الغريب ، ويستخدم في موانيء عمان أيضا .(١١٠)

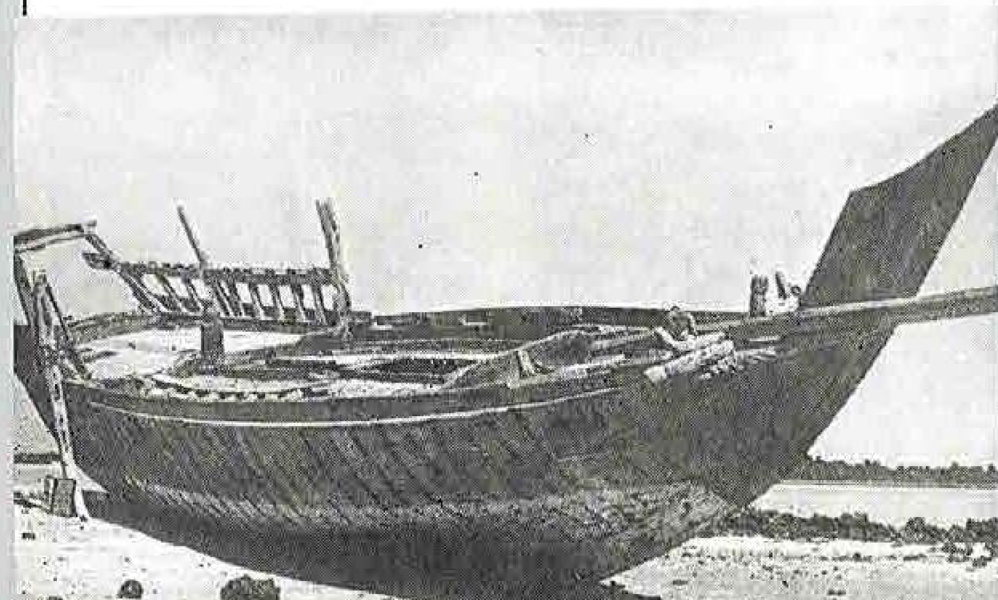
على ان هناك بعض السفن التى اشتهرت في مناطق معينة من البحر الاحمر أو سواحل الهند ، ولكنها

عـرفت ايضا في منـاطق الخليج العربى . فالسنبوق او الصنبوق مثلا عرف بانه من الزوارق الصغيرة الكثيرة الاستخدام في البحر الاحمر ، ولكن ابن بطوطة اشار اليه في معرض حديثه عن الانتقال من البصرة الى الابلة ، حيث قال : «ثم ركبت من ساحل البصرة في (صنبوق) - وهو القارب الصغير الى الابلة[١١١]

اما العكير - كما سنرى - فهو من المراكب المشهورة في الهند ، وهى تسمية يبدو انها اختفت الان من اسماء السفن المستخدمة في الخليج العربى . ولكن يبدو ان (العكير) قريب نوعا ما من البتيل .[١١٢] وهو قارب ذو نهاية مـزدوجة ويستخـدم لصيد اللؤلؤ ، ووفقا لما ذكره ابن ماجد فان (العكير) هو من المراكب التى تستخدم بصورة محدودة النطاق من قبل ملاحى المحيط الهندى ، وكان يبحر ما بين عدن والشحر الى هرمز ، ومن الهند الى كوجرات . ومن المحتمل ان يكون العكير بمثابة مركب خفيف وهو امن في السيرمع الرياح الخطرة .

ب . السفن الهندية وانواعها :

كما ان السفن العربية تعرف باسماء مختلفة ، وهى ذات انواع متعددة ، فان الشيء ذاته يمكن ان يقال بالنسبة للسفن الهندية . فقد بنيت في سواحل الهند قوارب ومراكب متنوعة ، مايزال قسم كبير منها



معروفا حتى الوقت الحاضر ، وهو يذكرنا بالاوصاف التى تركها لنا الجغرافيون العرب والرحالة الاوربيون الى منطقة المحيط الهندى .(١١٣) فالسفن التى ركب فيها ابن بطوطة مثل عكيرى وجاكر ومنورت ، هي نفسها السفن التى اشار اليها الرحالة الاوربيون في مطلع القرن السادس عشر ، وظل قسم منها معروفا حتى الوقت الحاضر .

ويعلل هود لستون هذه المحافظة التى بقيت عليها السفن الهندية بقوله :

«ان طبيعة السواحل والموانىء الموجودة فيها (أى الهند) تستدعى ان تكون هناك انواع خاصة من القوارب والمراكب ، لكون الهند تعد من البلاد المحافظة للغاية ، ولهذا نجد بأن السفن التى وصفت في القرن السادس عشر وما قبل ذلك هي نفسها التى ما تزال موجودة حتى يومنا هذا . والهند بلاد مشهورة بقواربها الصغيرة والسفن والمراكب الشراعية الساحلية تتراوح حمولتها في الغالب ما بين عشرة الى ثلاثمائة طن ، ولا تتجاوز ذلك باى حال من الاحوال» .(١١٤)

ولعل من اكثر انواع السفن الهندية شهرة الاتي :

١ ـ العكيري .. وهو ضرب من مراكب الهند الحربية ، ويستعمل في حراسة سفن التجار والمسافرين ، ويستخدم في القتال في حالة الغزو ، ذكره ابن بطوطة خلال كلامه عن سلطان قندهار بما يفيد انه يشبه المركب المعروف بالغراب ، وهو من المراكب المكشوفة ، ولا يغطى الا في حالة اشتراكه في القتال .(١١٥) ويقول الندوى بانه من المراكب كثيرة الاستعمال في الهند والسند ، اذ كان أهل هذه البلاد يستخدمونه أكثر من بقية السفن ، وكان في المركب الواحد ستون مجدافا .(١١٦)

٢ ـ الجنك .. يعرف الجنك بانه من سفن الصين الحربية الكبيرة ، وقد ورد ذكره بصورة مفصلة عند ابن بطوطة اثناء تحدثه عن السفن الصينية الا اننا نجد ذكره مقرونا ايضا بالسفن الهندية ، سواء مع السفن المخصصة لنقل الركاب ، أو السفن المخصصة لنقل البضائع .(١١٧) ووصفه فارثيما في مطلع القرن السادس عشر بقوله : «وهناك نوع آخر من السفن الهندية الكبيرة يدعى(جنك) ، ويمتاز بأنه ذو حمولة تزن طنا واحدا من (البت ـ ويساوي ١٢٦ غالونا) وتحمل كل سفينة منها مجموعة من القوارب الصغيرة» .(١١٨)

٣ ـ الكوتية .. وهناك نوع آخر من السفن الهندية يعرف باسم

(الكوتيه) ، وهى تشبه سفن الخليج العربى المسماة بـ (جنجة) من حيث حجمها وسعتها وتبلغ حمولتها ما بين ألف الى الفي طن .(١١٩)

لقد درس فيلرز هذه السفينة عن كثب ، وبالذات في منطقة كجرات ، وهو يميل الى الاعتقاد بان هذا النوع من المراكب قادر على ان يقوم برحلات طويلة الى شرق أفريقيا ، اذ يقول : «ان الكوتية ، هي أكثر قوة من الداوات والبغلات العربية ، وان منطقة كجرات تجرى تعديلات مستمرة في صناعتها» .(١٢٠)

٤ ـ منورت .. وهى من السفن الهندية المستعملة لنقل المسافرين واسبابهم حيث ذكرها ابن بطوطة وهو يتحدث عن سلطان قندهار بالهند فقال : «وركبنا في مركب لأبراهيم المذكور يسمى الجاكر .. وجعلنا فيه من خيل الهدية سبعين فرسا ، وجعلنا باقيها مع خيل اصحابنا في مركب لأخى ابراهيم يسمى (منورت) .(١٢١)

٥ ـ البغلة .. وتشابه في تسميتها السفينة العربية المعروفة بالاسم ذاته . وتمتاز باتساعها بنسبة طولها ، ومع ذلك يقال بأنها تاخذ طرازاً مماثلاً لما كانت عليه ايام الاسكندر المقدونى . وعلى اية حال ، يبلغ طولها ٦٤ قدماً وعرضها ٢٥ قدماً وعمقها ١١ قدماً و ٦ انج . وهي تبحر في الغالب الى سواحل كجرات ومليبار وسواحل الجزيرة العربية لنقل السلع التجارية .(١٢٢)

وهناك كثير من السفن الهندية الصغيرة والكبيرة التى اشار اليها فارثيما في مطلع القرن السادس عشر حيث يقول :

«اما بالنسبة لسفنهم ، فهناك ما يدعى بـ (السنبوش) ، والمقصود (السنبوق) ، وهذه مسطحة القعر . كما ان هناك سفناً اخرى وهى تشبه سفننا ، وذلك من حيث طريقة قاعها ، وتدعى كبل Capel . ويبلغ طولها تسعة اذرع ، وكل منها مؤلف من قطعة واحدة ، وهي تسير بطريقة المجاديف المصنوعة من القصب (قصب الخيزران) ، وان الصارى نفسه مصنوع من هذه المادة ايضاً» .(١٢٣)

ويحدثنا فارثيما عن انواع اخرى من المراكب التى تسير بواسطة الشراع والمجاديف معاً . وهذه جميعاً ـ كما يقول فارثيما ـ مبنية من قطعة واحدة ما بين اثنى عشر الى ثلاثة عشر ذراعا لكل منها . وان فتحتها الخارجية ضيقة جداً بحيث لا يستطيع رجل واحد ان يجلس بجوار الاخر ، ولهذا فان الشخص يكون مضطراً لأن يجلس امام الاخر ، وهى حادة وتدعى كاتورى Chat uri وهى تسير أما بطريقة الشراع أو المجاديف ، وهذه النوعية من المراكب هي اكثر سرعة من الكالى Calley اوفيستا Fustaأو البارجة .(١٢٤)

وأخيراً يشير فارثيما ، وهو يتحدث